مصر في أربعة عشر قرناً

الحكام من عمرو بن العاص
إلى
عبد الناصر

دكتور
حسن عبيد
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة

١٩٨٨

دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت

مصر في أربعة عشر قرناً

حكام مصر من عمرو بن العاص
إلى
عبد الناصر

دكتور
حسن عبيد
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة

١٩٨٨

دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت

بسم الله الرحمن الرحيم

« وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين أمنوا
ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين »

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم وامانـــة

يدخل الباحثون والمحققون من علماء التاريخ فى البحث وفقا لمناهج علمية متعددة ، فمنهم من يذهب الى التوثيق والتحقيق لاحــداث فترة بعينها ، ومنهم من يربط بين الظواهر الاقتصادية والاجتماعية عبر فترات مختلفة عاملا على استنباط حقيقة أو نتيجة يقدمها للقارىء أو للباحثين من بعده ، ومنهم من يقرأ فى التاريخ ليسهل قراءة الواقع ، وليبسر أدوات القياس لقراءة مستقبل قريب أو بعيد ، ومن هنا كان لعلم التاريخ قدسيته اذا ما التزم الباحث بمنهج علمى أمين يرجع فيه الى المصــادر الاولى لمادة البحث والى ما كتبه المعاصرون لفترة البحث والمحللون فى فترات لاحقة .

وقد كانت المهمة صعبة ولكن اجتازها علماء عمالقـــة دأبـــوا على التسجيل والتحليل وملأت كتاباتهم الصحائف الاولى حين كان المداد بدائيا بعيدا عن ميكنة المطابع وآليتها ، وكان المضمون رائعا عبقريـــا صاحبه الجهد والعرق . وكان الدافع هو تسجيل الحقائق مجرده لوجه الله ، محايده فى مبناها ومعناها ، ومن هؤلاء كان السلف ، كان السيوطى وابن اياس والجبرتى ، وان كانت هناك كتابات بعدت عن الحقيقة لارضاء حفنه حاكمة أو ابتغاء مصلحة بعينها استطاع استاذنا حسين مؤنس أن يطلق على مجموعها أنها ظلمات بعضـــها فـــوق بعض الا أن المحققون والموثقون من بعدهم قد بذلوا الجهد لاستظهار الحـــق مـــن أطراف السطور وتباين المسطور ، والتعرف على الثقاه منهم وتفنيـــد الســـند وتوثيق المقوله فكان على مبارك والرافعى وشفيق غربال ومحمد كامـــل حسين ، ومن بعدهم آخرون نهجوا نهجهم فى احباط شهادات الـــزور

فى التاريخ ، فكان محمد فؤاد شكرى ومحمد رفعت رمضان ومحمد مصطفى زيادة ، وما زال النبض مستمرا ليكتب ويحقق حسين مؤنس وجمال الشيال وسعيد عاشور وجوزيف نسيم ، بل وأكثر من ذلك يبدأ الباحثون الشباب من علماء التاريخ فى التقصى والاقتداء والاهتداء بعد أن خرج عليهم العالم العملاق جمال حمدان بموسوعته العلمية الفريدة « شخصية مصر » التى سطرها بعلم واقتدار وايمان بالله ثم بالقلم الذى أقسم به الله ، والذى تناوله ذلك العالم فأعطاه حقه فى تسطير الحقائق موثقة لا ريب فيها الا ما شاء الله أن تكون هناك جمله أو صفحة أو فصلا يشوبه ما يشوب أعمال البشر والعلماء منهم فما أوتينا من العلم الا قليلا ، ولكنه كان جمال حمدان العالم والمعلم ، وكانت الخواطر التى تستند الى العلم والاصالة فى كتابات شخصية مصر لاستاذة فاضلة جليلة آمنت بأن تكون شهادتها نور على نور فكانت نعمات أحمد فؤاد •

كان هؤلاء من السلف والخلف هم الذين أفضت الى كتاباتهم أن أقوم بعمل الاعداد وأقولها مجرد الاعداد والترتيب لمسيرة حكام مصر •

— ربما كان لى أن أضع اجتهادات فى سرد الحوادث •

— وربما كان لى أن أضيف تحليلا أستطيع أن أخلص منه الى رسالة أوجهها للقارىء فى النهاية •

— وربما كان لى أن أتأثر باسلامى وعروبتى ومصريتى على نحو يتفق أو يختلف مع هؤلاء العظام •

— وربما كان لى أن استرشد فى كثير من الاحيان بما خلص اليه المجاهد الكبير العالم أحمد حسين وهو يعد موسوعته الرائعة السهلة فى تاريخ مصر •

— وربما كان لى كل ذلك شرفا أعتز به ، ولكن ليغفر الله لى اذا ما قصرت عن ابراز فكرة ، أو تعصبت لفرضيه ظننت أنها حقيقة •

وليغفر القارئ لى اذا ما تصادم بمعلومة أو رؤيه غير تلك التى كونها من قراءات سابقة شابها الهوى والزيف أو قراءات كانت محققه للحق بأكثر مما يجده فى هذا البحث ٠

واذا أذن لى فى سطور قليله أن أذيع خاطرا سريعا ترسب لى مع مسيرة الحكام ابتداء من عمرو بن العاص وعلى مدى أربعة عشر قرنا ، وعبر نحو ١٨٥ من الحكام تواردوا على مصر انتهاء بفاروق الاول ، فان هذا الخاطر والذى أرجو ألا يكون مصادرة لرأى لاحق من القارئ هو أن قوة الحاكم وسلامة المنهج وسلامة التطبيق كانت ثلاثة عوامل وراء فترات الازدهار والنصر ، وأن تخلف احداها كان السبب فى فترات الانحدار والحسر ٠

وللقارئ الكريم اختبار تلك العوامل الثلاثة فى مسيرة حكام مصر لنأخذ منه للحاضر وربما للمستقبل ، والله ولى التوفيق ٠٠

حسن عبيد

أكتوبر سنة ١٩٨٤

مصر قبل الفتح الاسلامى

نشأت فى مصر وعلى مدى قرون عديدة أقدم حضارات العالم ، وتخلل فترات التاريخ دول كثيرة قامت فى مصر ، فكانت الدولة والحضارة الفرعونية القديمة لقرون كان فيها الازدهار والانحسار ، والرخاء والمجاعة ، وكانت المدنية وكانت الحروب ، وكان الفكر المصرى يخطو خطواته الثابتة نحو مبدأ توحيد الخالق فى اجتهادات البشرية الاولى للايمان أمام جحافل الكفر والهمجية من داخل الاسر الحاكمة ذاتها ومن خارجها ومن حولها •

ثم كانت مصر فى نطاق دولة الفرس لقرون أخرى ثم كان فتح الاسكندرية المقدونى فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد حين جاء الاسكندر غازيا بادئا صفحة جديدة لتلتقى فيها الحضارة المصرية القديمة مع حضارة الاغريق ولتقوم فى مصر من بعده دولة البطالمة التى حكمت بعد تولى بطليموس الاول ، ولتبقى هذه الدولة نحو ثلاثة قرون لتنتهى فى سنة ٣٠ قبل الميلاد •

ثم جاء الغزو الرومانى حين دخل القائد أغسطس الاسكندرية منتصرا على أنطونيوس وكليوباترا ، فدخلت مصر تحت حكم الرومان منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ٣٢٣ ميلادية •

ويبدأ بعد ذلك العصر الرومانى فى شكل جديد وهو الحكم البيزنطى ، وقد نشأت الامبراطورية البيزنطية فى نطاق الدولة الرومانية الأم ، حيث أنه فى عهد قسطنطين الاول سنة ٣٢٣ ميلادية تم تشييد مدينة القسطنطينية فى مدينة بيزنطة القديمة وأصبحت عاصمة

للامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومن ثم أخذ الطابع من بعدها طابعا متميزا يعرف باسم الطابع البيزنطى الذى بدأ بحكم قسطنطين الاول سنة ٣٢٣ ميلادية وحتى أسرة هرقل التى تهاوت أمام الفتح الاسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص فى مصر سنة ٦٤١ ميلادية .

كانت مصر خلال مسيرتها من العصر الفرعونى وعبر حكم الفرس والبطالمة والرومان الى العصر البيزنطى وحتى الفتح الاسلامى العربى، كانت مسرحا لاحداث كبيرة أثرت فى التاريخ المادى والفكرى للبشرية، وكانت مهدا للحضارة رائدة وملتقى لحضارات وافدة تأثرت بها مصر واستقرت ملامحها فى الوجدان المصرى منذ ذلك التاريخ .

ولقد عرف شعب مصر كافة أجناس الارض ، وعرفت ثقافة مصر معظم ثقافات البحر المتوسط وما وراءها ، ودخل اليها اليهود وأحبارهم، ودخلت اليها تعاليم السيد المسيح فى فجر دعوته ، وأحتضنت مصر تعاليم السماء ، وظهرت فى مدنها وقراها على مدار التاريخ كله بيوتات تعرف الصلاة الى الله الواحد الاحد قبل وبعد أن أتت اليها رسالات السماء .

عرفت مصر خلال تاريخها مختلف اللغات واللهجات التى كانت تلوك بها ألسنة الاجناس الوافدة .

وتبعا لذلك فعندما جاء الفتح العربى برسالة الاسلام الخاتمة

واللسان العربى كانت مصر قادرة على التمييز بين ألغث والسمين كانت قادرة على الاخذ والعطاء فأخذت وأعطت ، وكان عطاؤها مددا لقادة الفتح الاسلامى لقرون طويلة تاليه لفتح بلاد أخرى واستيعاب حضارات جديدة .

وكانت البداية مع الحاكم العربى الاول عمرو بن العاص .

(١) عمرو بن العاص

يعتبر عمرو بن العاص هو قائد الفتح العربى الاســلامى لمصر ، واول حكامها المسلمين ، ولعله بحق كان واضع اللبنة الاولى فى تأصيل عروبة مصر واسلامها ، كما أنه المؤسس لدولة استطاعت بعد عهد قليل أن تنصهر فيها مختلف الاجناس والجنسيات واللغات التى عـبرتها فى قرون غابرة فى مصرية واحدة ، وكانت السماحة والعدالة التى جاء بها عمرو بن العاص مع قافلة الاسلام الاولى قد أرست حقوق أهل الذمة من أصحاب الديانات التى لم يدخل معتنقوها الاسلام •

ولعل أن ارساء عمرو بن العاص لمثل هذه القواعــد أبقى عـلى الديانات غير الاسلام مصونة فى معابدها وفى اشخاص زعمائها وكهانها ، واستطاعت هذه القواعد أن تصمد مئات القـرون وان كان قد قابلهـا تعسفات عارضة من حكام لاحقين عبر هذا التاريخ • ومن المفيد أن نقف أمام هذا القائد الفذ والحاكم الاول لمصر الاسلامية بمزيد من التفصيل عن سيرته وسيرة الفتح ومسيرة الحكم فى عهده التى عملت على نصرة الاسلام واحترام العقائد الاخرى وبناء مصر على نسـق يجمع بـين خصائصها المصرية البحتة وامتدادها العربى والاسلامى •

ينتسب عمرو بن العاص (١) الى قبيلة قرشية تدعى بنى سهم ولذلك نجد ان كثير من المراجع تلقبه بعمرو بن العاص السهمى •

---

(١) راجع سيف الدين الكاتب « عمرو بن العاص السهمى » دار اقرأ سنة ١٩٨٤ •

وقد ولد عمرو بمكة قبل الهجرة النبوية بنحو خمسين سنة ، وقد نشأ نشأة ميسرة حيث كانت أسرته تعمل بالتجارة ، وتذكر الشواهد التاريخية أنه كان خبيرا بالبلاد المحيطة لشبه الجزيرة العربية التى كانت تتم فيها صفقات التجارة مثل الحبشة ومصر واليمن .

وكان عمرو أحد فرسان قريش فى الجاهلية ، ومن الصفوة أولى الرأى والحزم ، وكان ملما بالقراءة والكتابة ، بل كان يعد احد بلغاء العرب فى حينه . ولقد دخل عمرو بن العاص الاسلام مبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فترة من الجفاء والعداء ، حيث أسلم قبل الفتح بنحو ستة أشهر بعد ثمانى سنوات من الهجرة وكان اسلامه عن اقتناع وحكمة ولذلك فقد روى عن رسول الله أنه قال « اسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » .

حاز عمرو ثقة رسول الله بمجرد اسلامه وذلك لما قد بلغ الرسول الكريم عن سمعة عمرو فى الفروسية ولما شهده الرسول من حسن مبايعة عمرو له مستفسرا اياه عما اذا كان الله سبحانه وتعالى يغفر له ما تقدم من ذنوبة فقط ، وأن يعينه على ما تأخر ليبدأ صفحة جديدة مع الاسلام ذاكرا شاكرا . فكان لحسن مبايعة عمرو أثرا كبيرا فى أن يوليه الرسول بمجرد اسلامه قيادة سرية اسلامية تجمع بين أشراف الصحابة لردع جمع من بدو الشام كانوا يأتمرون لمهاجمة المدينة ، وحمل الرسول عمرو امانة الدعوة للاسلام فى مسيرته لهذه الغزوة التى عرفت فى التاريخ بغزوة أم السلاسل واثقا فى قدرته على استنفار العرب فى طريقة لنصرة الاسلام .

وقام عمرو بالمهمة خير قيام الامر الذى جعل الرسول يسند له مهمة الدعوة فى امارة عمان وظل عمرو فى عمان فترة من الزمن يدعو الى الاسلام حتى جاءه الخبر بلحاق النبى الكريم بالرفيق الاعلى فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، فعاد عمرو الى المدينة ليشارك خليفة رسول الله الصديق أبو بكر رضى الله عنه حملاته ضد المرتدين عن الاسلام .

وارد أبو بكر رضى الله عنه أن يخير عمرو اما أن يعود للعمل الذى أوكله له رسول الله أو الى عمل أخر تقتضية طبيعة الامور المتغيرة أنذاك فكان رد عمرو البليغ « انى سهم من سهام الاسلام وانت بعد الله الرامى بها والجامع لها فأنظر أشدها وأفضلها واخشاها » ٠

فارم بى فيها ٠ وتبعا لذلك الرد الكريم أمر ابو بكر باشتراك عمرو فى جيش المسلمين الى الشام ذلك الجيش الذى كان يقـــوده خالـــد بن الوليد ،وكان عمرو على ميمنة هـــذا الجيش الـــذى اجتمعت ألويته فى اليرموك ٠

وكانت غزوة اليرموك هى أهم الغـــزوات التى أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا وكان نصر الله حليفهم ، واستطاع جيش المسلمين أن يطارد ملوك الروم التى لاذت بالفرار لتطوى صفحة للشام تحت حكم الروم ولتبدأ صفحة جديدة للشام تحت حكم الاسلام ٠

وظل عمرو مستخلفا على حامية الاردن حيث أمره أبو عبيدة بن الجراح الذى تولى جيش المسلمين على أثر تولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة ٠ وكما كان عمرو حائزا لثقة رسول الله وثقة خليفتـــه الاول كان موضعا لثقة الخليفة الثانى عمر الذى كتب اليه يأمره بالمسير الى بيت المقدس ، ونجح عمرو فى تلك المهمة أيما نجاح فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، وقدم عمر بن الخطاب ليتسلم مفاتيح القدس ومضى عمرو فى فتوحات جديدة على سواحل فلسطين ثم بدأت مسيرة الفتح الاسلامى لمصر ٠

عمرو بن العاص وفتح مصر

تذكر المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص كان له فضل الاقناع للخليفة الثانى بضرورة فتح مصر وكان الخليفة عمر يخشى على جيش المسلمين بعد الارهاق الشديد فى الشام وفلسطين من المقاومة العنيفة التى يمكن أن يبديها الرومان فى مصر • وتذكر تلك المصادر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل كتابا الى عمرو بن العاص مؤداه ، أنه اذا بلغة الكتاب قبل حدود مصر فليؤجل الفتح وليرجع ، واذا بلغة الكتاب بعد اجتيازه الحدود فليتوكل على بركه الله (١) •

وبصفة عامة تقدم عمرو بن العاص بجيشه نحو مصر حتى اذا بلغ أول الحدود المصرية فى رفح وتسلم رسالة عمر بن الخطاب ، وأحس بأنه قد جاوز الحدود فاطمأن قلبه ومضى الى داخل شعاب مصر •

ولعل المناطق الفسيحة المتسعة فى صحراء سيناء كانت تعمرها قبائل عربية كثيرة سهلت مهمة جيش عمرو بن العاص الذى سار من رفح الى بلبيس فى مناطق يسيطر عليها العرب وليس للرومان فيها سوى حاميات قليلة ، وكان أقوى الحصون فى هذا الطريق هو الحصن

---

(١) فى هذه النقطة مناقشات كثيرة فيرى د٠حسين مؤنس أن عدم الاقدام على فتح مصر لا يتفق والطبيعة الشجاعة التى عرف بها عمر بن الخطاب وأنما كان عمر يتردد فى شخصية القائد حيث لم يكن عمرو بن العاص يقاس بكبار الصحابة الذى يجب أن يعهد اليهم فتح مصر ٠ راجع د٠حسين مؤنس تاريخ مصر من الفتح الى الفاطميين ــ كتاب الحضارة الاسلامية نخبة من العلماء المؤسسة المصرية للنشر ص ٣٣٠ •

المتيد عند مدينة الفرما وكان أول التحام بين المسلمين ورومان مصر • استمر القتال بينهم نحو شهر سقط بعده الحصن فى أيدى المسلمين فى السنة التاسعه عشرة من الهجرة وأصبح الطريق مفتوحا الى قلب الدلتا فاتجه جيش المسلمين الى بلبيس •

ويرجح أن جيش عمرو قد تزود بأعداد كبيرة من عرب جنوبى فلسطين وسيناء وشرق الدلتا ، وخاصة بعد سقوط مدينة الفرما ، هذا الى جانب انضمام كثير من أقباط مصر الى جيش المسلمين بايحاء من الانبا بنيامين بطريرك الاقباط الذى عزله هرقل واضطهده وكانت الرؤية لعدد كبير من الاقباط شعبا وقساوسة بأن دولة الروم فى مصر مصيرها الى الزوال على يد العرب الغزاة •

ويرى بعض مؤرخى الاقباط بأن بداية الفتح شهدت حياد الاقباط فى النزاع متمنيين زوال سلطة الروم ، ولكن بمجرد سقوط حصن بابليون وفتح الفيوم انضم الاقباط صراحة الى جيش المسلمين •

وفى بلبيس التحم المسلمون مع احدى الحاميات الرومانية واستولوا عليها ثم اتجه عمرو الى مركز القوى الفعلية الرومانية فى مصر المحصنة فى بابليون ، وهذا الحصن يمتد الى مساحة كبيرة فى الضفة الشرقية للنيل من جنوب عين شمس الحالية الى حدود جزيرة الروضة • وتقدم عمرو لحصار بابليون بعد أن طلب مددا من أمير المؤمنين حيث عانى المسلمون شديدا لقلة عددهم فى مواجهة هذا الحصن المنيع ، ووصل المدد بعدة الاف من الجند بقيادة الزبير بن العوام وعدد من أشداء الصحابة وبدأ عمرو بعد وصول ذلك المدد بالاعداد للقتال بورقة سياسية حازمة مؤدها الفصل بين الروم والاقباط ، فالتقى برجال الدين من القبط وعرض عليهم الاسلام وعرض عليهم شروط الاسلام العادلة ، وكيف يمكن للاسلام أن يضفى حمايته على أقباط مصر وعقيدتهم ان لم يدخلوا فيه مقابل الجزية •

وبدأ القتال في حصن بابليون الذي انتهى بنصر حاسم للمسلمين تقرر به مصير مصر كلها • وكانت سنة الفتح في التاسعة عشرة من الهجرة ثم وقعت معاهدة بابليون بين عمرو بن العاص وبين المقوقس (١) •

وكفلت هذه المعاهدة للاقباط حقوقهم الاقتصادية والعقائدية وكان ذلك عهدا على عمرو بن العاص ان يكون الاقباط في ذمته وذمة رسول الله وذمة خليفة المسلمين وذمم المؤمنين •

وبعد المصالحة لجأ كثير من الاقباط الى الانضمام علانية الى جيش المسلمين في محاربة الرومان ، فبدأ عمرو يعد العدة لاستكمال فتح الوجه البحري والفيوم والصعيد ثم الاسكندرية ، واستغرق فتح مصر كلها نحو ثلاث سنوات وذلك بحساب أن عمرو بن العاص كان قد وصل العريش في شهر ذي الحجه سنة ١٨ هجرية بينما بارح آخر جندي روماني الاسكندرية في شهر شوال سنة ٢١ هجرية •

وهنا يمكن أن نورد ملاحظة جديدة مؤداها أن دخول مصر دوله الاسلام الكبرى لا يعني تحول مصر الى ولاية تابعة ، وانما أصبحت مصر جزءا من الدولة الاسلامية الأم • فدولة الاسلام ليست دولة جنس بعينة أو قطر بعينة فكثير من المسلمين غير العرب تولوا وظائف هامة ومراتب قيادة الجيوش ، بل واشترك المسلمين غير العرب في التشريع وحكم الولايات ، بل وأكثر من ذلك انتقل مركز الدولة من جزيرة العرب الى الشام فترة والى العراق فترة ، وفي مراحل متأخرة انتقل الى مصر والمفترض أن كل هذه نظريا ولايات •

ومن مصر فتح المغرب كله ، وأصبح المغرب بدوره جزءا من دولة الاسلام ، ومن المغرب فتحت الاندلس بقيادة رجال من أهلها ، كما كان

---

(١) لم يكن المقوقس ممثلا للامبراطور الروماني وانما كان ممثلا لمواطنية الاقباط راجع د• حسين مؤنس مرجع سابق •

الحالى عندما فتح العرب العراق ثم اشترك أهل العـــراق فى فتـــح بلاد فارس ، ثم اشتراك الكل فى فتح بلاد أخرى وهكذا اذن لم تكن الـــدولة الاسلامية دولة الجنس العربى الـــذى يفرض وصـــياته على الاجناس الاخرى ، وانما كان الفتح وسيلة لجعل الجزء الجديد مشاركا مع الدولة الام فى الحكم والفتح •

أسلوب عمرو بن العاص فى حكم مصر :

كانت البداية هى السياسة الحكيمة العادلة التى اســتنها عمرو بن العاص فى الاتفاق مع أقباط مصر ويهودها عملا بالاية الكريمة التى تقرر ألا اكراه فى الدين ، وأن هناك بابا مفتوحا لاعتناق الاسلام والدخول فيه يقابله باب لدفع الجزية على أن يتولى المسلمون جيشا وقيادة تدعيم أمن غير المسلمين •

بدأ عمرو بن العاص فى أنشاء مدينة الفسطاط وهى تقع بالقرب من حصن بابليون وتشمل فى الوقت الحالى مصر القديمة والمناطق المقاطعـــة لهـــا •

وتعددت الاجتهادات حول سبب تسمية المدينة بالفسطاط ، فمـــن المؤرخين من يرجع أصل الكلمة الى خيام المسلمين التى نزلت لهذه المنطقة، ومنهم من يرى أن كلمة الفسطاط كلمة عربية تعنى المدينة ومنهم من يرى أن للكلمة أصلا اغريقيا يعنى المدينة أيضا •

وعلى أية حال فقد بنيت الفسطاط لتكون عاصمة مصر ، وبنى بهـــا أول مساجد أفريقيا قاطبة وهو مسجد عمرو بن العاص الذى ما لبث أن تحول مركز اسلامى عالمى •

عمل عمرو على تقنيين اجراءات الادارة والحكـــم فى مصر ، فيقف على رأس الجهاز الادارى حاكم عام يمثل الخليفة ويعتبر أميرا للصلاة ومسئولا عن شئون المال وقائدا لقوات الامن • غير أنه كان يجوز لهذا

الحاكم أن يعين عاملا خاصا مسئولا عن الخراج ، ولكن عمـــرو احتفظ لنفسه بتدبير شئون الخـــراج والـــزكاه الى جانب مســـئولية الحكـــم الاساسية • وذلك نظرا لما كان يحرص عليه عمرو من مراجعة الجزيه المتفق عليها بينه وبين قبط مصر وفقا للظروف ولقد تجدد الشكل الادارى لمصر بماأسمته المصادر التاريخية الكور بجمع كلمة كورة وتعنى المركز أى الناحية التى تضم عددا من القرى ، فكانت مصر تضم نحو ٦٠ كورة فى بعض التقديرات وكل كورة تضم نحو عشرات من القرى ، وكان على رأس كل مركز أو كورة مسئولا عن الجزية أمام الحاكم •

ومما أورده المقريزى عن العصر البيزنطى والقرنين الاول والثانى الهجرى أن الجزية كانت توعين أحدهما على الرؤوس أى على كل رجل والثانى جزية على كل قرية •

وذكرت الوثائق أن الجزية اشتملت على قسمين أحدهما جزيـــة نقدية تؤدى بالدينار والاخرى جزية عينية تؤدى بأرادب القمح ، وكان للجزية وجوها مختلفا للانفاق فمنها يتحد دعطاء الجند ، ومنها بما ينفق على الاعمار ، ومنها ما يجرى من أرزاق لقضاة الدولة ومســـئوليها فى النواحى والاطراف •

واتبع عمرو بن العاص فى نظام حكمة أن الجزية لا تفرض الا على الشخص البالغ فليس على الشيوخ أو الاطفال أو النساء جزية •

غير أن مراجعة قوانين الجزية وشروطها انما تتصل ببنيان الدولة والتغيرات التى تحدث فى هيكلها المالى والاجتماعى ، فقد بدأت حصيلة الايرادات تقل بسبب دخول أناس كثيرين من القبط الى الاسلام ، كما أدى اتساع الملكيات العقارية التى حازها المسلمون الى انخفـــاض فى حصيلة الجزية وايرادات الدولة ومن هنا ظهـــر الخـــراج وهى ضريبة واقعة على الارض أيا كان مالكها سواء كان مسلما أو قبطيا • وهذا يفسر ارتياح المصريين لسياسة عمرو فى فرضه للضرائب وفى توخيه للعدالـــة

فى مراعاته لاوجه الانفاق و فى التزامه بما ورد عنه فى معاهدة الصلح مع القبط .

وأول ما بدأ فى أعمار مصر وربطها بأجزاء العالم الاسلامى هو العمل فى خليج أمير المؤمنين وهى قناة تربط ما بين النيل والبحر الاحمر حيث طهر عمرو القناة وأكمل وصلاتها حتى مدينة القلزم « وهى السويس حاليا » والتى باتت سبيلا هاما فى نقل تجارة مصر الى المدينة والحجاز عبر البحر الاحمر .

هذا وعلى الجانب الاجتماعى أقر عمرو بن العاص سياسة التسامح الدينى ، ولعل كتاب عمرو الى الانبا بنيامين بطريرك الاقباط للسماح له بعد غيبة طويلة عانى منها بنيامين من الاضطهاد الرومانى فسمح له عمرو بأ ن يعتلى كرسيه ليرعى أهل ديانته ، ولقد كان ذلك التصرف السمح من جانب الحاكم المسلم اشعاعا جديدا للاطمئنان فى نفوس أهل مصر واقبالهم على العهد الجديد بقلوب متفتحة .

كذلك كان عمرو يسمح لجنده الذين طابت لهم الاقامة فى مصر من البقاء فيها ويجرى لهم أعمالا وارزاقا أمرا اياهم بعدم المساس بملكية أحد من أهل الذمة . وبدأ التزاوج بين جند عمرو وفتيات القبائل العربية ثم فتيات الاسر المصرية التى اعتنقت الاسلام . وما لبث الامر حتى فتح الطريق لكثير من أبناء الدولة الاسلامية الام فى الجزيرة والعراق والشام للدخول الى مصر فرادا وجماعات ، وبدأ التجانس والتآلف ودخلت مصر عهدا جديدا . وبدأت حركة تعريب الالسنة والتحول الى الاسلام .

واذا كان الخليفة عمر بن الخطاب قد حرم على جند العرب الاشتغال بغير الجندية فى بلاد الفتح فأنه لم يحرم ذلك على طوائف العرب المهاجرة والتى طابت لها العيش فى مصر ، وانتشرت العربية جنبا الى جنب مع انتشار الاسلام ، وهذا على عكس دول أخرى انتشر فيها

الاسلام ولم تنتشر فيها العربية مثل ايران • ولعل ذلك يرجع الى تعـــدد لغات مصر وقت أن جاءها الفتح فقد كانت اللغة القبطية حينـــذاك فى بداية التكوين ، وكانت هناك لغة الرومان اللاتينية ، وكانت هناك بقايـــا من لغات فرعونية قديمة ، فكانت العربية لغة كاملة قادرة على التعبير عن كل شيء ثم أنها هى لغة الاسلام والقرآن الكريم ولغـــة الحـــكام وساعد ذلك على انتشارها سريعا •

هذا وقد كانت تقديرات المقريزى عن عدد سكان مصر وقت فتـــح عمر بن العاص بنحو ٥ مليون فرد مستحق عنهم الجزية فأذا قدرنـــا أن اتفاق عمرو بن العاص بفرض الجزية على الذكور البالغين فقط فأنه يمكن أن يكون سكان مصر فى هذه الاونة نحو ١٣ مليون نســـمة كانت الزراعة تمثل النشاط الرئيسى لاغلب السكان مع مجموعة من الحـــرف المتعلقة بالبناء والصناعات اليدوية الى جانب التجارة • وكانت صناعة النسيج من الكتان فى مصر من أهم الصناعات التى عرفها العالم الاسلامى الى جانب صناعة الحرير التى اشتهرت بها منطقة اخميم •

كذلك كانت صناعة السفن صناعة لها تاريخها القديم حيث تقوم السفن بنقل التجارة عبر المراكز والقرى الواقعة على ضفاف النيـــل ، والتى كانت أساسا فيما بعد ذلك عندما شرع عبد الله بن سعد بن أبى السرح فى القتال البحرى فصارت مصر مركزا هاما لصـــناعة الســـفن البحرية الحربية •

هذا وتوالت الاحداث واستمر حكم عمرو بن العاص لفترة خمس سنوات كانت امارة مصر فى يده وتحت سلطته المركزية ، وفى أواخـــر السنة الثالثة والعشرين من الهجرة أستشهد الخليفة عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه بعد مدة من الخلافة جاوزت العشرة سنين ببضعة أشهر ، وآل الامر الى الصحابى الجليل عثمان بن عفـــان رضى الله عنــــه خليفة للمسلمين بعد اجماع كبار الصحابة وآلت اليه أمرة الدولة الاســـلامية الأم •

ومع بداية السنه الخامسة والعشرين من الهجرة كان قرار عثمان بن عفان باعفاء عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وعهد بولايتها الى عبد الله ابن سعد بن أبى السرح ، وهنا انتهت الفترة الاولى من حكم عمرو بن العاص لمصر والتى بدأت مع بداية الفتح قبل سنة ٢٠ هجرية الى بداية سنة ٢٥ فاستغرقت خمس سنوات استطاع عمـــرو فيها أن يؤسس فى مصر طرفا قويا ومستقرا من أطراف دولة اسلامية كبرى .

٢ ـ عبد الله بن سعد بن أبى السرح :

تذهب ترجمة عبد الله بن سعد الى أنه أخ لعثمان بن عفان مـــن الرضاعة (١) وأنه كان من أوائل المسلمين الذين أسلموا مع الرســـول صلى الله عليه وسلم ، وكتب له الوحى فى بعض الاحيـــان ، ثم أفتتن وخرج من المدينة الى مكة دو ناستئذان الرسول ، واشيع عنه الارتداد عن الاسلام الى أن جاء يوم فتح مكة فجاء عثمان بن عفان الى النبى وسأل له العفو وأمنه الرسول وبايعه واستغفر له .

وقد شهد عبد الله بن سعد فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان من الرجال المشهود لهم بالكفاءة والحنكة حتى أن عمر بن الخطاب طلب من عمرو بن العاص أن يتولى عبد الله بن سعد أميرا على خراج مصر ، فاستجاب عمرو بن العاص وولاه بعض الوقت فى مراقبة الخراج وجمعه ثم ولاه على امارة الصعيد حتى آلت الخلافة لعثمان بن عفان حتى أصدر قراره المتقدم بتولية عبد الله بن سعد امارة مصر كلها .

وعلى العكس تماما من اتجاه عمرو بن العاص الى بنـــاء الدولـــة وارساء قواعد العمل الداخلى بعد اتمام الفتح كانت ولاية عبد الله بن سعد تتسم بالاعمال العسكرية المناوئة لما يهدد الامن الخارجى لمصر ، أو الاعمال العسكرية المكملة لفتوحات جديدة .

---

(١) السيوطى ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ـ باب در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ـ مطبعة الموسوعات ـ مصر .

فقد استغل الرومان فرصة ابعاد عمرو عن مصر ، وقاموا بآرسال أسطول الى الاسكندرية وعاد الجيش العمروى مرة أخرى للمقاومة وطرد الجيوش الرومانية .

بدأ عبد الله بن سعد أمير مصر فى ادارة فتوحات أفريقيا ، ودارت بينه وبين البربر معارك طويلة كانت النصرة فيها لجيش المسلمين ، ووصلت القوافل الاسلامية غربا حتى المحيط الاطلنطى فى سنة ٢٧ هجرية .

وفى سنة ٣١ هجرية كان العمل العسكرى الحاسم فى اتجاه جنوب مصر . فى بلاد النوبة وشمال السودان حيث قام عبد الله بن سعد بغزو تلك البلاد وعرض عليهم الاسلام أو الجزية (١) .

وتوالت الاحداث العسكرية على مصر فى ولاية عبد الله بن سعد حيث وردت الانباء بأن امبراطور الرومان يعد لهجوم بحرى على الاسكندرية ، فما كان من حاكم مصر الا أن أمر بصنع السفن البحرية المقاتلة وكان ذلك فى سنة ٣٤ من الهجرة حيث اشترك قبط مصر فى صناعة أكثر من مائتى سفينة واشترك فى قيادتها أقباط دخلوا فى الاسلام وفى جيش المسلمين ، وبمجرد أن وصلت الجيوش الرومانية الى الاسكندرية تصدت لها البحرية الاسلامية الوليده فكانت مفاجأة للرومان رغم عدم التكافؤ بين القوتين وحداثة المسلمين فى المعارك البحرية ، وكان لعنصر المفاجأة دورا كبيرا فى حسم المعركة لصالح المسلمين وعرفت هذه المعركة باسم ذات الصوارى .

وهكذا كانت فترة حكم عبد الله بن سعد التى استمرت نحو عشر سنين من الاعداد العسكرى واستكمال مسيرة الفتح .

---

(١) يذهب السيوطى الى أن الجزية التى فرضها عبد الله بن سعد على أهل النوبة كانت ثلثمائة وستون رأسا من الصعدد سنويا ، وهى تختلف عن الجزية المادية التى فرضت على قبط مصر .

راجع السيوطى مرجع سابق .

ورغم ذلك الجهد الكبير الا أن الوضع الداخلى لم ينهج مسلك العدل الذى كان يمارسه عمرو بن العاص ، فقد أدت زيادة النفقات العسكريه الى جباية المزيد من الضرائب التى أثقلت كاهل أهل مصر دون ان يخصص منها الا النذر اليسير على اصلاح شئون البلاد .

وتوالت الاحداث الحربية فى عاصمة الدولة الام المدينة المنورة حيث اشتعلت نيران الفتنة على الخليفه عثمان بن عفان رضى الله عنه وظهرت الفئات المناوئة التى اتهمته بتولية أصفيائه على بلدان المسلمين ، وان هؤلاء الاصفياء قد ضلوا السبيل واقاموا المظالم .

واشترك فى هذه الفتنة فئات مسلمة تعيش فى مصر ، وعلى رأسهم محمد بن أبى بكر الصديق ومحمد بن أبى حذيفة اللذان استنفرا نحو ستمائة من المصريين فى ركب الى المدينة للاحتجاج على عثمان وسؤالة خلع عبد الله بن سعد وتولية محمد بن أبى بكر على مصر ، فأجابهم الى ذلك فى الوقت الذى رحل فيه عبد الله بن سعد عن مصر مستخلفا نائبا له وهو عقبة بن عامر وذهب ليتباحث فى الامر مع الخليفة عثمان ، وبمجرد مغادرة عبد الله بن سعد مصر فى سنة ٣٥ هجرية كانت هى المغادرة الاخيرة التى لم يعد بعدها الى مصر وانما آل حكمها الى أحد زعماء المتمردين على عثمان وهو محمد بن أبى حذيفة .

٣ - محمد بن أبى حذيفة :

يروى أن مولده كان فى الحبشة لاحد المهاجرين الاوائل الذى سمى ولده على اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقام بمصر فترة وكان من جند الفتوحات التى بدأت بعد فتح مصر وكان من المتمردين على حكم عبد الله بن سعد فى مصر ، وأحد الذين كانوا يؤلبون المصريين ضد مظالم هذا الحكم .

أما عن توليته أميرا على مصر فقد حدث كما تقدم ذكره أن غادر عبد الله بن سعد مصرا متوجها الى المدينة مستخلفا نائبا له من أنصاره،

فى هذه الاثناء اشتدت الفتنة بخليفة المسلمين عثمان بن عفان الذى اجاب محمد بن أبى بكر لولايته على مصر وخلع عبد الله بن سعد الا أن ذلك الاخير وهو فى لاطريق الى مصر أفتتن برجل كذاب استطاع أن يزور له كتابا من عثمان يحث عبد الله بن سعد على قتل محمد بن أبى بكر وجماعته ، فرجع بن أبى بكر الى المدينة وتم حصار عثمان وأستشهد الخليفة عثمان فى سنة ٣٥ هجرية •

وكما تمت مبايعة على بن أبى طالب لخيفة للمسلمين بعد عناء طويل وفى ظروف دموية صعبة أمر على بعزل عبد الله بن سعد عن مصر وتولية قيس بن سعد بن عبادة أميرا على مصر ، غير أن الامور لم تكن لتجرى على ذلك النحو فقد سبق أن أستولى محمد بن أبى حذيفة على حكم مصر ، وما كادت الانباء تصل الى مصر بوفاة الخليفة عثمان حتى استتب له أمن مصر وصلى بالناس فيها •

وتبعا لذلك يكون هذا الوالى الجديد ليس معينا من قبل خليفة المسلمين سواء عثمان الخليفة الشهيد أو على الخليفة الجديد ، وانما كانت ولاية محمد بن أبى حذيفة انتهازا للظروف التى واكبت الدولة الاسلامية الام فى فتنة المدينة وكراهية المصريين لعبد الله بن سعد ونائبه•

وما أن تبوأ محمد بن أبى حذيفة حكم مصر حتى توالت الاحداث الدامية من جديد • فقد كان عبد الله بن سعد فى طريقه الى المدينة ، فعلى اثر بلوغة النبأ بمقتل عثمان توجه الى الشام حيث معاوية بن أبى سفيان وأبلغه بسير الحوادث فى مصر ، وعاد على رأس جيش من معاوية يحاول دخول مصر • وفى العريش توقف هذا الجيش ول ميستطع دخول مصر فانسحب عبد الله بن سعد الى داخل فلسطين مطاردا حتى قتل فى مدينة الرملة •

كانت فترة حكم محمد بن أبى حذيفة لا تزيد عن السنة الواحدة وكانت فترة اضطراب سياسى وعسكرى حيث انقسم المسلمون

والمصريون على اثر مقتل عثمان بن عفان ، وخاصة بعد أن بلغ أهل مصر بنبأ انحياز عمرو بن العاص الى معسكر معاوية بن أبى سفيان الذى بطالب بدم عثمان •

وعلى ذلك يمكن القول أن هذه الفترة شهدت انقساما بين شيعة عثمان وعموم المصريين الذين سبق لهم التمرد على عبد الله بن سعد المعين قبل عثما ن، وانتهى ذلك الاضطراب بمقتل محمد بن أبى حذيفة سنة ٣٦ هجرية ، وتولى قيس بن سعد بن عبادة •

٤ – قيس بن سعد بن عبادة :

فى تلك السنة التى شهدت الاضطرابات السياسية والامنية فى الدولة الاسلامية الام ، وفى مصر ، قدم قيس بن سعد بن عبادة بكتاب موثق من الخليفة على بن أبى طالب يولية فيه على مصر حاكما • ودخل قيس مصر مع مجموعة قليلة من أصحابة ، واعتلى منبر جامع الفسطاط وقرأ اعى الناس كتاب أمير المؤمنين الذى جاء فيه أنه يولى قيسا على مصر وفقا لمنهج كتاب الله وسنة رسوله • وأمر أهل مصر باعانته على الحق ونصحهم له ، وأمر قيسا بالرفق بالرعيه واصلاح البلاد واعمارها، والشدة مع أعداء البلاد • رحب أهل مصر بولاية قيس وبايعوه واستقامت له طاعة مصر كلها فيما عدا قرية قريبة من الفسطاط اجتمع فيها عدد كبير من شيعة عثمان ، وكان فيهم نفر من الصحابة الذين عاصروا الفتح والذين لم يقبلوا بخلافة على بن أبى طالب ، وبالتالى لم يقبلوا مبايعة نائبه فى مصر قيس بن سعد •

بدأ قيس يحكم بالعدل ويمارس العمل السياسى فى جمع شمل كلمة جند المسلمين ، ورأى أن عليه موادعة جميع أطراف النزاع حتى يمكنه أن يسير بمصر سيرة حسنة ، وبدأ بالاعمار فأنشأ دارا للحكم جنوب جامع الفسطاط لتكون دار لحكام المسلمين على مرار الزمن ، وتم بضبط الخراج وتجهيز الجيش للدفاع ضد أى خطر خارجى ، وعمل قيس على

دعم نظام الادارة ، فراسل الصحابة والوجهاء المتمردين على مبايعته ووادعهم وتشاور معهم دون صراع عسكرى ، وكان حازما فى تسيير أمور الدولة واقرار حقوق عباد الله ، وبينما هو على هذا الحال فى الاعمار والاعداد جاءه كتاب معاوية من الشام يدعوه للانضمام لمعسكر شيعه عثمان وان ينشرك الجميع فى مقاتلة من أسماهم معاوية بالمسئولين عن دم عثمان قاصدا بذلك على بى أبى طالب وشيعته ، وهادن قيس معاوية فلم يخالفه ولم يوافقه حرصا على سير نظام الحكم والادارة فى مصر .

غير أن الفتنة استمرت وأشيع به عند على أن قيس يتحالف مع معاوية ضد أهل العراق . وتجنبا لشيوع الفتنة بمصر أصدر على قراره بعزل قيس بن سعد وتولية محمد بن أبى بكر حاكما على مصر . وكانت وجهة نظر أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن للحق جانب واحد ووجه واحد يجب الافصاح عنه دون مهادنة ودون موارية مع معسكر الباطل ، وعلى ذلك فقد رأى أن سياسة قيس بن سعد فى المهادنة بين المعسكرين وأن كانت تؤدى الى استقرار الامور فى المدى القصير ، فأنها لا تساعد على ذلك فى المدى الطويل .

ورحل قيس (١) من مصر اذعانا لرأى الخليفة على ليقدم اعتذاره وولائه له ، تاركا حكم مصر لوال جديد وهو محمد بن أبى بكر .

٥ ـ محمد بن أبى بكر :

تولى حكم مصر فى أوائل سنة ٣٧ هجرية ، حيث لم تمضى فترة حكم قيس بن سعد سوى بضعة أشهر .

---

(١) قيس بن سعد بن عباده هو ابن صحابى من الانصار وهو سعد بن عبادة وكان من أطول الناس قامة فى جيش المسلمين كان مبالا للعدل والانصاف فى حكم مصر .

دار السحابة ـ السيوطى .

ومحمد بن أبى بكر هو أحد ابناء الصديق رضى الله عنه ، وقد ولد فى حجة الوداع ، وكان من جند المسلمين ابان الفتح الاسلامى ، وكان احد المتمردين على خلافة عثمان ، ومن الذين بايعوا عليا بالخلافة اثر استشهاد عثمان .

كان محمد عند تولية حكم مصر شابا لم يبلغ السابعة والعشرون من عمره فكان من طبيعته الحماس والاندفاع دون الحكمة والتريث ؛ ولقد تولى الامر فى ظل الظروف الصعبة التى كانت تمر بالدولة الاسلامية الام على اثر الفتنة الكبرى التى استشهد فيها عثمان والتى استمرت سنوات طويلة دامية .

تمرد معسكر شيعه عثمان فى مصر على حكم محمد بن أبى بكر الذى لم يستعمل معهم أسلوب المهادنة الذى مارسه سلفة قيس وانما كانت له معهم مواجهة صريحة انتصارا له ولبيعة على بن أبى طالب . وفى هذه الاونه حدثت موقعة صفين بين جيش الشام بقيادة معاوية وجيش العراق بقيادة على ، وبلغت الانباء مصر عن ذلك القتال العنيف ؛ ولكن ما أن أوشك جيش على بن أبى طالب على تحقيق انتصار حاسم حتى جاءت خدعة التحكيم التى اشار بها عمرو بن العاص وذلك برفع المصاحف ورفع شعار الاحتكام الى كتاب الله وحقن دماء المسلمين ؛ واختلف جند على فى قبول التحكيم من عدمه ، وكان على رضى الله عنه يرى أنها كلمة حق أريد بها باطل ، وأراد الاستمرار فى القتال ، أثرت تلك الاحداث على سير الامور فى مصر فاستمرت فى ولاية محمد بن أبى بكر وظهر التضارب فى صفوف المسلمين فى مصر فمنهم من كان يشايع طرفا ، ومنهم من كان يشايع الطرف الاخر .

وكان محمد يقوم على الخراج وتوزيع الزكاه والاعمار فى ظل هذه الغيوم فى نفس الوقت الذى كان يريد فيه أن يعد العده لمد جيش على بمدد عسكرى ، ولكن كان هناك المعسكر العثمانى المناوىء الذى يتزعمه بعض الصحابة فى مصر والذى كانوا يشيرون بأصابع الاتهام الى حاكم مصر باعتباره احد قتلة عثمان .

واستمرت الازمة فى مصر امتداد للازمة الخلافه فى دولة الاسلام.

انتهى الامر فى موقعة صفين باتفاق المحتكمين على مبايعة معاويه خليفة للمسلمين (١) على غير ما كان قد سبق اليه الاتفاق أصلا من ضرورة عزل كليهما واختيار خليفة جديد وفقا للشورى .

وكان ذلك الامر مبايعه غير ذات اجماع وغير ذات مشروعية لمعاوية ، فاستمر على فى القتال ضد الخوارج وضد أهل الشام الذين بايعوا معاوية .

انعكست تلك الانباء على مصر فشجع ذلك معسكر عثمان فى مصر التمرد ضد محمد بن أبى بكر الحاكم المعين من قبل على بن أبى طالب ، وبدأ الصراع المسلح بين الفريقين فى مصر ، وكاد حاكم مصر أن ينتصر على هذه الفتنة لولا أن التدبير الخارجى كان ينم فى الشام ، فكان معاوية يعرف قدر مصر وأهلها فى نصرة دولة اسلامية قومية فأعد العدة بجيش كبير على رأسه عمرو بن العاص سار الى مصر .

أصبح الحاكم محمد بن أبى بكر فى مواجهة مع فتنة داخلية مع المعسكر العثمانى ومواجهة مع المدد الخارجى بزعامة عمرو بن العاص .

حاول عمرو بن العاص أن يثنى محمد بن أبى بكر عن المقاومة واعدا اياه بحقن دمه وأهله ، غير أن الاخير استمر فى المقاومة ، وهزم وقتل ، ودخل عمرو مصرا ليبدأ فيها فترة حكمه الثانية فى سنة ٣٨ هجرية .

تولى عمرو بن العاص حكم مصر للمرة الثانية لخمس سنوات أخرى استطاع فيها أن يؤلف بين المسلمين فى مصر وأن يعيد توحيد الصفوف نظرا لما كان يتمتع به من قبول لدى أغلبية المصريين .

---

(١) لعب عمرو بن العاص دورا اساسيا خطيرا في مبايعة معاوية بن أبى سفيان خليفة للمسلمين ، يذكره المؤرخون بأنه خدعه ماكره من عمرو لابى موسى الاشعرى نائب على في مفاوضات التحكيم .

فبدأ فى تدبير الجيوش وترتيب الاحكام وتعيين المساعدين فى كافة النواحى ، واقامة حدود الله ، وتأمين طريق مصر للحجاز ، هذا فضلا عن توليته جباية الخراج وتوزيعه على أوجه الانفاق المختلفة •

استمر حكم عمرو بن العاص حتى سنة ٤٣ هجرية حيث وافاته المنية يوم عيد الفطر من هذه السنة ، ودفن فى مصر •

وتولى حكم مصر عقب وفاته ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص لمدة وجيزة ولتتم مسيرة الحكم فى مصر فى ظل الدولة الاموية والتى بدأت بالفترة الثانية لحكم عمرو بن العاص •

وعلى ذلك يعتبر عمرو بن العاص أول حكام مصر فى ظل حكم الخلفاء الراشدين حيث كانت الفترة الاولى من حكمه بقرار من الخليفة عمر بن الخطاب •

ويعتبر أيضا عمرو بن العاص أول حكام مصر فى ظل الدولة الاموية حيث كانت الفترة الثانية من حكمه بقرار من معاوية بن أبى سفيان بن أميـة •

استمرار مسيرة الحكم الاموى فى مصر

٦ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص :

كان عبد الله رجلا فقيها صالحا جمع بين التقوى والورع ، وقد أسلم قبل أبيه ، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مصر مع والده ، واختلط بأهل مصر معلما لكتاب الله وراويا للحديث •

يختلف المؤرخون في فترة حكم عبد الله بن عمرو ، خبرى الافدى انها بلغت نحو السنتين ، ويرى أخرون أنها لم تتعدى بضعة أشهر بينما يذهب المقريزى الى انها كانت ولاية مؤقته انتظارا لحاكم جديد ـ راجع أحمد حسين ـ مرجع سابق ص ٤١٠ •

ولقد كانت ولايته لمصر فترة مؤقته ، حيث لم يكن لعبد الله شغفا بالحكم أو التطلع اليه ، وانما أراد أن يستمر فى عمله اماما للمسلمين ومدرسا بالمسجد الجامع لفقه الاسلام ودعوته •

ولذلك فقد قبل الحكم حتى تستقيم الامور ويأتى حاكم جديد ما لبث أن وصل الى مصر فى نفس هذه السنة وهو عتبة بن أبى سفيان •

٧ ـ عتبة بن أبى سفيان :

وهو أخ لمعاوية من أبيه ، وكان شيخا طاعنا فى السن تولى صلاة مصر وخراجتها الا أنه أثر الذهاب الى الاسكندرية للبقاء فيها مرابطا وعين له نائبا قويا وهو عقبة بن عامر الجهنى •

غير أن عتبة بن أبى سفيان مات فى الاسكندرية بعد نحو ستة أشهر من الاستقرار النسبى فى حكم مصر • وآلت الامور الى عقبة بن عامر •

٨ ـ عقبة بن عامر الجهنى :

وكان نائبا لعتبة فى فترة الحكم السابقة كما كان نائبا لعبد الله بن سعد اثر توليه مصر عقب الفترة الاولى لحكم عمرو بن العاص ومن ثم فقد كان عقبة بن عامر الذى تولى حكم مصر سنة ٤٤ هجرية الموافقة ٦٦٤ ميلادية كان متمرسا على شئون الحكم والرئاسة ، الى جانب أنه كان قارئا وفقيها وشاعرا فقد كان من أحد صحابة رسول الله ، ومن الذين شهدوا فتح مصر مع عمرو بن العاص •

استمر حكم عقبة بن عامر نحو ثلاث سنوات ، عمل خلالها على [illegible] امتثالا

التى كان يستخدمها الرومان قاعدة عسكرية تهدد أمن المسلمين ، وعلى اثر معادرته الاسكندريه قائدا للاسطول عين معاوية حاكما جديد وهو مسلمة بن مخلد سنة ٤٧ هجرية •

٩ — مسلمة بن مخلد :

وهو أحد الصحابة ، ولد عام الهجرة ، وشهد فتح مصر مع عمرو ابن العاص وتولى حكم مصر أميرا على الصلاة والخراج معا •

نهج مسلمة فى مصر مسلكا من شأنه تثبيت أركان الدولة ، وتدعيم الركائز العسكرية لها • فكان سمحا فى معاملته لاقباط مصر ففى عهده تم بناء أول كنيسة جنوب الفسطاط فى مصر الاسلامية وذلك عملا بمبدأ احترام عقائد أهل الذمة • واستمر فى أعمال الاعمار وفى اعداد الجيش البحرى • وأصبحت له امارة مصر والمغرب معا حيث أرسل مسلمة جيشا بقيادة عقبة بن نافع أحد جند الاسلام فى مصر لاعادة فتح أفريقيــة، وبالفعل قام بالمهمة وانشأ مدينة القيروان ، وبدأت الدعوة الاسلامية فيها بضم أهل البلاد من البربر الى الاسلام • بل وأكثر من ذلك رغب مسلمة بن مخلد فى غزو القسطنطينية بحرا معقل البيزنطيين ، وعمل على اقناع معاوية بن أبى سفيان فى هذا الشأن • وعين معاوية ابنه يزيد لهذه الحملة ، وكان قائدا فاشلا فأنتهت تلك الحملة بعقد صلح بين معاوية والبيزنطيين •

وتصدى مسلمة بن مخلد لمحاولة بيزنطية فاشلة فى السطو البحرى على مصر فى مدينة البرلس ونجح نجاحا كبيرا فى اجلاء البيزنطبين عن أرض مصر •

فى هذه الاثناء توالت الاحداث فى الدولة الاسلامية الام فمات الامام الحسن بن أبى طالب فى سنة ٥٠ هجرية ، وظهر الحسين بن على اماما للشيعة الذين [illegible]

واستمرت المواجهة فى شكل سرى تكتنفه المؤامرات الى أن جاءت سنة ٦٠ هجرية حيث توفى معاوية تاركا الخلافة لابنه يزيد • ولعله أيا كان الرأى فى خليفة الدولة الاموية الاول معاوية وأيا كان موقفه من الامام على رضى الله عنه ، فأن التاريخ الاسلامى سوف يذكر لمعاوية الحنكة والحكمة فى ادارة الدولة الاسلامية ، واستعادة الوحدة والاستقرار ، واستئناف الفتوحات الاسلامية برا وبحرا ولكن خلافة يزيد بن معاوية جعلت للصراع بين الامويين والامام الحسين وتسيعته شكلا أخر • فحدثت معركة كربلاء التى استشهد فيها الحسين بسبب الغدر والتآمر • وكان ذلك يحدث ومسلمة بن خويلد يعمل كحاكم لمصر على استقرارها بعيدا عن هذا الجو من الفتن الذى كان سائدا فى ساحة الدولة الام •

انتهت فترة حكم مسلمة بن مخلد سنة ٦٢ هجرية بعد خمسة عشر سنة من الحكم والاعمار فى مصر •

١٠ ـ سعيد بن يزيد بن علقمة :

تولى حكم مصر فى ٦٢ هجرية على اثر وفاة مسلمة بن مخلد ، وكان توليته بقرار من الخليفة الجديد يزيد بن معاوية •

وعاشت مصر مرة ثانية فى الاضطرابات السياسية ، حيث كانت رياح الفتنة تهب اليها من الشام بعد استشهاد الحسين بن على ، ووقوف عبد الله بن الزبير على رأس مجابهة الحكم الاموى الجديد •

كان سعيد بن يزيد احد رجال يزيد بن معاوية ، وكانت مهمته تقتصر على مجرد تأمين مصر من أعداء الحكم الاموى ، غير أن أهل مصر كانت وجهتهم نحو البيت الهاشمى ، ولذلك فعلى اثر موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هجرية واعلان عبد الله بن الزبير نفسه خليفة للمسلمين فر سعيد بن يزيد بن علقمة من مصر ، وأرسل الخليفة الجديد واليا أخرا وهو عبد الرحمن بن جحدم القرشى •

١١ ـ عبد الرحمن بن جحدم القرشى :

كان قبول المصريين لولاية عبد الرحمن بن جحدم القرشى اعلانـا عن قبول عبد الله بن الزبير خليفة للمسلمين ، واستنكارا لمبدأ الوراثة الذى أقره معاوية عند توليته لابنه يزيد •

وعلى ذلك فقد بايع المصريون عبد الرحمن فى تلك الفترة المشئومة من تاريخ مصر والاسلام وهى فترة الفتنة التى بايع فيها بعض المسلمين عبد الله بن الزبير خليفة ، وبايع الاخرون فى الشام مروان بن الحكـم شيخ الامويين خليفة للمسلمين ، وعلى ذلك لم يستقر الامر لعبد الرحمن ابن جحدم حاكما على مصر سوى بضعة شهور لم يكد يعمل فيها أى شىء فقد أرسل مروان بن الحكم جيشا من الشام الى مصر ليتخلص من الحاكم التابع لعبد الله بن الزبير ويولى على مصر حاكما جـديدا وهـو عبد العزيز بن مروان •

١٢ ـ عبد العزيز بن مروان :

وتولى حكم مصر فى سنة ٦٥ هجرية على اثر معركة بين جند مروان ابن الحكم وجند عبد الرحمن بن جحدم •

وبدأ عبد العزيز بن مروان فى استكمال مسيرة الاعمار فى مصر ، وبنى دارا جديدة للحكم آسماها دار الذهب فى مدينة الفسطاط وتولى جمع خراج مصر واستوزر موسى بن نصير مستشارا له ومسـاعدا فى شئون الادارة والحكم •

واستمر عبد العزيز فى حكم مصر حتى بعد وفاة والده الخليفـة مروان بن الحكم وأثناء خلافة أخيه عبد الملك الذى أقـره على حكـم مصر •

وكانت الاحداث تتوالى فى الدولة الاسـلامية الام ، حيث كان العراق منشقا على الفرع المروانى فى خلافة بنى أمية وكذلك الحجـاز

كان فى امرة عبد الله بن الزبير ، واستطاع عبد العزيز بن مروان فصل رياح الفتنة عن مصر ، وعمل على تعمير مدينة حلوان ، وأقام المبانى والمساجد ولكن لم يكن هناك طريق بين مصر والحجاز نظرا لوقوف الحجاز مبايعة لعبد الله بن الزبير .

واستمرت الدعوة الاسلامية فى الانتشار فى قرى مصر نظرا لنزوح الكثير من الاعراب الى مصر ناشدين الاستقرار والامان ، واندمجوا مع قبط مصر . وانتهت أحداث الفتنة باستشهاد عبد الله بن الزبير فى سنة ٧٣ هجرية ، وآلت الى الامويين ادارة العراق والحجاز وبدأ الخليفة عبد الله بن مروان يمارس سياسة حكيمة فى ربوع الدولة الاسلامية ، وتم اصدار العملات العربية بدينارات كتب عليها لا اله الا الله محمد رسول الله ، وأصدر عبد الله قراراته بتعريب الدواوين فى كافة الامارات الاسلامية ومن بينها مصر الذى كان يشتغل فى دواوينها عدد كبير من الاقباط الذين كانوا يستعملون لغات أخرى الى جانب العربية ، فأصبحت اللغة العربية شرطا لتولى الوظائف العامة ، وساعد هذا القرار الخطير على سرعة انتشار الاسلام والعربية (١) جنبا الى جنب .

استقرت أحوال مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان واستمر دور مصر العسكرى فى الدفاع عن أرض الاسلام حين خرج الاسطول المصرى ليناوش سفن البيزنطيين ووصل الى جزيرة قبرص ، وحين تولى موسى ابن نصير ولاية المغرب ليسترد القيروان من أيدى البربر كان جيش موسى من المصريين وجند الفتح فى مصر وأصبحت كل شمال أفريقيا فى أيدى المسلمين ولتبدأ منها مسيرة فتح الاندلس .

وهكذا كانت فترة عبد العزيز بن مروان فترة أضافت فيها مصر الى مسيرة الاسلام ، وأضاف فيها جند مصر فتحا جديدا للمسلمين .

---

(١) راجع د. حسين مؤنس — مرجع سابق ص ٣٧٠ .

وجاء الطاعون بمصر سنة ٨٥ هجرية لينهى حكم عبد العـــزيز بن مروان الذى مات متأثرا به ، وليخلفة فى حكم مصر ابن شقيقة عبد الله بن عبد الملك بن مروان وذلك بعد فترة دامت عشرون سنة •

١٤ ــ عبد الله بن عبد الملك بن مروان :

تولى حكم مصر فى سنة ٨٥ هجرية ، وقد ذكر عن الليث بن ســـعد احد أئمة المجتهدين فى مصر أن عبد الله وقت توليه كان حدثا صـــغيرا ، وعلى ذلك كانت تنقصه الحكمة ويغلب عليه طيش الشباب ، وقد اتصفت أعماله بالظلم سواء للمسلمين أو للاقبـــاط واســـتكمل عبد الله مســـيرة التعريب التى انتهجها الخليفة والده عبد الملك وأصبحت اللغة العربية فى عهده هى اللغة الرسمية •

وكانت الدولة الاسلامية فى هذه الاثناء فى حالة استقرار سياسى بعيدة عن الفتن ، واستمر البناء والاعمار فى أركان الـــدولة الى أن مات الخليفة عبد الملك بن مروان الذى كان من أعظم حـــكام الاســـلام الذين ثبتوا مركز الدولة الاسلامية ، وتركزوا لها ملامـــح خاصـــة فى كافـــة المجالات •

استمرت مصر على حكم عبد الله بن عبـــد الملك حتى عزلـــه أخوة الخليفة الجديد للمسلمين الوليد بن عبد الملك موليا قره بـــن شريك على مصر سنة ٩٠ هجرية •

١٥ ــ قره بن شريك العبسى :

كان قره بن شريك حاكما ظالما لاهيا أساء التدبير وانغمس فى اللهو الامر الذى أبعد عنه قلوب المسلمين • ولم يستمع الى مشـــورة عقـــلاء ووجهاء مصر لتوخى العدل ، وانما استمر فى ظلمه حتى أن فى عهده بـــدأ اغتصاب أملاك الافراد وأملاك الكنائس بتعويضـــات تافهـــه ، وضاقت خزينة الدولة فى الوقت الذى كان يستدعى زيادة انفاق الدولة على البناء

وضرورة تخزين الحاصلات وتوزيعها ٠

استمر هذا الحكم الجائر نحو خمس سنوات انتهى بوفاه قره بن شريك غير مأسوف عليه ، ليعين الخليفة الوليد حاكما جديدا هو عبد الملك ابن رفاعة القيسى ٠

١٦ ــ عبد الملك بن رفاعة :

تولى أمر مصر وكان ذلك فى سنة ٩٦ هجرية ، كان حسن السيرة مشهورا بالتقوى والامانة والفضل ٠ وكان وزيره الاول أسامة التنوخى قائما على الشئون المالية ، فقام هذا الاخير بضرب عملة خاصة لمصر لتسهيل عمليات التداول وكانت بمثابة ما يعرف اليوم بالنقود المساعدة ٠

تميزت هذه الفترة بالاستقرار السياسى والاقتصادى والاعمار ، وأنشىء خلالها مقياس الروضة على نحو بديع ٠

واستمرت امارة عبد الملك ووزيره اسامة لفترة ثلاث سنوات تغير فيها الخليفة بعد وفاة الوليد وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك ثم آلت الخلافة الى عمر عبد العزيز الذى أصدر قراره بتغيير امارة مصر الى أيوب بن شرحبيل الاصبجى سنة ٩٩ هجرية ٠

١٧ ــ أيوب بن شرحبيل الاصبجى :

عندما آلت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز كان ذلك بدءا لعهد جديد من العدل الاجتماعى ، حيث لقب عمر بلقب خامس الخلفاء الراشدين اشارة الى عدلة وحكمته وعلى ذلك كانت قراراته الخاصة تتوخى جانب العدل بشكل واضح وجلى ٠ فكان قراره الاول بوقف تحصيل الضرائب من المصريين لمدة سنة حتى يتم تدبير الاقوات والارزاق لساكنيها ٠

وكان أيوب حاكم مصر واحدا من الصالحين الزاهدين الذى نفذ سياسة العدل ، ودخل فى عهده كثير من أقباط مصر الى الاسلام ٠

ولكن لم يستمر حكم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز طويلا ، فقد انتهى بوفاته سنه ١٠١ هجرية ليتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك الذى نقض عهود سلفة العظيم واعاد سياسة الظلم مرة أخرى ، وكان نصيب مصر من ذلك تولى حكم مصر بشر بن صفوان الكلبى فى نفس السنة ١٠١ هجرية .

١٨ ـ بشر بن صفوان :

حكم مصر لمده سنة واحده لم يستطع فيها أن يرسى أى قاعدة عدل ، كان بشر من الخبراء بأحوال شمال أفريقيا فجعل ذلك الخليفة يزيد يعدل عن توليته مصر ، ويوليه امارة المغرب ويولى أخاه حنظلة بن صفوان امارة مصر فى أوائل سنة ١٠٣ هجرية .

١٩ ـ حنظلة بن صفوان :

وفى عهده القصير الذى استمر نحو العامين حدثت بعض الفتن .
كانت الفتنة الاولى عند استخدام التعسف ضد أقباط مصر واعتقال البطريرك المصرى .

وكانت االفتنة الثانية عندما حاول جيش نوبى أشاعة الفوضى فى جنوب مصر . ولكن ما لبثت هذه الفتنة أن انتهت بتدخل علماء مصر وفقهائها بالافراج عن البطريرك والتصالح مع كبراء النوبة وتخفيف الجزية عليهم .

وتولى الخلافة هشام بن عبد الملك فى سنة ١٠٥ هجرية فولى أخاه محمد بن عبد الملك حكم مصر فى نفس العام .

٢٠ ـ محمد بن عبد الملك :

استمر حكمة شهرا واحدا ، وكان رجلا عابدا لا يرغب فى الحكم اصلا وانصرف عن الامارة فتولاها الحر بن يوسف .

٣١ ــ الحر بن يوسف :

تولى حكم مصر سنة ١٠٥ هجرية مع تولى عبيد الله الحبحاب على الشئون المالية ، وكان الاخير متعسفا حيث زادت ضرائب الارض الامر الذى أدى الى تمرد الأقباط على حكمه ، فطلب المدد من الخليفة لمواجهة فتنة المصريين • ومع ورود القبائل العربية فى هذه الفترة الى مصر أشيعت الفوضى وزادت الفتنة ، وحدث الانقسام بين صفوف المسلمين العرب من جهة وبين المصريين والقبائل الوافدة من جهة أخرى •

لم يرض هشام بن عبد الملك عن سياسة الحر بن يوسف فى مصر وعزله ، وتولى حكم مصر حفص بن الوليد سنة ١٠٨ هجرية •

٣٢ ــ حفص بن الوليد :

كان حفص يحكم مصرا وفيها عبيد الله بن الحبحاب يقوم على شئون الخراج والمالية ، وقام التنازع بين الاثنين وفصل الخليفة فى هذا النزاع بعزل حفص عن حكم مصر واعادة الحاكم السابق عبد الملك بن رفاعة الذى ما لبث أن مات فى سنة ١٠٩ هجرية ، فتولى الحكم الوليد ابن رفاعة •

٢٣ ــ الوليد بن رفاعة :

وقد بدأ حكمة فى ظل سيطرة بن الحبحاب على الشئون المالية ، واستطاع الوليد أن يستصدر قرارا من الخليفة بعزله واخراجه من مصر ليجمع الوليد بن رفاعة بين صلاة مصر وخراجها •

استمر الوليد مدة طويلة نسبيا استمرت نحو سبع سنوات لم تكن هناك فتنه سوى النزعات القبلية بين العرب بعضهم بعضا (١) •

استمر حكم الوليد بن رفاعة حتى ١١٩ هجرية حيث مات مستخلفا على الصلاة عبد الرحمن بن خالده الذى أقره الخليفة حاكما على مصر •

٢٤ ــ عبد الرحمن بن خالد الفهمى :

وتولى الحكم فى سنة ١١٩ هجرية ، وشهدت فترة حكمه بعض المؤامرات البيزنطية لغزو مصر عن طريق السواحل ، فكان عبد الرحمن عاجزا عن التصدى لهم فى بداية الامر • واستطاع المصريون طردهم من البلاد وعزل عبد الرحمن من حكمه ، وعهد الخليفة الى حاكم سابق وهو حنظلة بن صفوان فى توليه صلاة مصر وخراجها لفترة أربع سنوات ثم بعثه الخليفة بعد ذلك الى أفريقيا فى سنة ١٢٤ هجرية موليا حكم مصر الى حاكم سابق أخر وهو حفص بن الوليد الذى قبل الحكم فى هذه المرة جامعا بين الصلاة والخراج •

وفى هذه الاثناء توفى هشام بن عبد الملك ، وفشلت محاولات المسلمين لغزو فرنسا من الاندلس ، وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، فكان ظالما شاذا لم تدم خلافته أكثر من سنة ، ثم تولاها يزيد بن الوليد الذى استمر ستة أشهر فقط ، وما أن حانت سنة ١٢٧ هجرية حتى تولى الخلافة مروان بن محمد وظهر التصدع على الدولة الاسلامية الام لتتابع تغير خلفاء الاسرة المروانية ، وكثرة المفاسد والمظالم ، وبدأ العباسيون من مدينة خراسان العمل لاسقاط الامويين ومبايعة أسرة عباسية جديدة • فى سنة ١٢٧ هجرية أمر الخليفة مروان بن محمد بعزل حفص بن الوليد وتوليه حسان بن عتاهيه التجيبى لحكم مصر •

---

(١) كان الصراع الدائر وقتئذ بين القبائل القيسية واليمنية ، فكان عندما يكون الحاكم يمنيا في الاصل كان يستعفى القيسيين من الوظائف الكبرى وكان العكس يحدث عندما يتولى القيسى الحكم •

٣٥ ــ حسان بن عتاهيه :

وكانت فترة حكمة فترة سخط عام ، فقد أنقص حسان أقــوات الجند وارزاقهم ، وكانت القبائل اليمنية فى مصر قد تمردت لعزل حفص ابن الوليد الذى كان من أصل يمنى ، بينما كان حسان الحاكم الجديد قيسيا ، فعمل اليمنيون فى مصر على مساندة دعوة العباســيين فى مصر مما اضطر الخليفة الى اعادة حفص بن الوليد مرة ثالثة لحكــم مصر ، وسرعان ما أتى الى مصر يمنى أخر هو حنظلة بن صفوان الحاكم الاسبق الذى أكمل مسيرة الحكم الى نهاية سنة ١٢٨ هجرية وليهدىء القبائل اليمنية ويثنيها عن مساندتها للعباسيين • كان الخليفة مروان بن محمد يعد العده لكبح جماح التمرد اليمنى فى الفسطاط فأرسل الى مصر جيشا من سبعة الاف مقاتل استطاع أن يقتل حفص بن الوليد ويخمد ثــورة القبائل اليمنية •

كان هذا الجيش بقيادة حوثرة بن سهيل الذى عينه الخليفة حاكما جديدا لمصر •

٣٦ ــ حوثرة بن سهيل :

ومكث فى مصر حاكما نحو سنتين على كره من أهل مصر ، وشهدت مصر الاضطرابات والفتن ، غير أن عسكريته الفذة مهدت له فى تأمــين أطراف مصر •

كانت رياح الازمة بين العباسيين والامويين تلفح الجو فى مصر ، فبمجرد استيلاء أبو مسلم الخراسانى على مدينة مروة عاصمة خراسان واستطاع أن يوطد فيها أركان سلطان جديد ، استدعى مروان بن الحكم حوثرة بن سهيل من مصر على رأس جيش من مصر لمواجهة جيش أبى مسلم الخراسانى وولى على مصر المغيره بن عبيد سنة ١٣١ هجرية •

٢٧ ـ المغيرة بن عبيد :

وكان رجلا عطوفا لينا على الناس حاول اكتساب ثقة الجميع القبائل وثقة سائر أهل مصر ، الا أنه لم يلبث سوى ثمانية شهور ، فتولى امارة مصر عبد الملك بن مروان (١) بن موسى .

٢٨ ـ عبد الملك بن مروان بن موسى :

وكان أميرا على صلاة مصر وخراجها ، تولى فى سنة ١٣٢ هجرية فى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين الجيش العباسى والجيش الاموى .

وتقدم العباسيون واستطاعوا هزيمة الخليفة مروان بن محمد وتمت المبايعة لاول الخلفاء العباسيين عبد الله بن العباس ، واحتمى مروان بن محمد بمصر ، غير أن أغلب أهل مصر انحازوا الى جانب العباسيين آملين فى حكم جديد مستقر ، وقتل مروان بن محمد ، وقتل حاكم مصر عبد الملك بن مروان بن موسى ، وبدأت فى مصر صفحة جديدة تحت حكم العباسيين .

وانتهت الدولة الاموية فى الشرق ..

---

(١) وهو غير عبد الملك بن مروان الذى تولى الخلافة .

وقامت الدولة العباسية

١٣٢ هجرية ــ ٧٥٠ ميلادية

حكام مصر فى عهد الخلافة العباسية

دخلت مصر فى طاعة العباسيين فى سنة ١٣٢ هجريه الموافقه ٧٥٠ ميلادية .

وكانت الفترة الاولى من حكم العباسيين فى مصر التى استمرت نحو ١٢٠ سنة من أكثر فترات الاضطراب السياسى والادار ى، حيث تغير الحكام بالعزل أو بالقتل بين فترة قصيره وأخرى ، وعمت الفوضى كافة شئون مصر ، وانتشرت الفتنه بين صفوف العرب والمصريين ، ذلك أنه قد اعتمد العباسيون لتوطيد أركان حكمهم فى مصر لا على العرب ، وانما على غير العرب من الاتراك والفرس .

واستمرت مصر بين طاعة وعصيان وحرب وفوضى حتى عهد أحمد ابن طولون سنة ٢٥٤ هجرية . كما أنه لم يكن لحكام مصر المعينين من قبل الخلفاء العباسيين دراسة كافية بأصول الحكم والادارة فعمت الفوضى كل مصر ، وأصبحت ميدانا فسيحا للتمرد والثورة تارة بين رجال الدولة وخصومهم ، وتارة بين قبائل العرب بعضهم بعضا .

هذا فضلا عن أن رجال الدولة وكانوا من الاتراك والفرس غلاظ القلوب على الناس ، ومن ثم فقد وقعت فى مصر فى هذا العهد الحالك بعض الدعوات المغرضة البعيدة ، عن الاسلام ، ثم كانت الفتنة التى حدثت بين الخلفاء أنفسهم تؤثر على مجريات الامور فى مصر ، فمثلا عندما حدث النزاع بين الامين والمأمون ولدى الخليفة هارون رشيد كان

لكل منهما أنصارا فى مصر ، وأصبحت مصر ميدانا للحرب بين الطائفتين الامر الذى أدى الى ضعف مصر وتوقف مسيرة الاعمار والبنـاء فيها • واشتدت المظالم فيها ، بل وأكثر من هذا فقد استقل بعض الثوار بالوجه البحرى •

فكان (جابر بن الوليد ٢٥٢ هجرية) ، والاندلسيون بالاسكندرية ٢١٠ هجرية واستمر حكام مصر بين التولية والعزل والقتل حتى دخل أحمد ابن طولون فى سنة ٢٥٤ هجرية ليبدأ عهد جديد •

ويمكن المرور سريعا على حكام مصر فى هذه الفترة تبعـا لترتيب توليتهم على النحو التالى :

٢٩ ــ صالح بن على بن عبد الله العباسى :

تولى الحكم سنة ١٣٣ هجرية وهو أول حكام مصر فى عهـد بنى العباس ، وقد بدأ حكمه ببعض البوادر الطيبة مثل الوقوف على توزيع المؤن والاقوات على المتضررين من القتال ، وذلك حتى يكسب ثقـة أهل مصر ومبايعتهم للخلافة العباسية •

٣٠ ــ أبو عوف عبد الملك الاسدى :

تولى الحكم سنة ١٣٤ هجرية وبنى مدينة جديدة هى مدينة العسكر وربط بينها وبين مدينة الفسطاط ، واستمر حكمة ثلاث سنوات تـولى بعدها قيادة جيش المغرب ، وعاد الى مصر حاكمها السابق صالح بن على سنة ١٣٦ هجرية فى ظل خلافـة الخليفـة العباسى الثـانى أبى جعفر المنصور • واستمر صالح بن على حاكما على مصر حتى سنة ١٤١ هجرية فتولاها موسى بن كعب التميمى •

يذهب د٠حسين مؤنس الى أن العرب الـذين كانوا يتنازعـون لتولى ادارة مصر في ظل خلافة بين بنى امية فقدوا امتيازاتهم نهائيا في ظل خلافة بنى العباس حيث استعان الخلفاء بغير العرب لادارة حكم الولايات ــ حسين مؤنس ــ مرجـع سابق ٣٨٤ •

٣١ ـ موسى بن كعب التميمى :

تولى الحكم فى سنة ١٤١ هجريه ، وكان من الحكام الورعين ولكنه لم يكن قويا بالدرجة التى تؤهله للسيطرة على فتن القبائل العربيه . فعزله الخليفة وولى محمد الاشعث •

٣٢ ـ محمد بن الاشعث الخزاعى :

تولى حكم مصر أميرا على الصلاة فقط فى سنة ١٤٢ هجرية ، بينما كانت الشئون المالية فى يد أحد القواد الترك وهو نوفل بن الفرات استمر فى الحكم سنة واحدة ، دون أية سلطات فعلية •

٣٣ ـ حميد بن قرطبة الطائى :

بدأ حكمه سنة ١٤٣ هجرية ، وكانت مهمته الاساسية تعبئة جيش قوى من المصريين لقمع الفتن المشتعلة فى شمال أفريقيا ، وما أن انتهى من هذه المهمة حتى أوفده الخليفة الى القيروان ، وعين بدلا منه يزيد ابن حاتم •

٣٤ ـ يزيد بن حاتم المهلبى :

عين فى سنة ١٤٥ هجرية ، وكان عسكريا بالشدة والعنف ، فى عهده استطاع أن يواجه ثورة الاقباط فى ناحية سمنود ، وواقع الامر أن مثل هذه الثورات لم يكن دافعها الاساسى التعصب الدينى وانما كانت ضد تعسف الحكام وتردى الاحوال الاقتصادية ، ولذلك اشترك فى مثل هذه الحركات أطراف الناحية كلها سواء من الاقباط أو المسلمين ، ولكن كان عجز الحكام أمام مواجهة الحقيقة اقناع الرأى العام والخليفة بأن حركة التمرد قبطية المعالم بينما هى فى الاصل والاسلوب مواجهة لادارة فاسدة• استمر حكم يزيد بن حاتم حوالى ثمانى سنوات جمعت بين العدل والبطش ولكنه كان عهدا لم يعرف الرخاء الا فى بيوتات كبار القواد ورجال الادارة •

٣٥ ــ عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج :

تولى حكم مصر سنه ١٥٣ هجرية ، كان عربيا ، فقد كان جده معاوية بن خديج أحد جند الفتح مع عمرو بن العاص وكان أحد زعماء شيعة عثمان فى مصر •

وقد انحار عبد الله بطبيعة الانتماء الى القبائل العربية وخاصة اليمنية التى ينحدر من أصلها • وأدى ذلك الى اشتعال الفتنة بين القبائل العربية كلها •

استمر حكمة ثلاث سنوات مات بعدها فتولى أخوه محمد بن عبد الرحمن ولاية مصر فى نهاية سنة ١٥٥ هجرية •

٣٦ ــ محمد بن عبد الرحمن :

لم يستمر حكمه سوى سنة واحدة ، كان فى خلالها يقوم بمهمة عسكرية مؤداها تعبئة الامدادات للمقاتلين العرب فى شمال أفريقيا فى صراعهم مع البربر ، ومات محمد بن عبد الرحمن ليقوم بالحكم موسى ابن على الخمى •

٣٧ ــ موسى بن على اللخمى :

تولى فى سنة ١٥٦ هجرية ، وكان من الحكام الذين عرف عنهم الزهد والورع ، ولكنه فى بداية حكمة اضطر لاستخدام العنف رغبة فى ذبت الفتن المختلفة •

ومغ ذلك كان حسن السيرة بالرعية •

فى عهده توفى الخليفة أبو جعفر المنصور المؤسس الرئيسى للدولة العباسية فتولاها من بعده ابنه محمد المهدى الذى أقر موسى بن على فى مصر حتى سنة ١٦١ هجرية الى أن عزله موليا عيسى بن لقمان •

٣٨ ــ عيسى بن لقمان :

وكان يجمع فى حكمه بين الصلاة والخراج لم تكن له أية درايـة بشئون الحكم فعزله الخليفة بعد بضعة شهور موليا واضح المنصورى فى عام ١٦٢ هجرية •

٣٩ ــ واضح المنصورى :

وكان أحد الموالى الذى كان قد تم أسره وهو غلام فى احدى معارك العباسيين •

ضاق أهل مصر بحكمه ونفر منه الكثيرين بسبب كونه عبدا لم يكن يهمه سوى المصلحة المطلقة لأسياده فى بغداد دون رعاية مصالح أهـل مصر • فعزله الخليفة موليا منصور بن يزيد •

٤٠ ــ منصور بن يزيد الحميدى :

تولى الحكم فى سنة ١٦٣ هجرية ، وكان من أصهار الاسرة الحاكمة فى بغداد • وكان غير جدير بتولى الحكم فلم يستمر سوى أشهر محدودة وتم عزله فى نفس السنة وعين الخليفة حاكما أخرا وهو يحيى بن صـالح الحرش •

٤١ ــ يحيى بن صالح الحرش :

وكان من أصل تركى ، شديد البأس ، بدأ حكمة بالعمل على استتباب الامن ، فقاتل اللصوص وقطاع الطرق • وتروى بعض المصادر أنه كان من أكثر حكام مصر فى عهد العباسيين عدلا وخبرة فى الادارة •

أستمر حكمه أكثر من سنتين تولى بعده سالم التميمى •

٤٢ ـ سالم بن سواده التميمى :

وكان أميرا لمصر لمدة سنة واحدة ، كان يعمل معه مساعدان أحدهما للامن ، والاخر للخراج ، فكان الثلاثة بمثابة مجلس رئاسة غير متجانس الهوية أو السن ولا يجمعهم سوى الاخلاص للخليفة العباسى فقط •

عمل الثلاثة على تعبئة جيش كبير من أهل مصر لمعاونة الرشيد بن الخليفة حين هم الرشيد بغزو القسطنطينية • وبعد اتمام هذه المهمة عين الخليفة حاكما جديدا وهو ابراهيم بن صالح •

٤٣ ـ ابراهيم بن صالح العباسى :

تولى الحكم فى سنة ١٦٦ هجرية ، كان حاكما ضعيفا لم يستطع السيطرة على كل أطراف مصر ، فمهد ذلك لقيام فتنة فى الصعيد ، حيث أعلن أحد أحفاد عبد العزيز بن مروان خلعه للخليفة وناصره الكثيرين من أهل صعيد مصر •

فشل ابراهيم بن صالح فى مقاومة فتنة الصعيد فعزله المهدى موليا موسى بن مصعب •

٤٤ ـ موسى بن مصعب الخثعمى :

تولى فى سنة ١٦٧ هجرية ، تشدد فى جمع الخراج نفر منه المصريون نفورا شديدا حيث بلغهم أنه كان من أحد الموالى أسرى حرب العباسيين وسقط قتيلا فى أحد المعارك الداخلية،فعين الخليفة المهدى عسامة بن عمرو ابن علقمة •

٤٥ ـ عسامة بن عمرو العلقمى :

أقره الخليفة على حكم مصر للاشتراك فى مقاومة الفتنة الاموية فى صعيد مصر ، ولم يفلح عسامة كسلفية السابقين فأرسل الخليفة حاكما جديدا على رأس جيش كبير ، وهو الفضل بن صالح العباسى •

٤٦ ــ الفضل بن صالح العباسى :

حضر الى مصر فى سنه ١٦٨ هجرية لفرض قمع فتنة الصعيد ، وبقى الحاكم السابق عسامة مسئولا عن الامن الداخلى ، واستطاع الفضل أن يتفرغ لمقاومة هذه الفتنة وانهائها ، ووجد أنه أحق الناس بحكم مصر •

فى عهده توفى الخليفة المهدى ، وبايع المسلمون فى بغداد ابنه موسى الهادى خليفة على المسلمين الذى خشى من غرور الفضل بن صالح حاكم مصر واحتمال استئثاره بالحكم فعزله وعين على بن سليمان العباسى فى سنة ١٧٠ هجرية •

٤٧ ــ على بن سليمان العباسى :

جمع بين الصلاة والخراج والامن ، يذكر له التاريخ أنه على غير اسلافه كان عادلا ، ولكن امارته لم تدم سوى سنة واحدة •

فقد توالت الاحداث فى الدولة الام فقد مات الخليفة الهادى وتولى الخليفة هارون الرشيد الذى لمع اسم الدولة العباسية فى عهده ، وكانت بغداد مركزا مرموقا للتجارة العالمية ومحفلا للعلم والادب •

كان أول قرارات الرشيد الخليفة بمصر تولية موسى بن عيسى على مصر سنة ١٧١ هجرية وعزل على بن سليمان •

٤٨ ــ موسى بن عيسى :

حكم مصر أيضا سنة واحدة ، كان عادلا بالمسلمين وبالاقباط ، اعاد بناء الكنائس التى سبق أن تهدمت فى عهود أسلافه ، واستحوذ على حكم مصر بالتقرب من شعبها ، فخشى الرشيد من شعبيته الجارفة فعزله وعين حاكما جديدا وهو مسلمة بن يحيى •

٤٩ ـ مسلمة بن يحيى :

تولى الامر بضعة شهورعمت فيها الفتنة وانتشرت الفوضى وزاد الخراج على الناس ، فعزلة الخليفة الرشيد موليا محمد بن الاسدى فى سنة ١٧٣ هجرية •

٥٠ ـ محمد بن الاسدى :

استعان على الشئون المالية ببعض الفلاه الذين نفرت منهم قلوب المصريين ، واستمرت الفوضى والاضطرابات أنحاء مصر ، فتم عزله فتولى حكم مصر داوود بن يزيد •

٥١ ـ داوود بن يزيد :

حكم مصر من سنة ١٧٤ الى ١٧٥ هجرية ، حاول أن يخفف من مساوىء سابقية فلم يحسن الادارة فعين الرشيد حاكما سابقا كان المصريون قد تعلقوا به واوفدوا الى الخليفة ليعيده حاكما وهو موسى بن عيسى الذى لم يلبث أن مات ، فعين الخليفة حاكما جديدا وهو عبد الله ابن المسيب •

٥٢ ـ عبد الله بن المسيب :

تولى الحكم فى سنة ١٧٦ هجرية ، ولم يكمل سنة واحدة حتى عزل وتولى اسحق بن سليمان العباسى •

٥٣ ـ اسحق بن سليمان العباسى :

عمد اسحق الى زيادة الضرائب المفروضة على كاهل الفلاحين ، واساء التعامل مع القبائل العربية المقيمة بمصر ، فحدثت الفتنة فى مدينة العسكر العاصمة المصرية ، فما أن علم الرشيد بهذه الفتنة حتى أرسل هرثمة بن أعين حاكما على مصر •

٥٤ ـ هرثمة بن أعين :

جاء الى مصر على رأس جيش عباسى لاقرار الامن واسكات الفتنه فى العاصمة ثم انصرف بعد ذلك الى شمال أفريقيا ليؤدى نفس المهمة مستخلفا على الامارة عبد الله بن صالح الذى وافته المنية قبل توليه ؛ فولى الخليفة الرشيد أخا له من أبيه هو عبد الله بن المهدى حاكما على مصر •

٥٥ ـ عبد الله بن المهدى :

تولى حكم مصر سنة ١٧٩ هجرية ، وكان أميرا على الصلاة والخراج واستمر ثلاث سنوات ، ثم عزله أخوه الخليفة وعين اسماعيل بن صالح سنة ١٨٣ هجرية •

٥٦ ـ اسماعيل بن صالح :

ولبث فى الحكم سنة واحدة ، وكان من الضعف بحيث لم يستطع أن يقوم بأى مهمة ، فعزلة الخليفة وعين اسماعيل بن عيسى الذى لم يستطع مواجهة الامور ، وقيل أنه لم يحسن اللغة العربية ، فولى الرشيد حاكما جديدا وهو الليث بن فضل •

٥٧ ـ الليث بن الفضل الابيوردى :

فى نفس السنة وهى ١٨٢ هجرية ، جمع بين الصلاة والخراج ، كان حازما صلبا يحسن الادارة والسلطة استمر نحو خمس سنوات ، وفى عهده ثارت القبائل العربية ضده ، فطلب الى الرشيد امداده بالجيش اللازم لاخماد الفتن • لم يستجب الخليفة لطلبه وعزله وعين أحمد بن اسماعيل •

٥٨ ـ أحمد بن اسماعيل :

تولى الحكم فى سنة ١٨٧ هجرية ، وبدأ فى تهدئه الرعيه وعمل على الرفق فى تحصيل الخراج ، ولكنه لم يفلح فى ذلك الامر أو ذاك ، واستمر سنة واحدة عزل بعدها وتولى عبد الله بن محمد العباسى .

٥٩ ـ عبد الله بن محمد العباسى :

حكم مصر لمدة سنتين انتهت فى سنة ١٩٠ هجرية ، انحاز الى القبائل القيسية واستعان بهم فى استتباب الامن ولكنه ألب القبائل الاخرى على الحكم العباسى ، فعزله الخليفة موليا الحسين بن جميل الاسدى .

٦٠ ـ الحسين بن جميل الاسدى :

تمرد عليه جميع العرب المقيمين بمصر ، وفى خلال التمرد رفع البعض شعارات التمرد ضد الدولة العباسية ، وعمت الفتنة أنحـاء البـلاد ، فارسل الخليفة جيشا لاقرار الامن وردهم الى طاعته ثم عزل الحـاكم وعين مالك بن دلهم الكلبى الذى لم يلبث سوى أيام قليلة تولى بعدهـا الحسن بن جميل البحباح .

٦١ ـ الحسن بن جميل البحباح :

تولى فى سنه ١٩٢ هجرية وفى بداية عهده توفى الخليفـه هارون الرشيد ولم يكد يبايع الناس خليفه جديد وهو محمد الاسـين بن هارون الرشيد حتى نشب الخلاف بين الامين والمأمون الدى كان يطالب بالخلافه لنفسه ، واصبح لكل منهما انصارا ، وانعكس ذلك على مصر ، فمن الجند من ناصر الامين ، ومنهم من ناصر المأمون ، فاصدر الخليفه الامين قرارا بتولية أحد أنصاره وهو حاتم بن هرثمة فى سنة ١٩٤ هجرية على ولاية مصر .

كانت الفتنة تستشرى فى مصر ولم يستطع حاتم أن يوقفها فاضطر الخليفه الى تعيين حاكم قوى وهو جابر بن الاشعث ليعيـــد مصر الى طاعته •

٦٢ ـ جابر بن الاشعث الطائر :

تولى حكم مصر فى سنة ١٩٥ هجرية فى الوقت الذى كان جيشـــا الامين والمأمون يتقابلان فى عاصمة الخلافة وتمت الغلبة لجيش المأمون ، فما كادت الانباء تصل الى مصر حتى وثب أحد أنصار المأمون فى مصر وهو السرى بن الحكم مع جماعة من المصريين لمقاومة حاكم مصر جابر بن الاشعث وتم عقد البيعة للخليفه المأمون ، وارسل الخليفة الجديد عبيد بن محمد حاكما جديدا على مصر فى سنة ١٩٦ هجرية الا أن هذا الحـــاكم واجه أمرا خطيرا فقد استطاع انصار الخليفة السابق الامين أسر عبيد ابن محمد وارساله الى الامين لاعدامه ، وظلت مصر بدون حاكم واحد يجمع الادارة فى يدة لفترة سنتين •

وهكذا كان للفتنة بين الامين والمأمون أثرها السيء على اضطراب أوضاع مصر ، ولكن ما لبثت هذه الفتنة أن انتهت بمقتل الخليفة الامين وتولى الخليفة المأمون فعين بدوره عبد المطلب بن عبد الله حاكمـــا على مصر فى سنة ١٩٨ هجرية •

٦٣ ـ عبد المطلب بن عبد الله :

استبعد عبد المطلب من المناصب العليا كل الموالين للخليفة السابق فأشاع ذلك الاضطراب والاختلال ، فعزله الخليفة وعـــين العباسى بن موسى فى نفس السنة •

٦٤ ـ العباسى بن موسى :

بدأ حكمة بسجن الامير المعـــزول عبد المطلب واراد أن يســـتأثر

بمهمتى الامن والخراج ، تشدد مع الرعيـــة ، لـــم يرق للمصريين ذلك فاتحدوا واخرجوا عبد المطلب بن عبد الله من سجنه وولوه أميرا ، وقتلوا العباسى بن موسى ، فأقرهم الخليفة على ذلك الى أن عزل المأمون المطلب مرة أخرى وولى الحكم الى السرى بن الحكم أحد انصاره فى مصر .

٦٥ ـ السرى بن الحكم :

تولى سنة ٢٠٠ هجرية ، وعرف عنه أنه كان يرغب فى الاستقلال بمصر ، فتولى سليمان بن غالب فترة قصيرة لم يستطع أن يثبت اقدامة فى الحكم ، فأعاد الخليفة مرة أخرى الى حكم مصر لسرى بن الحكـــم فاستمر الى أن مات مستخلفا ابنه محمد بن السرى الذى قتل فى أحـــد المعارك ، فولى الخليفة ابنا أخرا للسرى وهو عبيد الله بن السرى سنة ٢٠٦ هجرية .

٦٦ ـ عبيد الله بن السرى :

استهل عهده بالحرب ضد فتنة الامويين فى الصعيد ، واستمر حكمه نحو ٥ سنوات ، بدأت فيها نفوس أهل مصر ترتاح اليه نظرا لما اجراه من العدل ولما حالفه من انتصارات على الفتن الداخلية ولكنه اخذته العزة للاستقلال بمصر ، فأرسل المـــأمون جيشــا كبيرا بقيـــاده عبيد الله ابن طاهر ليطيح بعبيد الله ويتولى حكم مصر فى سنة ٢١١ هجرية .

٦٧ ـ عبيد الله بن طاهر :

وهو أحد الموالى الذين تولوا امارة فى خراسان قبل توليه حكـــم مصر ، وكان عادلا مع رعيته واستطاع أن يرتب أحوال البلاد وينظـــم أمنها . حارب عبد الله بن طاهر بعض المنشقين المتواجدين فى الاسكندرية واضطرهم للاستسلام ، ووجه عبد الله جيشا الى جزيرة كريت واستطاع الاستيلاء عليها .

وفى سنة ٢١٣ هجرية أقر الخليفة المأمون عيسى بن يزيد الجلودى أميرا على مصر مع بعض أمراء آخرين لمساعدته فى شئون الخراج والامن ، وأدى تشتت الادارة الى عزلهم جميعا وتولى عمير بن الوليد التميمى حكم مصر فى ٢١٤ هجرية • وقد سقط عمير بن الوليد قتيلا فى آحدى المعارك مع بعض القبائل العربية ، واستمرت الفتنة والاضراب مرة أخرى فى مصر الى ان بعث المأمون بأخية المعتصم حاكما على مصر •

٦٨ ـ المعتصم بن هارون الرشيد :

قدم المعتصم على رأس جيش ليخمد فتنة القبائل العربية ، وبالفعل هزمهم ، وعين نوابا له على الصلاة والشرطة والخراج وشئون المظالم •

ولكن الغلاء اشتد فى عهده ، وثار العرب والأقباط فى مصر ثوره عارمة اضطر معها الخليفة المأمون أن يحضر بنفسه الى مصر للوقوف على اسباب الفتنة وتهدئة النفوس •

أراد المأمون أن يقيم موازين القسط والعدل فى مصر فعين كيدر بن عبد الله السعدى فى ٢١٧ هجرية •

٦٩ ـ كيدر بن عبد الله السعدى :

استطاع كيدر أن يعمل على استتباب الامن والنظام بعد رحيل الخليفة المأمون عن مصر • وفى نفس السنة توفى الخليفة المأمون وتولى أمر الخلافة أبو اسحاق محمد المعتصم بالله الذى اعتمد على الاتراك بصفة أساسية وجعل منهم أجناد الجيش وقواده ، فأدى ذلك الى الفتنة بين العرب ، فولى الخليفة حكم مصر فى سنة ٢١٩ هجرية الى المظفر بن كيدر بعد وفاة أبيه ، ولكنه لم يكد يقوم بمهامة حتى قتل من بعض القبائل العربية ، فتولى الحكم موسى بن العباسى سنة ٢٢٠ هجرية (١)•

٧٠ ـ موسى بن العباسى :

استمر ٤ سنوات فى حكم مصر يأتمر بقائد تركى فى بغداد ومات فى سنة ٢٢٤ هجرية فتولى الحكم أحد أبناء الحاكم السابق كيدر •

٧١ ـ مالك بن كيدر :

وحكم مصر لمدة سنتين ، وكان يأتمر كسلفة بالحاكم التركى فى دار الخلافة العباسية •

٧٢ ـ على بن يحيى الارمنى :

تولى الحكم فى سنة ٢٢٦ هجرية ، واراد العمل على أصلاح الديار المصرية •

فى عهده توفى الخليفة المعتصم وبويع أبنــه الــواثق بالله خليفة للمسلمين الذى عهد بالسلطة على مصر كلها الى القائد التركى أشناس • وبعد وفاته عادت أمارة عيسى بن منصور مرة ثانية عــلى مصر ، ومات الخليفة الواثق وخلفة المتوكل على الله أبو الفضل جعفر فولى حكم مصر الى هرثمة بن نصر •

٧٣ ـ هرثمة بن نصر الجبلى (١) :

تولى فى سنة ٢٣٣ هجرية • وفى عهده نودى بضرورة اتباع السنه الشريفة وعدم المشاركة فى الجدل الدائر حول محنة خلق القرآن •

دام حكم هرثمة سنة واحدة وبعده تضاربت السلطة بين أبنه وبين أولاد الحاكم الاسبق على بن يحيى فاستمر التضارب حتى ولى الخليفة امارة مصر الى عبد الواحد بن يحيى الفارض فى سنة ٢٣٦ هجرية •

٧٤ ـ عبد الواحد بن يحيى :

تولى لمدة سنتين كان يقتصر فيها على الصلاة دون الشئون المالية والامن ، ثم تولى عبنة بن اسحاق •

٧٥ ـ عبنة بن اسحاق :

يروى عنه الانصاف والرفق وكان يتبع مذهب الخوارج ، فى عهده حاول البيزنطيون الاستيلاء على دمياط ، فاستطاع مقاومتهم واعمار مدينة دمياط •

ووجه بعصيان أخر من أهل النوبة ، فعهد الى أحد قواده بحربهم وردهم الى الطاعة ، ثم عزل ٢٤٢ هجرية بتولى يزيد بن عبد الله التركى •

٧٦ ـ يزيد بن عبد الله التركى :

وقد واجهته بعض المحن الطبيعية ، حدث زلزال فى نفس السنة •

استمر حكمه نحو ١١ سنة عاصر فيها وفاة الخليفة المتوكل ، وخلافة المنتصر بالله ثم خلافة المستعين بالله ثم خلافة المعتز بالله ، حيث كانت الفتنة فى عاصمة الخلافة مستقرة •

استطاع يزيد بن عبد الله تدبير أمور مصر بشكل حكيم الى أن عزله الخليفة المعتز سنة ٢٥٣ هجرية موليا أمر مصر الى مزاحم بن خاقان •

٧٧ ـ مزاحم بن خاقان :

تولى فى سنة ٢٥٣ هجرية وكان يساعده أرغور بن أولوغ التركى الذى أقره الخليفة العباسى أميرا على مصر فى سنة ٢٥٤ هجرية ولفترة محدودة ليبدأ بعدها استقلال مؤقت فى مصر على يد أحمد بن طولون •

فى هذه الفترة وبعد مسيرة عدد كبير من الحكام التابعين للدولة العباسية يبدأ فى مصر استقلال شكلى ، وان كان يتميز ببعض الخصوصية والذاتية لدولة طولونية الا أنها كانت تابعة عضويا لدولة الخلافة العباسية .

وبدأ أحمد بن طولون فى مصر .

٧٨ ـ أحمد بن طولون :

قدم أحمد بن طولون مصر فى شهر رمضان من سنة ٢٥٣ هجرية ، وكان صهرا للحاكم باكباك الذى كان يدير شئون مصر من عاصمة الخلافة وما أن مات هذا الاخير حتى آلت الامور كلها لاحمد بن طولون .

وقد ولد أحمد فى سنة ٢٢٠ هجرية من أب تركى وتلقى ثقافته الاسلامية الاولى فى عاصمة الخلافة وفى طرسوس بالشام ، واتسعت ثقافته ، وأتقن الفروسية نظرا لابتعاده لسنوات طويلة عن جو المؤامرات فى اعصمة الخلافة .

كانت فترة حكم بن طولون فى مصر مواكبة لفترة فتنة بنى العباسى وسعيهم للخلافة ، فشهدت سنة ٢٥٥ هجرية مقتل الخليفة المعتز وتولى المهتدى بالله ثم قتل هو الاخر وتولى الخليفة المعتمد على الله الذى لم يكن من السلطان سوى الاسم فقط ، بينما كانت السيادة الفعلية لاخيه الامير الموفق .

فى أول أيام أحمد بن طولون فى مصر عهد اليه بأخماد فتنة فى الشام ، فكون جيشا من أهل مصر ضم اليه كثير من الاتراك ومن السودانيين ، وكان هذا الجيش يدين بالولاء له ، فكان نواة لاكبر قوة عسكرية فى بلاد الخلافة ، والتى استطاع بها بن طولون أن يوطد أركان حكمه فى مصر والشام معا ، فما لبثت أن حلت سنة ٢٦٦ هجرية حتى كان أحمد بن طولون حاكما على مصر حتى بلاد النوبة جنوبا وبرقه غربا وكل الشام شرقا .

كان بن طولون يستقل تقريبا بحكم مصر . ولا بأبه بأية توجيهات من عاصمة الخلافة سوى ما يتعلق منها بتهديد الامن الخارجى لمصر . ومع ذلك فلم يعلن العصيان على الخلافة ، ولم يوقف المدد من أموال الخراج الى الخليفة ، بل كان نصف خراج مصر تقريبا يذهب الى عاصمه الخلافة (١) .

استمر عهد أحمد بن طولون نحو ستة عشرة سنه استأثر الحكم بالمهام العسكرية ، فكان جيشه أهم جيوش الدولة الاسلامية ، ولكن توطيد سلطة الجيش وتوطيد سلطاته فى مصر كان يحتاج الى التمويل اللازم ، وكان اعمار مصر أحدى المهام الكبرى لاحمد بن طولون فبنى مدينة القطائع عند سطح جبل المقطم ، وبنى فيها مسجده الحالى الذى اتسع بجانبه العمران من كل جهه . عمل أحمد بن طولون على النهوض بالتجارة والزراعة والصناعة ، وأقام المؤسسات الاجتماعية التى تجرى الرواتب على العلماء والفقهاء وعلى فقراء البلاد ، وأنشأ أول مستشفى عام رسمى من أموال الدولة لمعالجة المرضى ويسمى البيمارستان .

وفى سنة ٢٧٠ هجرية مات أحمد بن طولون مريضا بعد طول عناء فى الحكم والسلطان تاركا حكم مصر الى ابنه أبو الجيش خمارويه .

ملاحظات عامة على عهد أحمد بن طولون .

١ ـ يرى كثير من المؤرخين أن أحمد بن طولون بدأ فى مصر عصر الاستقلال ، وهذا يعتبر من قبيل المبالغة فى الواقع ، فهو فعلا استقل بشئون مصر المالية والاقتصادية والعسكرية ، ووضع بصماته فى الاعمار والتشييد ولكنه لم يقطع الخطبة على المنابر لبنى العباس ولم يوقف المدد المالى الى عاصمة الخلافة ، كما أنه وان كان قد استعمل المصريين بكثرة فى الاعمال العامة والادارة والجيش فقد استخدم قواد من غير المصريين .

٢ ـ كان لكثرة النفقات العسكرية مبررا قويا أن يقوم أحمد بن طولون باحتكار بعض الانشطة الاقتصادية لحسابه الامر الذى جعل لدار الحكم ايرادات أخرى من التجارة والصناعة أنفقها بن طولون فى مرافق عامة كثيرة ، وخصص منها مبالغ ضخمة للبناء ولاعمار المدن والميادين •

٣ ـ يختلف المؤرخون حول مدى تعثر الاحوال الاقتصاديه فى مصر ، ومدى ما لحق بالمصريين من ارهاق بسبب ما فرض عليهم من ضرائب ومكوس متعددة ، فمنهم من يذهب الى أن أحمد بن طولون خفف عن كاهل المصريين ، ومنهم من يرى أن تشدد فى فرض ما يجبى من المصريين من ضرائب •

ولكن الفترة التى حكم فيها أحمد بن طولون على امتداد ستة عشرة سنة بات من المؤكد أنها شهدت الامرين معا ، حيث خفت الضرائب فى أول عهده ثم زادت فى حين آخر تبعا لتطور النفقات المالية لدولة جديدة متسعة أصبح تأمين حدودها أمرا عظيم الاهمية وعظيم التكاليف أيضا •

وعلى ذلك فأن عهد أحمد بن طولون كان بلا شك يتضمن على كثير من عناصر الاستقرار والاستقلال ، فقد طالت الفترة التى عرف فيها المصريون حاكما واحدا وسياسة واحدة بعد فترة كان الحاكم فيها يتغير كل بضعة أشهر وتضطرب فيها أحوال الادارة والحكم •

وعموما فقد خلف أحمد بن طولون آثار عمرانيه ما زال بعضها قائما الى اليوم بعد أكثر من ألف سنة لتشهد على ما أصاب مصر فى تلك الفترة من اعمار وتجديد •

٧٩ ـ أبو الجيش خماروية :

وهو الابن الثانى لا أحمد بن طولون ، وقد بايعه جند أبيه فى سنة ٢٧٠ هجرية ، وكان شابا صغيرا انتهز العباسيون بقيادة الامير الموفق

فرصة موت أبيه وتآمروا على مصر • ووقع الصدام المسلح بين جيش الموفق وجيش خمارويه فى شمال يافا بفلسطين انتهى بانتصار جيش المصريين ، وعقد الجانبان صلحا بمقتضاه أصبح خمارويه حاكما لمصر والشام مقابل جزء سنوى من خراج مصر •

وما أن أصبح الامير الموفق خليفه للمسلمين بعد وفاة الخليفة المعتمد توطدت أواصر الصداقة بين الموفق وخمارويه ؛ حيث تزوج الخليفة الجديد من قطر الندى ابنه خمارويه التى تم تجهيزها فى حفل تاريخى رائع •

واستقرت الامور العسكرية فى مصر ، ولكن خمارويه كان مسرفا فى الانفاق على أهوائه الخاصة اسرافا يصل الى حد السفاهه لدرجة أنه بدد كل مدخرات أبيه ، ولم يسلك مسلكه فى العدل والاعمار •

ورغم ما أتاحته الظروف واتساع أطراف حكم خمارويه فانه لم يحسن الادارة الداخلية ، ومات قتيلا فى اطار مؤامرة عائلية فى سنة ٢٨٢ هجرية بعد حكم دام اثنا عشرة سنة ليخلفه ابنه أبو العساكر جيش •

٨٠ — أبو العساكر بن خمارويه :

تولى حكم مصر لمدة قصيرة اذ أنه كان شابا صغيرا لم يقتنع به جند الجيش وقوادهم الاتراك ، وشهدت الشهور التى حكمها كثيرا من عمليات النهب والصراع على امارة الشرطة والجيش • وشهدت التسيب فى الادارة ، بل أن لكثرة ما وقع من النهب فى أيدى الجند ، ترك الكثير منهم الجندية الى الريف ليصيروا بالاموال المنهوبة مزارعين وتجار وأعيان للضواحى التى هربوا اليها •

ولكن الحال كان حتما لينتهى بقتل أبو العساكر جيش بعد شهور قليلة من توليه الامارة ليخلفه أخوه أبو موسى هارون بن خمارويه •

٨١ ــ أبو موسى هارون بن خمارويه :

وكانت توليته فى سنة ٢٨٣ هجرية ، وكان صغير السن ، وقد بويع من الجنود وقوادهم طمعا من كل منهم فى أن يصير الحكم الفعلى بالبلاد فى يد أحدهم أو جماعته .

كان جيش هارون يقوم على فرق من الترك وفرق من السود فضلا عن فرق صغيره من المصريين وبعض الفرق الروميه التى دخلت فى الاسلام .

فى هذه الاونه حاول عم الحاكم الجديد وهو ابن لاحمد بن طولون نزع السلطه الا أن قواد الجند آثروا هارون حاكما لامكان تفردهم بالحكم فى عهده .

ساءت الاحوال الاقتصادية فى مصر وانخفض الخراج وتبعا له انخفض المدد المقدم لدولة الخلافة حتى انتهى الامر بأن توافد جند العباسيين على الشام فانفصلت الشام فعليا عن امارة مصر ، واستطاعت شعبة من آل بن طولون الاطاحة بحكم هارون ، وتولى شيبان بن أحمد ابن طولون حكم مصر فى سنة ٢٩٢ هجرية .

ولعل الظروف التى أحاطت بتلك الفترة انما هى فترة جديرة بالدراسة حيث كانت ظروف الحكم فى مصر تتأثر بظروف الحكم فى دار الخلافة وبالظروف السياسية والعسكرية فى الدولة الاسلامية الام .

فقد شهدت هذه الفترة وفاة الخليفة المعتز « بن الموفق » وتولى ابنه الخليفة المكتفى بالله ، وقد ظهرت فى الدولة فتنة فكرية وهى حركة القرامطة وهم ينتمون ظاهريا الى الاسلام وكان لهم تفسيراتهم الباطنية التى تبيح بعض المحرمات ، والتى تدخل فى الاسلام أفكار الحادية غريبة أغارت هذه الفرقة على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وكان من الطبيعى أن تعتمد دار الخلافة على مصر وعلى جيشها لمواجهة هذه الحركة التى اجتاحت بلاد الشام ، غير أن الطولونيين فشلوا فى صدها ، فما كان من

الخليفه المكتفى الا أن يقود بنفسه حربا ضد هده الفتنة بجيش من غير المصريين ولتنفصل ادارة الشام عن حكم بنى طولون .

٨٢ ـ شيبان بن أحمد بن طولون :

وهو آخر حكام بنى طولون لم تدم ولايته على مصر سوى تسعة أيام فقط شهدت أسوأ الاحداث التى تعرضت لها مصر عبر تاريخها . فلقد وصل جند العباسيين الى مصر بقيادة أحد القساه الفلاظ وهو محمد ابن سليمان ، فلم يستطع شيبان بن طولون الدفاع عن مدينه القطائع اعصمة الحكم فى مصر ، وسلم نفسه وأهله لجند العباسيين . حتى ما لبثت أن أسقطت الفسطاط أيضا ثم تم تخريب البلاد ، وانتشرت عمليات القتل والنهب ، وحدثت من المآسى ما لم يمكن وصفه ، وما لا يرضى الخليفه العباسى نفسه الذى ما أن وصلته تلك الانباء حتى حاسب المسئولين عن حوادث مصر حسابا عسيرا . وعين من جانبه حاكما جديدا هو أبو موسى عيسى بن محمد النوشرى .

وانتهت دولة بنى طولون .

٨٣ ـ أبو موسى عيسى بن محمد النوشرى :

تولى حكم مصر بعد زوال بنى طولون الى الابد ، وعادت مصر فى عهده ولاية عباسية مرة أخرى بعد أن شهدت فى ظل حكم بنى طولون سبعة وثلاثون سنة من الاستقلال شبه الكامل .

كانت تولية هذا الحاكم سنة ٢٩٢ هجرية ، وكانت الفوضى تعم انحاء مصر ، وفى عهده قامت فى البداية حركة مناوئه من بعض جند الطولونيين بقيادة محمد بن على الذى استطاع لفترة غير قصيرة هزيمة حاكم مصر الجديد وخطب على المنابر للخليفة ولنفسه ولابراهيم أحد أحفاد أحمد بن طولون ، ولكنه تشدد فى معاملة المصريين فلم يلبث طويلا وعاد أبو موسى النوشرى حاكما على مصر محاولا اعادة الاستقرار الى الدولة ، كان ذلك فى سنة ٢٩٣ هجرية .

فى هذه الاثناء كانت عاصمة الخلافة حافلة أيضا بالاضطراب فقد مات الخليفة المكتفى بالله وتولى الخليفة جعفر المقتدر الذى كان صبيا وأحيطت به مؤامرات البيت العباسى التى انتهت باستمرار خلافته الدوله الاسلامية خلافة اسمية •

استمر أبو موسى حاكما لمصر لمدة خمس سنوات يحاول فيها اعادة الامور الى نصابها ، وفتح طرق التجارة مرة أخرى ، وتأمين الافراد الى أن مات فى سنة ٢٩٧ هجرية •

وعين الخليفة المقتدر حاكما جديدا وهو تكين أبو منصور بن عبدالله•

٨٤ ـ أبو منصور تكين بن عبد الله :

كانت مصر كما كانت دائما هى قلب الدولة الاسلامية الذى يدفع عن الاسلام كل فتنة ، فقد أن لها فى هذه الفترة أن تلعب دورا فى مقاومة خطر جديد وهو خطر الحركة الفاطمية ، وهى حركة شيعيه بدأت من الشام على يد عبيد الله المهدى الذى استطاع أن يصل الى المغرب خفيه ، ويستولى هو وشيعته على القيروان •

وأدرج فى خطط الفاطميين الاستيلاء على مصر ، فكانت أولى المحاولات هى الاستيلاء على برقة ثم الزحف الى مدينة الاسكندرية فكان دور حاكم مصر تكين فى مواجهة الجيش الفاطمى الزاحف واستطاع اجلائه عن الاسكندرية •

وبعد تحقيق النصر على أولى محاولات الفاطميين لغزو مصر خشيت دار الخلافة من امكان اتساع نفوذ تكين فعزله الخليفة وعين بدلا منه زكا أبو الحسن فى سنة ٣٠٣ هجرية بعد ست سنوات من حكم تكين بن عبد الله استطاع فيها ان يجمع شتات الجيش ويعيد لمصر هيبتها العسكرية • وليعود مرة أخرى لحكمها بعد ثلاث سنوات •

٨٥ — زكا أبو الحسن :

تولى حكم مصر فى سنة ٣٠٣ هجرية . واستطاع أن يطهر البلاد من بقايا الحركة الشيعية ، وقام بتحصين مدينة الاسكندريه حتى لا يسهل على أى عدو خارجى اجتياحها بحرا أو برا .

لم تدم ولاية زكا أبو الحسن سوى ثلاث سنوات . فعاد الحاكم السابق تكين ليواجه جيش الفاطميين الذى وطد أركانه فى المغرب . واستطاع تكين أن ينتصر مرة ثانية على هذا الجيش ويحقق نصرا عسكريا ثانيا . واستمر تكين فى مهامه العسكرية ، فما أن انتهت تلك المهمه فعين الخليفة حاكما أخرا وهو هلال بن بدر فى سنة ٣٠٩ هجرية .

٨٦ — هلال بن بدر :

حكم هلال بن بدر مصر لمدة سنتين بعد أن استطاع تكين تأمين حدود مصر من الغزوات الفاطمية ، والتى استمر بعض جيوبها فى الفيوم والاسكندرية يمارسون الدعوة الشيعية فى الخفاء ، وتمكن هلال بن بدر من أخماد بعضها ، ولكن لم تكن درايته بالبلاد قوية فأعاد الخليفة الحاكم السابق تكين مرة ثالثة الى مصر فى سنة ٣١١ هجرية .

لم تستمر الفترة الثالثة لحكم تكين على مصر سوى أشهر معدودة عين فيها الخليفة حاكما جديدا وهو أحمد بن كفيلغ .

٨٧ — أحمد بن كفيلغ :

كان المصريون قد ضاقوا بكثرة التبديل والتغيير للحكام ، ولذلك ثار الجند فى وجه هذا الحاكم تعلقا منه بالحاكم السابق تكين الذى كان قد وفر لمصر بعض الاستقرار الداخلى وأمن الحدود ، وكانت ثورة مصر ضد الحاكم الجديد أحمد الذى لم يلبث سوى بضعة أشهر فأعاد الخليفة للمرة الرابعة تكين لفترة جديدة طالت لعشر سنوات .

فى الفترة الجديدة لحكم تكين والتى بدأت من ٣١٢ هجرية وانتهت ٣٢١ هجرية كانت الامور تسير فى مصر على نحو مستقر رغم أن عاصمة الخلافة فى بغداد كانت تشهد الفتنة داخل البيت العباسى . فقد تم خلع الخليفة المقتدر لفترة ثم أعيد لمرة ثانية ثم لقى مصرعة فى سنة ٣٢٠ هجرية ليخلفة القاهر بالله محمد بن المعتضد .

واستمر حكم تكين فى مصر يحاول أن يبتعد قدر الامكان عن امرة الخلافة وعن جو المؤامرات فى نفس الوقت الذى كان يمد به الخليفة بجزء من خراج مصر تجنبا لاى تحرش به . وآلف المصريون الاستقرار فى حكم تكين الى أن مات فى سنة ٣٢١ هجرية وحزن عليه المصريون حزنا كبيرا لدرجة أنهم قبلوا آن يخلفة ابنه ، وبالفعل قام ابن تكين بالحكم حتى جاء أمر الخليفة بتوليه أبو بكر محمد بن طفج الملقب بالاخشيد .

(٨٨)

الاخشيد

تولى الحكم فى سنة ٣٢١ هجرية ليفتح الباب لفترة غير قصيرة لاسرته تتخللها فترات منقطعة من الاضطراب فى الولاية والادارة .
فتولى محمد بن كيغلغ حكم مصر مرة ثانية فى هذا الجو المضطرب الذى صادف شيوع الفتنة بين الجند عقب وفاة الحاكم القوى تكين ، ومن ناحية ثانية تم خلع الخليفة القاهر وبويع بالخلافة الراضى بن المقتدر . ومن ناحية ثالثة كان الفاطميون يقيمون صرحهم فى المغرب وفقا لادارة حازمة حكيمة .

واستطاع الاخشيد أبو بكر الوثوب الى الحكم بعد الاضطرابات الساخرة لتبدأ فترة جديدة .

حكام بنى الاخشيد

بدأ الاخشيد يوطد أركان حكمه بالقوة دون سند من الخليفة الجديد •

لم تكن فترة الاخشيد أو بنى أسرته طويلة بالقدر الذى يمكن معه استنتاج أن كانت هناك دولة اخشيدية لها ملامحها ومنهجها كما سبق للطولونيون ان فعلوا •

ويروى أن لقب الاخشيد انما كان يعنى ملك أسرة فرغانه التى ينتمى اليها ذلك الحاكم ، وكان محمد الاخشيد هذا أحد كبار جند الدولة العباسية فى الشام ومصر ، وكان قريبا من تكين حاكم مصر القوى ، واشترك معه فى رد بعض الغزوات الفاطمية على مصر ، الى أن حانت الفرصة بوفاة تكين ، وأخذ الاخشيد يسعى لتثبيت أقدامه فى مصر . وظل يحكم من سنة ٣٢١ هجرية حتى سنة ٣٣٠ هجرية •

كانت الامور المالية فى عهد الاخشيد تتولاها أسرة الماردانى وهى أسرة فارسية الاصل تشعبت فى مصر بفعل المصاهرة مع العرب والمصريين • كما كانت الظروف التى واجهها صعبة للغاية • فقد كان يواجه طمع الفاطميين من جهة الغرب وطمع رجال الدولة فى داخل مصر •

وظهر فى أول عهده صراع داخلى مع أحد القواد يدعى محمد بن رائق الذى تقرب للخليفة الجديد ، فولاه الخليفة بعض مقاليد الامور • وتصدى الاخشيد له وانتصر عليه عند حدود مصر الشمالية الشرقية ثم تصالح معه على أن يتولى بن رائق ادارة الشام ، ويبقى للاخشيد حكم مصر خالصا •

ولما مات الخليفة الراضى فى سنة ٣٢٩ هجرية ، وخلفه أخوه الخليفة المتقى استطاع الاخشيد ضم الشام مرة أخرى الى ولايته واعترف الخليفة المتقى له بالولايتين •

استطاع الاخسيد أن يكون جيشا مصريا هائلا كبير العدد والعده لمواجهه أية احتمالات عسكرية •

كان عهد الاخشيد فى مصر يجنح الى الظلم فى أغلب فتراته رغم محاولته جمع قلوب المصريين نحوه ورسم سياسة عـادلة الا أن أسرة الماردائى التى كانت تتولى الشئون المالية والادارية كانوا يسـتحلون المصادره والسلب . ويعمدون الى أكل أموال الناس بالباطل ، ويدفعون الى الاخشيد الجزء اليسير •

فى عهده تم خلع الخليفة المتقى بالله وبويع الخليفة المستكفى بالله الذى أقر الاخشيد على أمرة مصر ما دام هناك مدد سنوى منتظم مـن مصر الى عاصمة الخلافة •

سقطت الشام مرة أخرى من يد الاخشيد الذى عجز عن هزيمـة سيف الله الحمدانى الذى اسـتولى على مدينـة حلب واكتفى بالصلح والمصاهرة معه اعتقادا منه أن وجود الحمدانيين فى الشام يمكن أن يكون سدا منيعا ضد البيزنطيين وحماية حدود مصر الشمالية •

فى عهد الاخشيد تم مبايعة لخيفة جديد وهو المطيع لله فى سنة ٣٣٤ هجرية ويختلف المؤرخون حول شخصية الاخشيد التى كانت تتأرجح بين الصلاح والتقوى من جهة والاندفاع والتهور من جهة أخرى • وبصفة عامة كان الاخشيد حاكما تابعا للخلافة العباسية ، ولم يضف على مصر أى نوع من الاستقلال سوى أنه كان يعين المساعدين على مصر ، ولـم نكن يده مطلقة ، بل كانت هناك أسر بعينها تستأثر بذلك •

مات الاخشيد محمد بن طفج فى أواخر سنة ٣٣٤ هجرية بعد فترة حكم تبلغ ١١ سنة تاركا حكم مصر لابنه أبو القاسم على أوتوجور •

٨٩ ـ أبو القاسم أوتوجور بن الاخشيد :

وكان وقت أن تولى الحكم لا يزيد عمرة عن ١٤ سنة ، فكان تحت

وصايه عبد حبشى الاصل يدعى كافور الذى كان من القوة بحيث استطاع أن يجمع خيوط السلطة فى يده تحت اسم الاستاذ كافور •

وقد أقر الخليفة سياسة كافور فى ادارة مصر مع ولاية اسمية لابن الاخشيد أبو القاسم •

بدأت الفتنة تتجدد فى عهد أبو القاسم ، وقام الحمدانيون فى الشام بتمرد جديد لم يستطع جيش مصر أن يتحدى لها تماما فتم الصلح بين حاكم مصر وسيف الدولة الحمدانى على أن يتولى الاخير مدينة لحب وبعض اجزاء الشام ، وان تخضع بقية الشام لحكم مصر •

ولكن سرعان ما اتسع نطاق الوصى كافور الاخشيدى فأزاح أبو القاسم عن السلطة ، واصبح كافور حاكما على مصر اسميا وفعليا فى سنة ٣٤١ هجرية •

(٩٠)

كافور الاخشيدى

يختلف المؤرخون حول مولد كافور عما اذا كان فى بلاد النوبة أو فى بلاد الحبشة ، والارجح أنه كان عبدا حبشيا فى حاشية الاخشيد الكبير ، استطاع أن يتقرب اليه وحاز ثقته فى تربية أولاده •

كان كافور شديد البأس والقوة واستطاع أن يطيح بكل المناوئين فى بلاط الحكم •

استمر كافور يحكم مصر حتى سنة ٣٥٥ هجرية ولعل أن هناك كثير من مفارقات الادب المصرى التى كانت تتفكه على ذلك الحاكم ، ومن بينها قصائد للشاعر الكبير المتنبى الذى عاصر حكم كافور ، وشهدت قصائده كثير من المدح والهجاء فى شخصية ذلك الحاكم •

كان كافور الاخشيدى سياسيا داهية فكان يعلن الطاعة والـولاء لبنى العباس فى دار الخلافة ، وفى نفس الوقت كان يهادن المعز لدين الله الفاطمى الذى كان قد ملك المغرب وشمال أفريقيا • فكان كافور يتمتع بالشرعية من الخليفة ويتمتع بالامان على حدود مصر الغربية لمهادنتـه للفاطميين • كذلك تجنب كافور البيت الاخشيدى ذاته ، فـكان أبنـاء الاخشيد محل رعايته ، بل أنه لم يتورع فى كثير من الاحيان أن يقيم على الامارة أحد أبناء الاخشيد وهو على بن الاخشيد ويحكم من خلاله •

شهدت فترة حكم كثير من القحط والغلاء وكثير من النهب والسلب والفتن الداخلية ، بل وتذكر كتب التاريخ أن سنة ٣٥٢ هجرية شـهدت زلزالا مروعا فى مدينة الفسطاط • ورغم كل ذلك كانت مسيرة الحكـم مستقرة واستطاع فى عهده أن يؤمن حدود مصر ، وأن يعلى من شـأن العلماء والادباء ، وكان كثيرا ما يعمل لقضاء حوائج الناس ، ويمنع على السفهاء وأهل الفساد تولى المناصب التى تثقل كاهل الافراد •

وكان كريما بالرعية فتذكر المراجع التاريخية أنه كان كثير الخلع والهبات على الناس •

وعلى ذلك شهدت فترة حكمه آمانا نسبيا • ومات كافور الاخشيدى فى سنة ٣٥٧ ، واجتمع رجال الدولة وولوا أحمد بن على الاخشيدى •

٩١ ــ أحمد بن على الاخشيد :

وهو حفيد الاخشيد الكبير ، وكان صغيرا فى السن ، وعمت الفوضى أرجاء مصر فى عهده القصير ، حتى أن بعض كبار وزرائه ، وعلى رأسـهم الوزير يعقوب بن كلس فر الى المغـرب ليحرض الفاطميين على دخـول مصر ، وهم الذين كانوا يتحرشون بها وما أن بلغتهم أنباء وفاة كافور حتى بدأ الاستعداد لدخول مصر •

وكان للفاطميين أعين ورجال فى مصر مهدوا لدخول الجيش الفاطمى ولم تلبث ولاية أحمد الاخشيد سوى بضعة أشهر حتى دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلى الذى لم يجد مقاومة تذكر ، بل وجـد استسلاما من رجال الدولة وترحابا من أهل مصر الذين ظنوا فى الفاطميين خيرا آملين فى حياة أفضل .

ودخل الفاطميون فى مصر سنة ٣٥٨ هجرية لتنطوى صفحة حكام بنى الاخشيد ، ولتبدأ صفحة جديدة فى حكم مصر تحت قيادة الفاطميين .

***

وكانت الدولة الفاطمية فى مصر

مصر والاستقلال الثانى

الدولة الفاطمية

مقدمة فى نشأة الدولة الفاطمية :

لعل أن نشأة دولة فاطمية فى المغرب ، ودولة أموية فى الاندلس ، مع وجود الدولة العباسية فى بغداد والشرق انما هو نتاج لصراع طويل بين فرق مختلفة وفئات متضاده أسفر عنها ذلك الصراع القديم بين بنى أمية وبنى هاشم قبل الرسالة المحمدية والذى تجدد بعد فتنة مقتل عثمان .

وأصبح العلويون فى جهة والامويون فى جهة أخرى ، وسرعانا ما تفتت هؤلاء الى فرق وهؤلاء الى فرق أخرى ، وتضادت الفرق ، ونشأت الدولة اثر الدولة ، وتعاقبت الحركات ، حتى بات القرن الرابع الهجرى يشهد ثلاث دول تحكم باسم الاسلام .

هذا الى جانب الحركات الفكرية والثورية التى تموج بها ولايات هذه الدول الثلاث فى هذا الصراع المرير نشأت الحركة الفاطمية فى الشام حتى ما لبثت أن تحولت الى دولة بدأت فى المغرب الادنى ثم اتسعت لتتصل الى المحيط الاطلسى غربا ويمتد نفوذها الى مصر التى أصبحت مركز للخلافة الفاطمية واتسعت منها الدولة الفاطمية شرقا حتى وصل الدعاء للخليفة الفاطمى الى الحجاز والحرمين الشرفين .

ولعل أن المراجع التاريخية لا تعطى رأيا قاطعا فى أصل الفاطميين ونسبهم ، فعلى حين عكف المؤرخون العباسيون على التشكيك فى نسب

الفاطميين نجد أن المراجع الفاطميه كانت أقرب الى التقبـه منهـا الى العلن فى نسبتها لهذا النسب (١) •

ومع ذلك فأن خيوط رفيعه يمكن أن نهتدى بها لمحاوله ربط جذور الحركة بنشأة الدولة • فالمتتبع لخطوات العلويين بعـد مقتـل الامام الحسينى رضى الله عنه انما يراعيه فكرة الامامية التى استمر عليها البيت العلوى فى سرية تامة وتكتم شديد خشية تأليب الدوله عليهم ، الى أن وصل الامر للامام جعفر الصادق أحد أحفاد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان أماما عالما فقيها فى الدين ينتسب الفكر الشيعى الحديث الى أرائه فى الكثير من القضايا •

ولكن ما لبث الامام جعفر الصادق أن توفاة الله حتى انقسم الشيعة من بعده الى فرق منها من جعل الامامة فى ابنه الكاظم وفى الائمة من بيته حتى الامام الثانى عشر الحسن العسكرى الذى يظن أهل الشيعة الاثنى عشرية أنه سيظهر يوما ما لاحقاق الحق فى رداء المهدى المنتظر ، وما زال لهذه الفرقة أنصار كثيرون وأقوياء فى انحاء الدول الاسلامية وتتزعمهم ايران الحديثة • كما انقسم الشيعة الى فرق أخرى ممن جعلت الامامة بعد جعفر الصادق فى ابنه اسماعيل ثم فى الائمة من بعده ، وهم الذين عرفوا فيما بعد بالطائفة الاسماعيلية ، وما زال دويهم ينتشر حتى الان وتتزعمهم أسرة أغا خان •

فى الطائفة الاسماعيليه القديمة نشأت الحركة الفاطمية فى بـلاد المشرق بزعامة عبيد الله المهدى الذى اعتمد على أحـد أقرانـه الشيعة الاقوياء وهو أبو عبد الله الشيعى وكان يمنيا وأمره بالتوجه الى المغرب ليزرع بذور الحركه وليجمع الانصار ، وبالفعل استطاع الاخير أن يصل الى بلاد المغرب ليجمع حوله كثير من العرب والبربر ، وسـنحت لـه الفرصة حينما أصاب حكام المغرب الضعف والانحـلال ، واسـتطاع أبو عبد الله أن يكون جيشا من أنصاره وأن ينشىء الدولة عـلى رقـعة بسيطة من الارض سرعان ما اتسعت أطرافها ، وهنـا أرسـل للامام

عبيد الله المهدى الذى لبى دعوته وأصبح هو الخليفة الاول لدولة الفاطميين فى المغرب سنة ٢٩٧ هجرية .

وتم الدعاء له على المنابر باعتباره أحد احفاد جعفر الصادق . واستمرت دولة الخلافة الفاطمية فى المغرب تتسع شرقا وغربا ، وهددت حدود مصر أكثر من مرة الى أن آل الامر للخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله الفاطمى الذى تولى الخلافة فى المغرب سنة ٣٤١ هجرية وما لبثت أن مرت ثمانى عشرة سنة حتى كانت مصر فى أمرته ثم اصبحت دار خلافته .

وبدأت مصر تدخل فى حكم المعز لدين الله الفاطمى عقب دخول القائد جوهر الصقلى الى مصر مسالما لم يلق أية مقاومة من أهلها ، وتم الدعاء للخليفة المعز على منابرها وسارت مصر مركزا لدار الخلافة الفاطمى ، ولتبدأ حقبة جديدة من الحكم وعلى رأسها الحاكم الجديد المعز لدين الله أبو تميم معد .

كانت أحوال مصر قد ساءت بعد موت كافور الاخشيدى وكثر الاضطرابات وانتشرت أعمال السلب والنهب ، وضاقت أرزاق الناس ، وعلى هذا عندما دخل القائد جوهر الصقلى مصر كانت قد سبقته بعض المؤن والاقوات ، حيث كان أهل مصر يلتمسون منقذا من غير البيت الاخشيدى .

فما أن وصل جوهر الى الاسكندرية حتى دخلها دون قتال وكتب للمصريين وعدا يكفل نشر الامن وتأمين طريق الحج ومعالجة الاحوال الاقتصادية ، وتدبير أمور المواريث .

ورغم أن القائد جوهر كان يحمل لواء الفكر الشيعى الاسماعيلى الا أنه فى عهد الامان لاهل الاسكندرية أقر حرية المذهب ، وأقر حرية العقيدة للاقليات غير المسلمة .

ورضى الناس بالقائد جوهر نائبا للخليفة الفاطمى فى مصر .

واستمر جوهر فى دخول مصر حتى وصل الى الفسطاط وخضعت له بقايا جيوب البيت الاخشيدى فى سنة ٣٥٨ هجرية ؛ وبدأ أولى محاولاته فى ادارة مصر اعادة اعمارها .

ونظر القائد جوهر فى الرمال المترامية بين الفسطاط وعين شمس فأسس فيها العاصمة الجديدة القاهرة .

واختلفت الروايات حول التسمية بالقاهرة الا أن أرجحها هو أن المعز لدين الله اختار لها هذا الاسم لتكون مركزا لقهر أعدائها بينما أن جوهر كان قد سماها المنصورية نسبة الى الخليفة المنصور والد المعز لدين الله ، فلما جاء المعز الى مصر أطلق لعيها أسم القاهرة . ففى سنة ٣٥٩ هجرية بنيت القاهرة وأحيطت بالاسوار والحصون . وبنى جوهر بالقاهرة القصر الكبير ثم بدأ فى عمارة الجامع الازهر (١) وظل جوهر يحكم مصر باسم الخليفة ويراعى فى حكمه ما سبق أن وعد به أهل مصر من توخى العدل والنزاهة وظل فى البناء والاعمار وتكوين الجيش حتى تم له اخضاع الشام والحجاز ولما اكتمل تأسيس القاهرة ، وتم بناء القصر والجامع أرسل القائد جوهر الى امامه الخليفة المعز يستدعيه الى مصر .

ووصل الخليفة المعز سنة ٣٦٢ هجرية الى الاسكندرية فبايعة أهلها بعد خطبة رائعة ، وفى الخامس من رمضان من نفس السنة دخل الى القاهرة تم خر ساجدا لله وبعد تناول الافطار ذهب الى الجامع الازهر لتبدأ دفة الادارة والحكم بعد صلاة العشاء من نفس هذا اليوم .

(٩٢)

المعز لدين الله الفاطمى

بدأ المعز فى سنة ٣٦٣ حكم مصر من الجامع الازهر ثم بعد ذلك كان له ديوان الحكم الخاص به .

كان المسجد الكبير شأنه شأن كل المساجد التى أسسها الحكام السابقين مقرا للحكم ومجلسا للقضاه ومعهدا لنشر العلم ومنبرا لاذاعة الاوامر الحكومية .

بذل الحاكم الجديد المعز لدين الله الفاطمى جهدا كبيرا لتنظيم شئون مصر الداخلية وعمل على نشر الامن فى انحائها ونهضت التجارة الداخلية والخارجية ، ونشجع الاداب والعلوم والفنون . امتاز المعز شأنه شأن كثير من حكام الفاطميين فيما بعد بقوة الشخصية وجمع السلطة فى يده ، وأن كان له معاونين أكفاء مثل يعقوب بن كلس الوزير المصرى الا أنه كان يدقق فى تفاصيل شئون رعيته ، وأكد استقلال مصر الاقتصادى الكامل ، فلم تكن هناك أية امدادات للدولة العباسية ، بل كانت الدولة الفاطمية تقف موقف الخصم لدولة بنى العباس وتم اصدار الدينار المصرى نسبة الى المعز ليحل محل العملات العباسية . وشهدت مصر فى عهده القصير استقرارا ورواجا اقتصاديا هائلا وزادت ايرادات الدولة زيادة ملحوظة وأنشىء الاسطول المصرى مرة آخرى بصناعة مصرية خالصة على أحسن نسق ونظام .

كان المعز لدين الله واسع الاطلاع والثقافة ، يكتب بعدة لغات ومن بينها العربية والبربرية والاغريقية . وكان محبا للعدالة ، فلم يذق أهل مصر فى عهده أى تعسف أو نهب أو مصادرة بدون وجه حق . وكان بعيدا عن التعصب فأقر غير المسلمين على عقائدهم .

ومات المعز لدين الله فى سنة ٣٦٥ هجريه . ٩٧٦ ميلاديه بعد فترة مدتها ثلاث سنوات فى حكم مصر ، وكان قبلها خليفة على الفاطميين فى المغرب لمدة ٣٠ سنة فكانت فترة حكمة للدولة الفاطميه مجتمعة ثلاثا وعشرون سنة ، تولى بعده العزيز بالله نزار أبو المنصور •

٩٣ ـ العزيز بالله نزار أبو المنصور :

تولى العزيز بالله حكم مصر سنة ٣٦٥ هجريه عقب وفاه أبيه الخليفة المعز ، واذا كان تركيز الاب المؤسس كان ينصب على تنظيم الدولة فى الداخل واقامة الموازين والمعايير بالقسط لادارة لبلاد . فأن ابنه العزيز قد سار على الدرب مع التوسع الخارجى ، وذلك اعتمادا على الجيش والاسطول الذى أسسه أبوه المعز ، فامتدت حدود الدولة الفاطمية من مصر حتى المحيط الاطلسى غربا ، والى الخليج العربى شرقا ، وانضم تحت لوائها الشام فى الشمال وبلاد النوبة فى الجنوب وبعض السودان ، بل أن تهديد دولة العزيز أرق الدولة البيزنطية فعملت على التودد اليه فأجابهم حاكم مصر بكبرياء وأنفه ، واشترط عليهم أنه لكى يأمنوا تهديده أن لا يبقى فى ذمتهم أسير مسلم ، وأن يؤسس جامع فى القسطنطينية ليجمع المسلمن المتناثرين هناك ، وأن يخطب له فى الجامع باعتباره خليفة للمسلمن •

ويمكن أن نتصور سلطان هذا الحاكم القوى الذى خطب له فى عاصمة البيزانطيين •

وهنا أصبحت الدولة الفاطمية بعاصمتها القاهرة أهم الدول الاسلامية فى عهدها حيث انكمشت دولة العباسيين ، وأقتصرت دولة بنى أمية على الاندلس • وعرف العزيز أن القوة هى أساس السلطان ، فأسس جيشا قويا واستكمل له الاعداد الجيد •

امتاز عهد العزيز بنمو ثروة مصر وعاش سكانها فى رفاهه وبزخ لم يعهد به من قبل ، وعرفت مصر اعمارا جديدا وقصورا وميادين ،

وعرفت عادات وتقاليد ما زال بعضها يشهد حتى اليوم باستقرار هذه الفترة وازدهارها .

كان العزيز عادلا الى أقصى الحدود مع أهل الذمة بل أنه استوزر من المسيحين واليهود . بعضهم قد دخل الاسلام وبعضهم ظل على دينه .

ويرجع المؤرخون أن سبب هذا التسامح هو زواج العزيز من زوجة مسيحية من أصل روسى دخلت الاسلام ، واستمر أخويها على دينهم فعينهما العزيز بطريركين على كل من أقباط مصر والقدس . وأذن لهم ببناء كنيسة خارج مدينة الفسطاط .

ولم يذكر عن العزيز أنه ظلم أحدا من أهل الذمة .

وقد شهدت فترة حكم العزيز وفاة القائد الكبير جوهر الصقلى منشىء مدينة القاهرة والفاتح الفاطمى لمصر ، وكان قد أصبح شيخا مسنا وكان محاطا بتكريم البلاط الفاطمى ومحلا لترحيب المصريين أينما ذهب .

استمر العزيز على حكم مصر والاطراف المترامية من الشام الى المغرب الى النوبة مدة ٢١ سنة حيث مات فى سنة ٣٦٦ هجرية الموافقة ٩٩٦ ميلادية ، ولم يؤخذ عليه فى عهده سوى اعتماده فى اختيار قواد جيشه على العنصر التركى والعنصر السودانى ، واستكثر من الاتراك بدلا من الاعتماد على القوات المغربية ، وكان ذلك حرصا منه على عدم افتتان قبائل المغاربة . ورغم أن ما لهذه السياسة من مزايا هامة فى احداث الاستقرار الداخلى الا أن أثارها قد ظهرت فى المدى البعيد فقد أدى ذلك بعد عدة قرون أن يكون لهؤلاء الاتراك والمماليك دولة حاكمة .

مات العزيز فى سنة ٣٨٦ هجرية تاركا الحكم لابنه الحاكم بأمر الله أبو على المنصور .

٩٤ ـ الحاكم بأمر الله أبو على المنصور :

تولى الحكم وهو ما زال صبيا دون الثانية عشرة من عمره . وتبدلت الامور فحيث كان أبوه وجده يقيمان موازين العدل والقسط ويرتكنان الى العقل نجد ان شخصية الحاكم بأمر الله شخصيه غريبة عن اسلافه العظام ، بل وعن سائر البشر العقلاء •

فقد كانت شخصية الحاكم شخصية متناقضة فكانت سياساته تتأرجح بين أقصى درجات الظلم والتعسف وأقصى درجات العدل والتراحم • فنجده لعدة سنوات يهين أهل الذمه من الاقباط واليهود ولسنوات أخرى يصدر المراسم التى تبنى لهم الكنائس والمعابد بل وتتخذ منهم كبار وزرائه • نجده لعدة سنوات يصادر حريه المسلمين أتباع المذهب السنى ويحرم عليهم صلواتهم ويعلن على المنابر سب الصحابة رضى الله عنهم ، ولسنوات أخرى يأمر بتعمير مساجدهم وتعيين الرواتب والاقوات لعلمائهم ويمد مكتباتهم بدخائر الكتب •

تجده يحرم لسنوات طويلة على الناس كافه أكل بعض ما احل الله مثل « الملوخية والجرجير والكروم » ثم يعدل عن ذلك ••• وهكذا اتسم عهده بالمناقضات الغريبة •

يدافع بعض الدروز عن شخصية الحاكم بأمر الله ويرون أن لكل قرار حكمته •

وفى سيرة حياته نجده مرة شجاعا مقداما محبا للعلم والعلماء . وفى أحيان أخرى نجده جبانا مترددا منتقما من العلماء والفقراء • كان يجمع بين السخاء والبخل ، وله فى حياته عدد من القرارات العريبة التى أثقلت كاهل المصريين وجعلتهم يطلقون النكات والشائعات عن هذه الشخصية العجيبة •

ومع ذلك فقد جمع الحاكم جوانب ادارة الدوله والجيش والخراج فى يده • وكان فى أول أيام حكمه استاده الامير برجوان الذى كان والده العزيز قد عهد اليه بتربيته ، وكان هذا الامير وصيا على الحاكم فى أول عهده ، فاستطاع قواد بعض القبائل المغربية القوية وهى قبائل كتامة الأطاحة ببرجوان حتى يبقى للكتاميين نفوذهم فى مصر وهم الدين صاحب أجدادهم جوهر الصقلى فى فتح مصر . وبالفعل عين الحاكم وزيرا كتاميا يدعى ابن عمار . فجمع برجوان أقرانه الاتراك وأطاح بابن عمار فما كان من الحاكم الا ان عمد الى قتل برجوان ، واستوزر وزيرا أخرا يلقى قبولا من كافة الفئات وهو حسين بن جوهر الصقلى الذى كان يتصرف بالعقل والرويه ويخفف على أهل مصر الكثير من تعسف الحاكم •

وكما سبق الدكر فأن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت خصما لخلافتين واحدة عباسية فى بغداد تسيطر عليها الفتن ، والاخرى أموية فى الاندلس، عمل العباسيون على التشكيك فى نسب الفاطميين . واستصدروا البيانات المؤكده لذلك ، وعملوا على فضح الحاكم بأمر الله ووصفت تصرفاته بالالحاد •

اما الامويون فى الاندلس فقد بدأوا بالعمل العسكرى لتهديد حدود مصر الغربية ، وبالفعل وصل الى حدود مصر جيش أندلسى بقياده أبو ركوه معلنا أنه جاء ليخلص مصر من فضائح الحاكم • واستطاع خلال مسيرته تجميع الكثير من الانصار • ولكنه هزم على يد جيش الحاكم بأمر الله ، وانتهى الامر باعدام أبى ركوه وتثبت دعائم الحاكم وتأمين حدود مصر الغربية •

هناك حدثان فكريان شهدتهما تلك الفترة أولهما :

حدث ايجابى رائع حيث أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة ، وكانت بمثابة جامعة مصرية عصرية تحوى امهات الكتب . ويقوم الفقهاء فيها بتدريس العلوم الدينية وغير الدينية مثل الرياضيات والفلك والطب •

وخصص الحاكم لهذه الدار ميزانية هائلة ، وأصبحت دار الحكمة بداية جديدة لاستكمال مسيرة ازدهار العلوم والادب فى مصر .

ثانيهما — حدث سلبى خطير وتمثل فى قدوم ثلاثة أفراد الى مصر من فارس ، وكانوا من غلاة الشيعة وأحدثوا فتنة فكرية كبيرة . وهم حمزة بن على ، حسن بن حيدر ، ومحمد بن اسماعيل الدرزى استطاع الثلاثة اقناع الحاكم بالالوهية وانه يتقمص روح الاله . ويختص ببعض صفاته ، فهو عادل لان الله عادل ، وهو جبار لان الله جبار . ونادى هؤلاء الثلاثة جهرا بهذه الدعوة الغريبة ، ولكن المصريين والمسلمين من كافة القبائل الذين عاشوا فى مصر وكعادتهم عند أى خطر يسىء عقيدة التوحيد الازلية ، فقامت ثورة عارمة ضد هؤلاء الثلاثة انتهت بقتل اثنين منهم . وهرب الدرزى الى الشام لتنشأ بعد ذلك طائفة الدروز (١) المعروفة فى لبنان وسوريا . والتى تأخذ بعض تعاليمها من رسائل هؤلاء الثلاثة ؛ بل وان بعض معتقداتهم ترى أن الحاكم بأمر الله الذى اختفى (فى رأيهم أنه لم يقتل) انما سيعود فى شكل جديد .

انتهت فتنة المناداه بالوهيه الحاكم ، وعاد الحاكم بأمر الله الى ادارة شئونه بنفس الاسلوب الذى عهد عليه حتى نهايته . فمن المؤكد المثبوت أنه ذهب فى احدى الليالى على حماره الى جبل المقطم لممارسة هوايته فى رصد النجوم ، وأنه عثر بعد ذلك على الحمار مقتولا ولم يعثر عليه .

وهنا تتعدد الروايات حول اختفاء الحاكم وكيفية ذلك وهل قتل فعلا وعلى يد من ؟ ومن الذى دبر ذلك .

هناك ما ينسب ذلك الى أخته ست الملك التى تصف الكتب التاريخية بأنها سيدة فاضلة جليلة لم يعجبها تصرفات الحاكم فسعت الى قتله وانقاذ مصر من تناقضة ، ومن الروايات ما يذهب الى أن بعض جند الاتراك كانوا وراء ذلك الحادث انتقاما لمقتل قائدهم برجوان .

وأيا كان الامر فقد انتهت فترة الحاكم بأمر الله فى سنه ٤١١ هجرية الموافقه ١٠٢٠ ميلادية • وكانت فترة سوداء فى أغلبها وبيضاء فى بعض أجزائها كما تدل على ذلك شخصية الحاكم وكانت فترة حكمه ٢١ سنة •

استمر الامر بلا شك بعد اختفاء الحاكم موضع تحقيق وانتظار وذلك لبضعة شهور ، كانت هذه الشهور محلا للتآمر فى البلاط الفاطمى كان الحاكم قبل مقتله قد خرج على المألوف فى البيت الفاطمى ولم يعين ابنه وليا للعهد وانما عين أحد أقربائه ، ولكن الاميرة ست الملك أخت الحاكم استطاعت الحفاظ على التقاليد الاسماعيلية الفاطمية وأعدت ابن الحاكم لخلافة ابية فى سنة ٤١١ هجرية ليحكم مصر خليفة جديد وهو الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على •

٩٥ ـ الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على :

تولى الظاهر حكم مصر وكان صبيا دون السادسة عشرة من عمره ، فترك كثيرا من أمور القيادة الى عمته الاميرة ست الملك التى كان يحترمها ويجلها •

واستمر سلطان الظاهر على مصر وعلى الاطراف المحيطه بها من الفرات حتى المحيط الاطلسى وضربت العمله باسمه •

وأصدر حاكم مصر أوامره بتأمين أهل الذمة ونشر الحريات الدينية للمذاهب المختلفة ، وتبرا من دعوة الاولوهية التى عمت فتنتها مصر فى عهد ابيه • بل اتهم كل من يغالى فى شخص على بن أبى طالب ورفعه الى درجة أعلى من انسان امام عادل فكان ذلك يعد فى ذهنه كفرا •

لم تلبث الاميرة الجليلة ان ماتت فى سنة ٤١٥ هجرية • فاستعان حاكم مصر الظاهر لاعزاز دين الله بوزراء لهم مكانتهم بين المصريين ومن مختلف القبائل •

حدثت فى عهده مجاعة فى مصر فقد قصر النيل عن منسوبه الطبيعى • وكشأن كل مجاعه يعمل بعض الجند على نهب ما بقى من أقوات الناس فأمر الظاهر أهل مصر بالتصدى لكل من تسول له نفسه بالسلب أو النهب واستصدر قرارات من شأنها المحافظة على ثروة البلاد وتوزيع الارزاق المتاحة بالعدل ، واعلان التقشف فى البلاط الفاطمى نفسه حتى تمر سنوات القحط • فمنع ذبح اناث البقر محافظة على الثروة الحيوانية ، وقام بتوزيع الاقوات المحدودة بالعدل حتى لا يستأثر الاقوياء ببعضها •

فى عهد الظاهر أباح كل ما حرمه أبوه من الطيبات ، وحدد الهدنه مع الروم على أن يعمل على اعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس التى تهدمت فى عهد أبيه بشرط أن يعمل الروم على اعادة فتح جامع القسطنطينية ليؤم المسلمين فى بلاد الروم •

حكم الظاهر مدة تصل الى ستة عشرة سنة فكان أفضل من أبيه فى اقرار حريات العباد وفى اقرار العدل وتجاوز الازمة • ومات فى سنة ٤٢٧ هجرية مستخلفا ابنه المستنصر بالله •

٩٦ — المستنصر بالله بن الظاهر :

تولى حكم مصر فى سنة ٤٢٧ هجرية واستمر يحكمها لمدة ستين سنة ، وهى أطول فترة تولاها حاكم على مصر فى عهد الاسلام •

تميزت هذه الفترة الطويلة من حكم الخليفة المستنصر بأنها فى قسمها الاول بلغت مصر والدولة الفاطمية أوج ازدهارها وقوتها وعظمتها وبدأت فى القسم الثانى من هذا الحكم تخبو وتضعف وبدأ الانحلال والوهن يدب فى أوصال الدولة الفاطمية ككل •

**

فى القسم الاول من حكم الخليفة المستنصر تمت المواجهة بين الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية ، وانتهى الامر بانتصار جيش

الفاطميين ودخل بغداد وعلى رأسه أحد القواد المنشقين على العباسيين واسمه أبا الحارث البساسيرى ، وكان ذلك فى سنة ٤٥٠ هجرية حيث تمت الخطبه على منابر بغداد لحاكم مصر والدولة الفاطمية الخليفة المستنصر . وهرب الخليفه العباسى لمدة سنة ثم عاد مرة أخرى الى بغداد بعد مقتل البساسيرى .

فى هذه الفترة الزاهرة من حكم الخليفة المستنصر يصف أحد رحالة الفرس ناصر خسرو رحلته الى مصر بأن بلاد مصر تفوق جميع بلاد الشرق والغرب رخاء وغنى ونظاما .

ووصف الحركة التجارية فى مصر بأن الرواج هى الحالة الطبيعية المألوفة لها .

كانت مصر متقدمة تجاريا وصناعيا وزراعيا حيث كانت صناعة السفن والزجاج والنسيج من الصناعات العالمية التى تفردت بها مصر وكان رقعتها الخضراء تحفل بكل الثمار والخيرات ، وكان جيش مصر القوى رادعا لاية مؤامرات يمكن أن تحاك على الحدود الشرقية أو الغربية .

وهكذا بلغت مصر أوج الرخاء والاستقرار والعظمة .

ولكن لم يستمر الحال طويلا فقد بدأت عوامل الضعف تنخر فى كيان الدولة فى النصف الثانى من حكم الخليفة المستنصر . فمن الناحية العسكرية استطاع جيش الخليفة العباسى أن يجمع شتاته ويثب الى بغداد ، وانقطعت الخطبة للخليفة الفاطمى فى عاصمة العباسيين .

وفى ناحية المغرب أدى النزاع بين الوزير الاول للمستنصر ونائب الخليفة على المغرب الى انضمام الاخير الى العباسيين وانقطعت الخطبة للفاطميين بالمغرب .

وبدأ الصراع والنزاع فى أطراف الدولة الى أن جاءت سنة ٤٥٧ هجرية وأحكمت الطبيعة قبضتها وحدثت مجاعة خطيرة استمرت سبع سنوات عجاف ، تدهورت فيها أحوال مصر واختلت فيها الاحوال الاقتصادية وزاد الغلاء وعم الوباء • فكان من نتيجة ذلك عدم استطاعة مصر ارسال الغلال والمؤن الى الحجاز فانقطعت الخطبة للخليفة الفاطمى فى الحجاز •

وانفصلت صقلية عن الحكم الفاطمى سنة ٤٦٣ هجرية بعد أكثر من قرنين ، وبدأت الحركات الانفصالية تشتد فى أرجاء الدولة ، واضطربت الامور اضطرابا شديدا •

استدعى المستنصر أحد قادته ذوى الكفاءة قائد عكا بدر الجمالى وحضر الى القاهرة وأصبح الوزير الاول للخليفة ، وآلت اليه مقاليد الامور وبدأ عهد سيطرة الوزراء •

قام بدر الجمالى بصفته الوزير المفوض من الخليفة بتدبير أمور مصر • وكان بدر هذا رجلا عسكريا استطاع أن يعيد بعض الاستقرار فى صفوف الجند ، أن يهدىء من الفتن الداخلية •

ويعرف هذا العصر الذى شهد سلطة الوزراء بعصر الوزراء العظام (١) •

استطاع بدر الجمالى اعادة تكوين الجيش وتسليحه ، وأضاف الى عناصر الجيش عنصرا جديدا وهو العنصر الارمنى ، فقد كان بدر الجمالى أرمنيا مسلما ، هذا الى جانب المغاربة والاتراك والسودانيين •

ولعل أن كثرة عناصر الجيش وتعدد انتماءاتهم كانت سببا لشيوع الفتن نظرا للتنازع والتناخر بين عنصر وآخر •

عمل بدر الجمالى على اعادة الامن والنظام فى الربوع المتبقية من الدولة الفاطمية ، وكان قد انتهت سنوات المجاعة وعاد بعض الرخاء

الى الريف . واستطاعت مصر أن تتجاوز المجاعه الكبرى بفضل القيادة الحازمة التى أظهرها بدر الجمالى فى ادارة البلاد .

كان بدر الجمالى محبا للاعمار فبدأ باعمار المساجد وأنشأ سورا للقاهرة ، وأنشأ عددا من المبانى والميادين فى القاهرة والاسكندرية منها مسجد العطارين القائم حتى اليوم . واستطاع الجمالى أن يعيد سلطان الخليفة الى ثغور الشام بعد أن كان السلاحقة قد استولوا عليها فى فترة المحنـــة .

وشهدت فترة وزراة الجمالى استقرارا نسبيا رغم المحن الشديدة التى أصابت مصر . واستمر بدر الجمالى وزيرا أولا وأميرا للجيوش فىعهد الخليفة المستنصر لمدة ٢١ سنة حتى وافته المنية فى ســنة ٤٨٧ هجرية ، وبايع أبنه أبا القاسم وزيرا أولا لنفس الخليفـــة المستنصر ، وقبل الخليفة تعيين ابن بدر الجمالى وزيرا له ، وأطلق عليه لقب الافضل شاهنشاه وفوض اليه كافة السلطات التى كان قد سبق تفويضها لابيـــه شريطة أن يستن بسنته ويهتدى بحكمته فى الادارة والقيادة .

وبعد ان مرت ستون سنة من الرواج والكساد ، والقوة والضعف ، والرخاء والشده مات الخليفة المستنصر .

فكانت أطول فترة حكمها حاكم مسلم لمصر . شهد فيه العظمـــة والضعف ، شهد الرخاء والمجاعة . وشهد نظام الحكم أسلوبا جديـــدا يصير فيه للخليفة الحكم الاسمى ، ويصير للوزير الاول الحكم الفعلى . والذى استمر بعد ذلك نظام لبقية حكام الفاطميين .

مات الخليفة المستنصر فى أول أيام عيد الفطر فى سنة ٤٨٧ هجرية وبويع بالخلافة بعده ابنه الخليفة المستعلى بالله .

٩٧ ـ المستعلى بالله أبو القاسم أحمد ابن المستنصر :

كانت خلافة المستعلى بالله بداية لفتنة كبيرة فى الدولة الفاطمية ، وفى الفكر الفاطمى ذاته . فقد كان من أصول الحكم فى هذه الدولة تولى الابن الاكبر للخليفة الراحل . ولكن حدث غير ذلك عقب وفاة المستنصر ، فقد كان ابنه الاكبر نزار على غير وفاق مع الوزير الاول الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى الذى رأى أن يبايع المستعلى بالله أحمد خليفة خرقا للقاعدة وخلافا لوصية المستنصر الخليفة السابق نفسه .
وهنا قامت الفتنه .

لم يوافق نزار صاحب الحق الشرعى لهذا الاجراء وسافر الى الاسكندرية مع اتباعه واشياعه من القواد . وقامت المعارك بين الطائفتين، وانقسم البيت الاسماعيلى الحاكم الى فئتين :

فئة اسماعيلية نزارية نسبة الى نزار بن المستنصر .

وفئة اسماعيلية مستعلية نسبة الى المستعلى بالله .

وتنفر الطائفة النزارية الى الشام لتؤسس ملكا محدودا يناوىء الدولة الفاطمية فى مصر . فكان هذا الانقسام الاول داخل صفوف الفاطميين أنفسهم فى عهد المستعلى بالله .

استمر عهد المستعلى بالله فى مصر ومعه وزيره الافضل شاهنشاه، واديرت مصر بنجاح على نفس النسق الذى أسسه بدر الجمالى .

ولكن تغير المحيط الدولى للمناطق المتاخمة لمصر ، فقد بدأت الحروب الصليبية ، وبدأت الحملات الصليبية ترد الى المنطقة ، وكانت وجهتهم بيت المقدس الذى ظل فى أيدى المسلمين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وشعر المسيحيون بالاطمئنان والتسامح الدينى طوال هذه الازمة ، فيما عدا بعض الفترات المتقطعة مثل فترة عهد الحاكم بأمر الله الذى تهدم بيت المقدس فى عهده وكان سببا فى أن يوجه مسيحيو الغرب انظارهم مرة أخرى الى الشرق .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على مدينة أنطاكيه وواصلوا زحفهم حتى مدينة القدس ، وسقطت القدس فى أيدى الصليبيين سنة ٤٩٢ هجرية ، ١٠٩٩ ميلادية ، وحدثت مجازر خطيرة للمسلمين فيها ، ولم يستطع جيش السلاجقة ولا جيش مصر بقيادة الافضل شاهنشاه أن يتصدوا لهؤلاء الصليبيين ، واستطاع الصليبيون بناء ملك جديد من الشرق العربى على سواحل الشام وكانت عاصمتهم القدس •

شهدت فترة حكم المستعلى بالله اضطراب المحيط الدولى من حول مصر • السلاجقة والصليبيون والعباسيون كل يناطح الاخر ، ومصر الفاطمية تكتنفها الفتن ، بل استشرت الفتنة الى البيت الحاكم نفسه •

استمر حكم المستعلى بالله نحو سبع سنوات • حين مات فى ٤٩٥ هجرية ، وتولى من بعده ابنه الخليفة الامر باحكام الله منصور أبو على

٩٨ ــ الآمر بأحكام الله منصور أبو على :

تولى الحكم فى سنة ٤٩٥ هجرية وكان غلاما لم يتعد الست سنوات من معره الامر الذى دعم نفود الوزير الاول شاهنشاه •

كان الصليبيون فى هذه الفترة ينتشرون على سواحل الشام ، سقطت عكا وطرابلس ، وحاول الصليبيون الاغارة على مصر ، ولم يستطع جيش مصر وحدة مقاومة الصليبين الذين دخلوا بالفعل مدينة العريش ، لولا أن الوزير الافضل شاهنشاه عقد معهم صلحا كان مطلب المصريين فقط هو تأمين طريق الحجاج •

كانت الدولة الفاطمية على غير عهدها من القوة والبأس ، كان الجيش المتعدد العناصر تلعب الفتنة فيه • وكان البيت الحاكم يشتعل بالمؤامرات • وكانت أعين القواد على الوزارة الاولى التى يحتلها لافضل•

عندما بلغ حاكم مصر أشده حاول أن يتخلص من نفوذ وزيره الافضل حتى تكون له سطوته ، فلم يستطع لذلك سبيلا ، وهنا تآمر

لقتل هذا الوزير الذى نعمت مصر فى أيامه بالاستقرار والامن كما نعمت فى عهد أبيه بدر الجمالى ، وقتل الوزير الافضل شاهنشاه ، وعين الحاكم الامر باحكام وزيرا جديدا وهو المامون البطائجى الذى آساء تدبير البلاد ، وساع فى عهدة الظلم والتعسف ، واستكثر من أفراد آسرته فى المناصب العليا على آقاليم مصر •

ولما ثار المصريون ضده آمر الخليفه الآمر بقتله فى ٥١٩ هجرية •

وبموته استطاع حاكم مصر الخليفة الامر أن ينفرد بحكم مصر بلا وصاية وأن يعيش فيها الفساد •

واستمر عهد ذلك الحاكم يتميز بالكآبة والاضطراب الى أن مات سنة ٥٢٤ هجرية على يد طائفة من الاسماعيليين النزاريين •

ومات الآمر مخلفا وراءه فتنة جديدة • حيث بويع بالخلافة ابن عمه الحافظ أبو الميمون عبد المجيد على حكم مصر والدولة الفاطمية على خلاف تقاليد الفاطميين بتولية الابن الاكبر للحاكم الراحل •

٩٩ ـ الحافظ لدين الله أبو الميمون :

وهو حفيد الخليفة المستنصر بالله ، وتولى الحكم بعد مقتل ابن عمه الآمر رغم ما تبقى عليه قواعد الخلافة الاسماعيلية ، ولما كان ابن الخليفة السابق واسمه الطيب ما زال فى المهد صبيا ؛ حيث كان قد ولد قبل وفاة أبيه ببضعة شهور فلقد بايع قادة الجيش الحافظ عبد المجيد وعينوا وزيرا من آل الجمالى وهو أبو على ابن الافضل ليحيط بشئون الادارة شأنه شأن أبية وجده •

ولكن ما لبث هذا الوزير أن يعتلى السلطة حتى حدثت له نفسه سجن الحاكم الخليفة الحافظ والاستئثار بالسلطة ، الى أن ثارت الطائفة الاسماعيليه وقتلت ذلك الوزير الطامع ، وتولى الوزارة الخليفة الحافظ بنفسه • ولكن استمرت الفتنة حيث انقسمت الشيعة الاسماعيلية انقساما ثانيا بعضها يؤيد الحافظ ، والبعض الاخر يؤيد الخليفة الطيب الطفل •

وباشر الخليفة الحافظ السلطة بنفسه وكانت الايـام عصيبة حيث كان أولاده يطمع كل منهم فى ولاية العهـد ، واختلفت عناصر الجيش فى مبايعة هذا أو ذاك •

استعمل الحافظ وزراء عديدين من المسلمين والآرمن والنصارى ، وكان لضعف شخصيته يدخل فى معارك طويلة مع وزرائه ، وضجر الناس بالحكم الفاطمى فى عهد الحافظ لتبدل الوزراء والاجـراءات وانكمشت التجارة وكسدت الاحوال الاقتصادية •

وكان المحيط الدولى حول مصر مستمرا فى غليانه لمحاولات الصليبين الاستيلاء على دمشق • وشاءت الاقدار أن ينشأ فى الشام وفى حلب بعيدا عن مصر قادة عرب هيأتهم العناية الالهيه لمقاومة الخطر الصليبى ، حيث كان نور الدين زنكى يقاوم ويجدد جيش الشـام ، ويستعدى العرب والمسلمين لمواجهة الحملة الترسة • بينما كانت مصر لا تتجاوز فتنـه الا وتشتعل فيها فتنة أخرى من جراء حكم الحافظ الذى مات سنة ٥٤٤ هجرية بعد حكم أسود قاتم زاد فيـه سـفك الـدماء ونهب الامـوال والارزاق ، وخلف وراءه حاكما جديدا وهو أبنه الظافر بأمر الله اسماعيل أبو منصور •

١٠٠ — الظافر بأمر الله اسماعيل أبو المنصور :

وكان شابا صغيرا تصارع فى عهده الوزراء لتولى السلطة التنفيذية التفويضية كعادة وزراء هذا العصر ، واستقر الامر مدة أربع سـنوات لوزير يدعى ابن سلار الذى كان سنى المذهب ثم قتل على يد منافسين له فى الوزارة • واستمر العهد الكئيب فى عهد الظافر كما كان فى عهـد والده الحافظ ، واستمر الصليبيون يعثوا فى الشام فسادا لولا المقاومة المستمرة من حاكم حلب نور الدين محمود ، بل وتجرأ الصليبيون الاسطو انبحرى على مصر •

ولم تمر خمس سنوات على تولى الظافر حكم مصر حتى قتل فى سنة ٥٤٩ هجرية بأيد مجهولة يرى بعض المؤرخون انها كانت من وزرائه

ويرى البعض أنها كانت من البيت الفاطمى ذاته •

واستطاع أحد الوزراء وهو نصر بن عباس أن ينادى بالطفل عيسى ابن الحاكم الظافر ، ونادى به خليفة لمسلمين وكان عمره لا يتجاوز خمس سنوات ، ولقب باسم الفائز بنصر الله •

١٠١ ــ الفائز بنصر الله عيسى :

تولى الحكم صغيرا فى سنة ٥٤٩ هجرية تحت وصاية الوزير عباس وابنه نصر ، وسرعان ما اكتشف البيت الفاطمى أن الوزير وابنه المسئولان مسئولية مباشرة عن مقتل الخليفة السابق ، فثارت الجماهير الغاضبة على الوزير الاول وابنه واضطر للهرب الى الشام ، فنشأت المكاتبات بين البيت الفاطمى والصليبيين فى الشام تطلب منهم قتل الوزير وابنه ، وحدث هذا بالفعل • ولعل ذلك يروى ما كانت عليه مصر من الفتن فى أواخر العهد الفاطمى •

وتولى وزير آخر من أصل أرمنى لقب بالملك الصالح طلائع بن زريك الذى أخذ يتعقب قتلة الخليفة الظافر ، وبذل جهدا كبيرا لاقرار الأمن داخل ربوع مصر •

واستطاع الوزير فى سنة ٥٥٣ هجرية أن يوقف زحف الصليبيين على غزة عند حدود مصر الشرقية ، وانتصر بالفعل على مناورات صليبية قرب الحدود •

واستمر الصالح طلائع فى ادارة شئون مصر واحياء بعض العلوم والادب ، وبدأ فى جمع شتات الجيش ، وعمل على الاعمار فبنى مسجدا ما زال قائما حتى الان فى منطقة الحلمية يسمى باسمه • وكان متحمسا لاسترداد بيت المقدس من الصليبيين الا أنه لم تمهله حياته لتحقيق ذلك المأرب • ومات الحاكم الاسمى الخليفة الفائز بعد ست سنوات من الحكم دون أن يكون له دراية بأى شىء فقد تولى وهو ابن خمس سنوات ومات

وهو ابن أحدى عشرة سنة . وكان الوزير الاول الصالح طلائع هو الذى يدير شئون البلاد . وهو الذى عين الخليفة الجديد العاضد لدين الله أبو محمد بن يوسف .

١٠٢ ـ العاضد لدين الله أبو محمد :

وتولى الخلافة الفاطمية اسميا أيضا سنة ٥٥٥ هجريه الموافقة ١١٦١ ميلادية ، وكان شابا صغيرا تزوج بابنه الوزير الاول الصالح طلائع . ولا يعلم الا الله اذا كان هذا الزواج قد تم طمعا من الوزير فى الاستئثار بالحكم أو أنه كان يعمل لصالح البيت الفاطمى . ولكن مات الوزير الاول طلائع على أثر مؤامره دبرت له ، وتولى ابنه مجد الاسلام الوزارة من بعده منتهجا سيره أبية فى العمل على الاستئثار بالسلطة فتحركت الفتن فى بلاط الحكم ، وتحالف الخليفة العاضد مع أحد الحكام المعينين فى الصعيد ويدعى شاور للتخلص من الوزير الاول الذى اتسعت نفوذه .

وتولى شاور الوزارة بعده فأساء معاملة الرعية وتدبير الادارة وقامت الفتنة التى انتهت بطرد شاور من الوزارة واستيلاء قائد آخر أرمنى يدعى درغام على مكان الوزير الاول .

استطاع شاور الهروب الى الشام ، وكانت الشام قد أصبحت بين قوتين أحدهما اسلامية بقيادة نور الدين محمود بن زنكى ، والاخرى صليبيه تحتل السواحل وتسيطر على بيت المقدس .

لجأ شاور فى أول الامر الى نور الدين يسأله المساعدة فى عودته الى ادارة مصر على أن يكون مؤيدا له فى نضاله ضد الصليبيين .

رحب نور الدين بفكرة شاور تمهيدا لتوحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبى (١) . وأرسل معه جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين الايوبى ، وانتصر الجيش الشامى على جيش درغام ، وأعيد شاور الى منصب الوزارة .

ورحب الخليفة العاضد بكتاب نور الدين اليه لتوحيد جبهه المسلمين ضد الصليبيين ، وأصبح هناك تفاهما بين حاكم مصر العاضد وأسد الدين شيركوه • خشى شاور من هذا التفاهم فطلب من شيركوه الانسحاب ، ولكن شيركوه وابن أخيه صلاح الدين استطاعا مع جيشهما أن يعسكروا فى مدينة بلبيس انتظارا لاوامر السلطان نور الدين محمود ، فما كان من شاور الا الخيانة ومراسلة الصليبيين محذرا لهم من خطر اتفاق حاكمى مصر والشام عليهم •

رحب الصليبيون بالتعاون مع الوزير الخائن شاور وأرسلوا جيشا الى مصر فى سنة ٥٥٩ هجرية لمحاصرة جيش أسد الدين فى بلبيس ، وبعد عدة جولات استطاع أسد الدين شيركوه أن يسحق القوة الصليبية فى مصر ، وقتل شاور ، وأصبح أسد الدين الوزير الاول فى خلافة العاضد ولما مات أصبح صلاح الدين هو الوزير الاول على مصر فى ظل آخر حكام الفاطميين •

كان صلاح الدين الايوبى فى موقف الانتماء للقوة الاسلامية الصاعدة ، فكان يجمع بين منصبين مختلفين وتحت لواءين لدولتين ، منصب قائد الجيوش للسلطان نور الدين محمود حاكم الشام المسلم السنى ، ومنصب الوزير الاول للخليفة الفاطمى العاضد حاكم مصر المسلم الشيعى •

درس صلاح الدين أحوال مصر ، ودرس كيفية التعامل مع رجال القصر والقواد • وأراد التمهل فى القضاء على الدولة الفاطمية حتى يعيد للاسلام هيبته تحت لواء واحد ، ويعود بالاسلام الى الاصل ونبذ البدع التى أدخلها الفاطميون فى مسيرته • كان صلاح الدين يعرف ميل أهل مصر الى البيت العلوى الهاشمى ، ويعلم أن البيت الفاطمى كان يوهم الناس بانتمائه الى هذا البيت الشريف • ولم يرد أن يضرب ضربه واحده على الفاطميين فيثير أهل مصر ضده ، فانتظر صلاح الدين فترة بدأ فيها بالدعوة الى الاسلام الاصل وأنشأ المدارس السنية التى تحارب

الفكر الشيعى وتقرأ على الناس مذهب الامام الشافعى والمذهب المالكى •

واستكثر من أهله وأتباعه فى مصر • ثم خطا خطوة أخرى فبدأ يعين القضاه من غير أهل الشيعة ، ولما أصبح الرأى العام المصرى مهيئا لقبول نبذ البدع الفاطمية أعلن صلاح الدين قطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمى سنة ٥٦٧ هجرية ودعا للخليفة العباسى المستضىء بنور الله •

كان الخليفة العاضد مريضا فما أن وصلته هذه الانباء حتى اشتد مرضه ومات فى سنة ٥٦٧ هجرية بعد حكم دام له نحو ١٢ سنة وكان بذلك أخر خلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر لمدة ٢٠٩ سنة فقد دخلها جوهر يحمل لواء المعز فى سنة ٣٥٨ هجرية واستطاع صلاح الدين أن يزيح الحاكم الاخير فى سنة ٥٦٧ هجرية ، لتنطوى صفحة الفاطميين بعد فترة شهدت أولها قمة الازدهار والرخاء وشهدت أخرها الفتن والتدهور وانتقاص أطراف الدولة •

وانتهت الدولة الفاطمية •

لعله يمكن أن نورد بعض الاسباب التى أودت بحياة الدولة الفاطمية بعد ازدهار ورواج دام أكثر من مائة عام •

ـ كان أول الاسباب انتقاص أطرافها فى المغرب والشام والحجاز أما لاستئثار الولاه لهذه المناطق ، أو لضعف المدد المالى الذى كانت تقدمه مصر لهذه الولايات ، فقد انقطعت الحجاز عن مصر بعد سنوات المجاعه التى عجز فيها الخليفة أن يقدم المؤن السنوية لها •

وكانت الشام تموج بالتيارات الفكرية التى أدت الى وجود الحكام المستقلين عن مصر ، كذلك انتشرت فى شمال أفريقيا النزعات القبيلية الذى رفضت أن يكون حكمها لغير أهلها •

ـ وكان ثانى هذه الاسباب استئثار الوزراء بالسلطة مع وجود

خليفة اسمى نعم كان بعض الوزراء مثل بدر الجمالى وابنه يحسنان التدبير والاعمار واقامة العدل ، ولكن ما بال القبائل والعناصر الاخرى التى تريد الوزراء والرئاسة مما أشعل الفتن بين القواد .

— وثالث هذه الاسباب يرجع الى الانقسام داخل البيت الفاطمى ذاته فمنهم من كان يشايع الابن الاول للحاكم ، ومنهم من كان يشايع الابن الاسهل فى الانقياد ، وفى حالات ثالثة كانت تتم المبايعة لقريب قوى يطمع فى السلطة . فكانت أعين الاقارب على الخلافة ، وأعين القواد على الوزارة والوصاية .

— كذلك أدى تدهور الاحوال الاقتصاديه فى آخريات سنوات الفاطمية الى عدم أطمئنان أهل مصر للوزراء والحكام وخاصه وقد انتشر سفك الدماء فى الفترة الاخيرة .

— ويعد أهم الاسباب وأكثرها مباشرة هو الخطر الصليبى الجديد الذى أصبح يهدد الدول الاسلامية الثلاثة الفاطمية فى مصر والاموية فى الاندلس والعباسية فى بغداد . واستطاع السلطان نور الدين والوزير صلاح الدين فى سبيل جمع شتات الدولة الاسلامية الارتكان الى مصر والعمل على خلع الفاطميين عنها وتنقية الجو الاسلامى فيها لتكون بعد ذلك هى العمود الفقرى الذين يرتكن اليه بنو أيوب لمواجهة الخطر الصليبى .

***

وكانت الدولــة الأيوبيــة

(١٠٣) الناصر صلاح الدين

صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب

انتهت صفحه حكم الفاطميين فى مصر . وبدأ صلاح الدزين حكم مصر من رأس السلطه فى سنة ٥٦٧ هـ الموافقة ١١٧١ م .

ولد صلاح الدين فى سـنة ١١٣٨ ميلاديـه عن أب كردى هو نجم الدين أيوب ، وكان الأب حاكما لقلعة تكريت ، وكانت الظروف العسكرية والسياسية بالمنطقة فى أيام مولد صلاح الدين قد أدت الى تحالف نجـم الدين والد صلاح الدين مع عماد الدين زنـكى حاكم الشـام . واستطاع نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه أن يعملا فى المناصب العليـا فى الدولـة الزنكيـة فى الشـام . وما أن تولى السلطان نور الدين محمود حكم حلب بعد وفاة أبيه عماد الدين حتى كان للاخوين أيوب وشيركوه ذروة القـوة والنفوذ . فى هـذا الجو نشأ صلاح الدين نشأة عسكريـة ، وتلقى ثقافة واسـعة فى البلاط الزنكى ، وصاحب عمه الى مصر لتوحيد الجبهة الاسلامية ضد الخطر الصليبى واستطاعا بالفعل التفاهم مع الخليفة العاضد فى هـذا الأمر الى أن أصبح الناصر صلاح الدين الوزير الأول ، وبسقوط الخلافـة الفاطميـة أصبح هو السلطان الفعلى لمصر .

بدأ صلاح الدين حكمه فى مصر ، وكان الدعاء على المنابر للخليفة العباسى المستضىء بالله وللسلطان نور الدين فى الشام ، وكان يرى فى ذلك أنه لا صدام بين حكام المسلمين ما دام هناك خطرا يتربص بهم جميعا ، ورغم الشكل الاسمى للخلافة العباسية فقد بدأ صلاح الدين حركة الاستقلال بمصر والتمكين لنفسه من حكمها وتأمينها عسكريـا وسياسيا .

وعمل على تشييد القلعة ، وأنشأ سور القاهـرة وبدأ فى تكوين الجيش من المصريين وغير المصريين الذين ينتمون الى نفس الراية .

استكثر صلاح الدين فى مصر من أهلـه وأتباعه فعين والـده نجم الدين أيوب على بيت المـال ، وعين بهاء الدين قراقـوش على الاعمار ، وعين اخوته وأعمامه ولاة على الأقاليم بمواثيق عدل صارمة .

فى أول عهده حاول أهل الفتنـة الايقـاع بينه وبين السلطان نور الدين محمود ، وايهام هـذا السلطان الجليـل بأن صلاح الدين يسعى الى الاستقلال عنه . غير أن صلاح الدين كتب الى نور الدين يذكره بالولاء للجبهة الاسلامية ضد الخطر الصليبى . وأن هذا الولاء أهم من الفتن الداخليـة ، وبالفعل وجه صلاح الدين جهده الى تأمين مصر داخليـا وخارجيا وقضى على فتنة فاطمية بقيادة عمارة اليمنى ، وقضى على تمرد فى النوبة وأرسل أخيه الأفضل توران شاه لفتـح اليمن .

كان المحيط الدولى حول مصر محل نظر صلاح الدين دائـما ، فعلى اثر وفاة السلطان نور الدين محمود ظهر الصراع فى البيت الزنكى ذلك أن نور الدين كان له طفـل صغير وكان محل أطماع الحاقدين . واستنجد أهل دمشق بصلاح الدين وتدخل لحمايـة مصـالح البيت النورى ممثلا فى شخص الطفل اسماعيل بن نور الدين ، وبالفعل دخل دمشق وحمص وحماة ، ولكنـه لم يستطع أن يغزو حلب حيث كان الحلبيون قد استنجدوا بجيش من الموصل لايقاف صلاح الدين ، ولكنه انتصر على هـذا الجيش ودخل الى حلب ١١٧٦ م ، وأقر الملك الصغير اسماعيل نور الدين سلطانا على حلب واعترف الجميع بصلاح الدين واسماعيل ملكا مستقبلا على مصر وبقية الشام .

استمر صلاح الدين فى حكم مصر ، وتشييد تحصيناتها ، وترميم الاسطول البحرى ، وتأسيس المدارس المختلفة ، وكانت أعينه على بيت المقدس وكان كل فكره تأمين المسلمين من الخطر الصليبى الرابض بثغور الشام .

ومع ذلك فانه لاعداد الجبهة الداخليــة اضطر صلاح الدين الى مهادنة الصليبيين لمدة سنتين فى عقد الهدنة التى تضمنت عدم الاعتداء ولكن كان الصف الاسلامى لم يكتمل بعد فى جبهة موحدة بل أنه ما أن توفى سلطان حلب اسماعيل بن نور الدين وأمير الموصل سيف الدين غازى حتى لجــأ بعض حكام المسلمين الى مراسلـــة الصليبيين لتأمين وجودهم فى الحكم خشية تدخل صلاح الدين فكان ذلك فى حد ذاتــه سببا الى أن يدخل صلاح الدين حربا مع الأمراء المسلمين الخونـــة واستطاع أن يضم الموصل وحلب الى أطراف سلطانه •

وأضحت دولة صلاح الدين فى الشرق أعظم الدول الاسلاميــة وأصبح اسمه موضع الهيبة والخطر عند كل أعداء المنطقة • ولم يبق أمام صلاح الدين الا الصليبيين •

كان الصليبيون رغم الهدنة بينهم وبين صلاح الدين يتربصـون بالدولة الاسلامية ، واستطاع الأمير الصليبى لحصن الكرك فى ٥٨٣ هـ الموافقة لسنة ١١٨٧ م أن يضرب قافلة تجارية سلمية كانت تمــر من مصر الى الشـــام بمحاذاة حصن الكرك واستولى على خيرات هـــذه القافلة ، وقتل من قتل من أفرادها ، وأسر الآخرين • وهنا لم يجـــد صلاح الدين بدا من أن يتأهب لمواجهة الخطر الصليبى برمته . فكانت موقعة حطين •

قام صلاح الدين بتعبئة الجيش الاسلامى من مصر والشـــام وبلاد الفرات ، وبدأ زحفه من دمشق مستعدا للقتال ، وبدأ الســـير نحو طبرية • واستولى على طبرية واتجه جنوبا حيث استدرج أعدائه عند قرية حطين وهى فى منتصف الطريق بين طبرية وصفورية • وأسفر ذلك الاصطدام عن هزيمة فادحة للصليبيين • ثـــم وجه صلاح الدين هجمات خاطفة نحو الثغور التى يحتلها الصليبيون ودخل مدينة عكا وأقر الجزيـــة على أهلها ثم دخل الى بيت المقدس بعد حصار قصير ،

ثم سقطت معظم المدن الصليبية فى يد قوات صلاح الدين فى سنة ٥٨٥ هـ الموافقة ١١٨٩ م ، ولم يبق فى حيازة الصليبيين سوى امارتى انطاكية وطرابلس ومدينة صور .

ودخل صلاح الدين بيت المقدس ، ولم يكن عند فتحه مخربا او ظالما وانما أمن الناس أهل المدينة وأقر لهم حق البقاء مع جزيه مقررة ، ودخل مع جيشه الى الأقصى يتلون آيات الكتاب الكريم مكبرين ومهللين ، وعامل رجال الدين المسيحى معاملة سمحة بروح عظيمة ، وقام بالعفو عن كثير من الأسرى حتى يعودوا لعائلاتهم بعد عهد تسفوى بعدم التآمر على دولة الاسلام .

واستقر صلاح الدين فى الشام يتابع أحوال البلاد التى فتحها ، ويتابع تطبيق العدل فى أهلها . الى أن جاءت حملة صليبية أخرى . كان سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين قد أحدث دويا هائلا فى أوروبا ، وبدأت أوروبا تستعد من جديد لضرب صلاح الدين .

وتحالف فريدريك ملك ألمانيا ، وفيليب ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا على الدخول الى الشرق .

بدأ الهجوم الصليبى الجديد من مدينة صور تم تحركت نحو عكا وحاصرتها فى سنة ١١٨٩ هـ ، ووصل المدد الأوروبى حتى سقطت عكا فى أيدى الصليبيين . وبقى ريتشارد قلب الأسد الملك الانجليزى فى الشام بهدف استعادة القدس واستطاع بالفعل أن يستولى على مدينة يافا . ولكن صلاح الدين انتصر عليه وتشتت جيش ريتشارد الذى اضطر أخيرا الى عقد صلح مع صلاح الدين اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية بين عكا ويافا للصليبيين مع اقرار حقوق المسلمين فيهما ، وأن يظل بيت المقدس للمسلمين على أن يؤذن لقوافل الحج المسيحية بزيارة كنيسة القيامة فى القدس .

وكان النصر الذى حققه صلاح الدين فى الشام وتثبيت أقدام المسلمين فى مواجهة الصليبيين هو أقصى ما توج به صلاح الدين حكمه وجعله من القادة الخالدين الذين تركوا قدوة الاقدام والشجاعة والعدل فى تاريخ الدولة الاسلامية •

مات صلاح الدين فى ٥٨٩ هـ الموافقة ١١٩٣ م بعد حيـاة حافلة بتقوى الله والاقدام على القتـال فى سبيل الله ، واقامة العدل أينما حل • وكانت وصيته لابنـه بأن يرعى الله فى كل صغيرة وكبيرة ، وأن يرعى أمانة الحكم •

وهكذا طويت صفحة البطل الذى بتوحيده لمصر والشام استطاع ان يحقق للمنطقة الكثير من النصر •

استخلف صلاح الدين على حكم مصر ابنه العزيز عثمان •

١٠٤ ـ العزيز عثمان بن صلاح الدين :

كان العزيز عثمان نائبا عن أبيه فى حياته على مصر فلمـا مات صلاح الدين ، بايـع أهل مصر وقواد جندها وقضاتها العزيز عثمان خلفا لأبيه فى سنة ٥٨٩ هـ ، ١١٩٣ م •

وهنا بدأ الخلاف فى البيت الأيوبى ، فالأفضل بن صلاح الدين فى دمشق يرى أنه الحـاكم الفعلى ، والعزيز عثمان فى مصر يرى أنه الأحق بالخلافة • وكان على عمهما العادل أن يصلح بينهما •

حضر الملك العادل شقيق صلاح الدين الى مصر وزيرا لابن أخيه الملك العزيز • واستطاع العزيز والعادل الاستيلاء على دمشق وضمها الى سلطان مصر • واستطاع الملـك العـادل أن يتصـدى للحملات الصليبية الخفيفة على بعض مدن الشـام • واستقرت مصر يحكمها العزيز عثمان ، واستقر العادل نائبا عنه فى دمشق حتى سـنة ٥٩٥ هـ

الموافقة ١١٩٩ ميلادية ، مات الملك العزيز عثمان مستخلفا ابنه المنصور محمد وكان طفلا صغيرا .

١٠٥ ــ المنصور محمد بن العزيز عثمان :

كانت توليته اسمية حيث لم يكن يبلغ عشر سنوات وكان ذلك تنفيذا لأمر مجلس الأعيان والامراء خشية فتنة جديده فى البيت الأيوبى . وراسل أعيان مصر عمه الأفضل بن صلاح الدين لاداره شئون المملكة . ولكن سرعان ما عاد الملك العادل شقيق صلاح الدين الى مصر ليقنع الأمراء والقضاة بأن الحكم ليس ارثا وانما الأمر يقتضى توليته هو ملكا على مصر استنادا الى كفاءته وعلمه بمجريات الأحداث حول مصر . وبالفعل أقر أعيان مصر العادل حاكما على مصر فى نفس السنة .

١٠٦ ــ الملك العادل سيف الدين أبى بكر :

وهو ابن الأمير نجم الدين أيوب وشقيق الناصر صلاح الدين . تولى حكم مصر فى سنة ٥٩٥ هـ ، وقد حكم مصر والشام حتى ان وثائق هذه الفترة تؤكد أنه كان يقضى الشتاء كله بمصر ، والصيف كله بالشام .

فى عهده اضطربت الأحوال الاقتصادية فى مصر نتيجة لتوقف النيل عن الزيادة ، وحدثت مجاعة أدت الى الغلاء الشديد حيث بلغ سعر القمح مائة دينار لكل أردب . واستمر القحط ثلاث سنوات كان الملك العادل يعمل فيها على عدم تردى الأحوال الاقتصادية .

وفى أثناء حكم الملك العادل استمرت النزاعات العسكرية مع المتمردين من داخل البيت الأيوبى ، ومع الأمراء الذين سيطروا على أجزاء من الشام ، وأدت هذه الاضطرابات الى تشجيع الصليبيين على شن الهجمات على مصر نتيجة لضعف الجبهة الأيوبية فى مصر

والشام مما دفع الملك العادل الى مهادنه الصليبيين وتوقيع الصلح معهم والنزول لهم عن بعض الثغور فى سواحل الشام •

كان الملك العادل ينهج نهج أخيه صلاح الدين فى العمل على توحيد الجبهة الاسلامية ، وفى عهده انتهى العمل فى بنــاء القلعة التى كان قد بدأ فى انشائها صلاح الدين ، وأصبحت القلعة مقرا الحكم •

استطاع الملك العادل أن يوقف زحف الصليبيين على مصر عن طريق تحصين الحدود الشمالية باعتبارها المدخل الوحيد لايه هجمات صليبية محتملة • واستقر الأمن الخارجى لمصر حتى مات الملك العادل عن خمسة وسبعين سنة فى سنة ٦١٥ هجرية ليخلفه فى الحكم ابنه الكامل ناصر الدين •

١٠٧ ــ الملك الكامل ناصر الدين بن الملك العادل :

بويع بالحكم بعد موت أبيه العــادل فى ســنة ٦١٥ هـ الموافقة ١٢١٨ م كان الملك الكامل ناصر الدين محمد شابا قويا ، وكان يمارس شئون الحكم فى عهــد أبيه فكان متمرســا على الادارة والسياســة والحرب •

بدأ عهد الملك الكامل بمواجهة حملة صليبية شرســة استهدفت مصر بصفة أساسية ، وكانت مبررات الزعامات الصليبية فى أوروبا أنه لا سبيل من محاربة القوى الاسلامية الا بالاستيلاء على مصر ، هذا فضلا عن أن مصر هى الطريق الى البحر الأحمر الأمر الذى يربط بين أوروبا ومراكز التجارة فى الشرق الأقصى • واســتطاع الصليبيون بالفعل الاستيلاء على دمياط وظل أهل دمياط يقاومون الحصار الصليبى أكثر من سنة ، ولم يستطع الملــك الكامل مد أهل دميــاط بامدادات عسكرية قوية ، وتقدم الصليبيون الى داخل البلاد • واستنجد الملك الكامل باخوته فى الشــام فى محاولة منه لاســتعادة اخلاص البيت الأيوبى بجبهة موحدة ، وبالفعل حضرت جيوش اسلامية من الشام ،

واتخذ الملك الكامل موقعا له قرب مدينـــة طلخا حتى تقف ضد زحف الصليبيين الى البلاد وفى أثناء ذلك عرض المـــك الكامل الصلح على الصليبيين ، ولكنهم دأبوا فى المعاندة •

انتهز الملك الكامل فرصة امتلاء النيـــل بماء الفيضان السنوى وامر بفتح السدود والجسور فغرقت مساحات شاسعة من الأراضى واستطاع ذلك أن يعزل القوات الصليبية المتقدمة عن قاعدتها العسكرية بدمياط ، وألحق بهم هزيمة فادحة ، وما لبثت أن حلت سنة ٦١٨ هـ ، ١٢٢٢ م حتى رضخ الصليبيون للصلح ورضوا بالجلاء التـــام عن الأراضى المصرية فى غير قيد أو شرط •

وانسحب الصليبيون من دمياط وسط التهليل والتكبير ؛ واستطاع الملك الكامل الاستحواز على ثقة أهل مصر • ولكن ما زالت الرغبة فى استرداد بيت المقدس تراود الزعامات الصليبية فى أوروبا التى اتخذت من الملك فريدريك الثانى ملك ألمـــانيا ممثلا لها • وبدأ التهديد الصليبى مرة أخرى للملك الكامل ودارت بين الملك الألمـــانى وبينه مراسلات سلمية بمقتضاها جاء الملك فريدريك الى فلسطين لمقابلة الملك الكامل ، وكان ذلك فى ٦٢٦ هـ ، سنة ١٢٢٩ م • وكان الرجلان على مســـتوى معين من الود ، ولكل منطقه وفهمه للأمور ، فالملك الكامل يخشى على مصر والشام والجبهة الاسلاميـــة من التصـــدع من كثرة الحرب ، والامبراطور الألمـــانى يرغب فى حقن الدمـــاء والعمل السلمى أملا فى أن تكون بلاد المسلمين سوقا ومعبرا لتجارة أوروبا •

وكانت المعاهـــدة الفريدة فى تاريـــخ العصور الوسطى والتى بمقتضاهـــا يسلم بيت المقدس وبيت لحم والناصرة االى الامبراطور ملك الدولة الصليبية مع استثناء منطقة المسجد الأقصى وبعض المدن الفلسطينية لتبقى فى أيدى المســـلمين تحت حـــكم الأيوبيين • نصت المعاهدة على تبادل الأسرى مع تعهد الامبراطور الألمـــانى بعدم امداد

الامارات الصليبية فى أنطاكية وطرابلس بأيـــة امدادات عسكريـــة ، وكانت مدة هـــذه المعاهدة عشر سنوات •

لقيت المعاهدة نقدا مريرا فى أوساط المسلمين فى مصر والشام واعتبرها البعض استسلاما من الملك الكامل ، وأدى ذلك الى التنازع والتخاصم بين حكام المسلمين ، وعظم الأمر على المسلمين عند تسليم مدينة القدس •

وكانت مبررات الملك الكامل أن هناك خطرا مغوليـــا يتسع مع الوقت ولابد من مواجهته منفردا بدلا من أن يتحد المغول والصليبيون ، فآثر هو التصالح مع الصليبيين حتى لا تتعرض دولة الاســـلام لأعداء أكثر •

ومع ذلك فانه لا يبقى لكاتب هـــذه الكلمات الا أن يأسف على تسليم مدينة القدس التى استردها صلاح الدين بعد كفاح طويل ، والتى استمر المسلمون يدافعون عنها بحياتهم ودمائهم فترات طويلة •

واذا كان الملك فريدريك قد صادف هوى لدى الملك الكامل وعرف عنده الاخلاص بالعهد فما بال ملوك أوروبا بعده ، وهـــذا بالفعـــل ما حدث •

بدأ الملك الكامل فى تحصين البلاد ضد خطر المغول الذين كانوا قد اســـتولوا على بلاد فـــارس بعد هزيمة الســـلطان جـــلال الدين ابن خوارزم شاه • وجعل ابنه الصالح أيوب ملكا لعى المناطق الشمالية فى الشـــام ليكون فى مواجهة التتـــار •

عمرت مصر فى عهد الملك الكامل ، فكاد اداريا ناجحا ، وطهر الطرق التى تربط بين الأقاليم ، والتى تربط بين مصر والحجاز • ومات فى دمشق فى سنة ٦٣٥ هـ الموافقة ســـنة ١٢٣٧ م ، بعد نحو عشرين سنة من حكم مصر والشام ليخلفه ابنه الملك العادل سيف الدين •

١٠٨ ــ الملك العادل سيف الدين بن الملك الكامل :

كان سيف الدين نائبا على مصر وقت وفاة أبيه فلما جاءت الأخبار بموت الملك الكامل اتفق رأى الأمراء على توليته السلطنة ولقب بالملك العادل على اسم جده • كان أخوه الأكبر نجم الدين الصالح أيوب نائبا عن أبيه فى المناطق الشمالية بالشام ومكلفا بالاستعداد لمواجهة التتار • فلما مات الملك الكامل اشتعلت الفتنة مرة أخرى فى البيت الأيوبى ، فنجم الدين هو الابن الأكبر ودخل الى القاهرة . وجرت بين أنصاره وأنصار أخيه العادل الصغير حروبا متقطعة انتهت بخلع الملك العادل الصغير وتولى نجم الدين الأخ الأكبر الذى تلقب بالملك الصالح •

١٠٩ ــ الملك الصالح نجم الدين أيوب :

تولى نجم الدين أيوب حكم مصر فى سنة ٦٣٧ هـ الموافقة لسنة ١٢٣٩ م • كانت توليته فى جو ملبد بالغيوم • فالبيت الأيوبى على غير وفاق ، وجند الأيوبيين يتنازعون أمرهم بينهم ، فما كان من الملك الصالح الا الاستكثار من المماليك الذين سبق أسرهم من الأطراف الآسيوية وممن انضموا اليه من الخوارزميين ، ليكونوا جنده وحماة السلطنة من بعده ، وأعد الملك الصالح قلعة كبيرة بالقرب من مقياس الروضة ، وأسكن فيها هؤلاء المماليك ، ولذلك أطلق عليهم اسم المماليك البحرية • كانت الروضة فى عهد الملك الصالح مخزنا استراتيجيا للغلال والأسلحة خشية محاصرة الصليبيين فى أى وقت •

بدأ الملك الصالح أيوب بتشييد المساجد والمدارس ، وعمل فى اعمار مصر • وكادت الأمور أن تستقر فى مصر ، لولا رفض أمراء الأيوبيين فى الشام لحكمه على مصر • واستطاع بذكاء شديد أن يجمع حوله بقايا الخوارزميين الذين سقطت دولتهم أمام التتار واستجلب منهم الكثير وأعد منهم جيشا كبيرا ، وما لبث أن علم بأن بعض أمراء الشام قد تحالفوا مع الصليبيين حتى سار هذا الجيش المؤلف من

المدربين والمماليك الخوارزميين والأتراك لمقاومه هؤلاء الأمراء واستطاع هذا الجيش أن يبلى بلاء حسنا فى سنة ٦٤٣ هـ الموافقه سنه ١٢٤٤ م . ودخل جيش الملك الصالح الى مدينة القدس مرة ثانية استردها المسلمون مره ثانيه بعد عدة سنوات من توقيع المعاهدة التى تمت بين الملك الكامل والامبراطور فريدريك . وتزينت القاهرة وباقى المدن الاسلامية وهلل الناس وكبر المسلمون لهذا النصر الكبير الذى على اثره احتل التوازن السياسى وأفلت الزمام من الدوائر الصليبيه فى أوروبا والشرق . اجتمعت الأوساط الصليبية فى مدينة ليون فى فرنسا . وتألف جيش كبير من الصليبيين بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا وبدأت حملة صليبية جديدة هدفها المعلن تخليص القدس . وتعمل استراتيجيا على الاستيلاء على مصر أساسا لتحقيق هذا الهدف الى الأبد . بلغت الأنباء الى مصر التى كان قد عاد اليها الملك الصالح نجم الدين أيوب . وعلم الملك الأيوبى أن مصر هى هدف الحملة الجديدة . فجمع جيوشه بالقرب من دمياط ، وحصن دمياط بمختلف الأسلحة والأقوات ، وجعل مركز قيادته فى مدينة المنصورة ، وعين على الجيش قائدا قويا وهو فخر الدين بن حمويه .

بدأت الحملة الصليبية بالاستيلاء على دمياط ، وكانت أياما عصيبة حيث مرض الملك الصالح مرضا خطيرا ، فاضطر الأمير فخر الدين الى الانسحاب من ميدان المعركة ليشهد استقرار الأمور فيما بعد وفاة الملك . كان الملك الصالح ما زال على قيد الحياة ، وفوجىء بانسحاب القيادات من المعركة ، واعتبر ذلك خيانة للموقف حيث كان الصليبيون قد دخلوا دمياط دون قتال أو حصار يذكر فى سنة ٦٤٧ هـ الموافقة ١٢٤٩ م . وبدأوا فى الزحف جنوبا لمقاتلة الجيوش المصرية جنوب دمياط .

فى هذه الآونة مات الملك الصالح أيوب ، واستطاعت زوجته شجرة الدر أن تخفى نبأ وفاته عن قادة الجيش ، وتكتمت على الخبر وعهدت الى فخر الدين بقيادة الجيش من جديد ، وفى نفس الوقت

أرسلت الى الابن الأكبر للملك الصالح فى الشام وهو الأمير توران ساه تستدعيه ليجلس على عرش أبيه ويدير المعركة .

واستطاعت شجرة الدر بمساعدة الأمير حسام الدين لاجين والأمير فارس الدين أقطاى ادارة حكم مصر فى هذه الأيام العصيبة من حياة مصر وتناوش الجيشان الأيوبى والصليبى بالقرب من المنصورة ومات القائد فخر الدين قتيلا فى احدى المعارك ، وتولى القيادة ركن الدين بيبرس أحد قواد المماليك فأبلى بلاء حسنا ، واستطاع أن يوقف الزحف الصليبى على مدينة المنصورة حتى حضر من الشام الملك الجديد توران شاه ليتسلم زمام الأمور .

١١٠ - الملك مغيث الدين توران شاه :

وهو الابن الأكبر للملك الصالح أيوب حضر الى مصر فى مستهل شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ بعد وفاة أبيه بنحو أربعة أشهر . وأحضر معه عدد كبير من أتباعه من الجنود . وتمت مبايعته بالسلطنه فى مدينة المنصورة ثم تسلم زمام الموقف العسكرى ، ووزع الجيوش على مختلف الجبهات بحيث استطاع أن يقطع مقدمة الجيش الصليبى عن قاعدته العسكرية فى دمياط ، ثم عن طريق الاسطول النهرى استطاع أن يعزل الجيش الصليبى عن قاعدة الامداد والمؤن ، فبدأ الصليبيون بالتقهقر الى الخلف تحت وابل من النيران الكثيفة والمطاردة العنيفة الأمر الذى أسقط فى يد الملك الفرنسى وطلب الصلح ، الا أن استمرار مطاردة الجيش له جعله يعلن الاستسلام ووقع الملك وحاشيته وعدد كبير من قواده فى الأسر . وانتهت الموقعة بحمل الملك لويس مكبلا فى السلاسل الى المنصورة وسط بشائر وفرحة النصر التى ما لبثت أن انتشرت فى أنحاء مصر كلها .

ثم تمت المفاوضات بين الجانب الأيوبى والجانب الصليبى واستقرت على ضرورة اجلاء الصليبيين جلاءا تاما عن دمياط ودفع

التعويضات والفديه اللازمة حتى يتم الافراج عن الملك وأعوانه من الأسرى •

كان الفضل فى النصر أساسا يعود الى عدد من العوامل مجتمعة أهمها المقاومة العنيفة التى أبداها الأهالى من كافة فئات الشعب المصرى واستعمال كافة الأسلحة المتاحة وكل ما استطاعت أن تصل اليه أيديهم لرد الصليبيين على أعقابهم • وثانى هذه العوامل يعود الى الحكمة الشديدة التى أبدتها شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب فى تثبيت دعائم الدولة بعد موت الملك الصالح ، وسرعة تنظيم الجيش وتعبئة كافة المماليك وقوادهم فى مهارة فائقة • ولا يمكن اهمال فضل المهارة الشخصية للملك الجديد توران شاه الذى أدار المعركة بشكل حازم . وعمل على تأجيل كل ما كان يطفو على سطح البيت الأيوبى من خلافات حتى تنتهى المعركة •

وبالفعل ما أن ظهرت علامات النصر حتى يبدأ توران شاه فى التفرغ للاستيلاء الفعلى على الحكم ، فشجرة الدر زوجة أبيه فى مركز قوى يتبعها قواد من المماليك يتبعهم آلاف من جند المماليك المهرة الذين يطمعون فى جنى ثمار النصر الذى لعبوا دورا كبيرا فى احرازه •

وبدأت المؤامرات من الجانبين ، انتهت بتغلب جند المماليك على توران شاه ومطاردته حتى مات غرقا بعد عدة شهور ، لتبقى السلطنة فى حيرة من الأمر عمن يشغل منصب السلطان الجديد وكان الجو مهيئا لتولى شجرة الدر تحت الحاح كبار قواد المماليك هذا المنصب الخطير فى سنة ٦٤٨ هجرية •

(١١١) شجرة الدر المستعصمة أم خليل

وهى فى الأصل كانت زوجة للملك الصالح نجم الدين أيوب تذكر المصادر التاريخية أنها كانت احدى الأسيرات التركيات فى المعارك التى كانت تنشب بين الحامية التى كان يقودها الصالح أيوب فى شمال

السلام . وتذهب مصادر أخرى أنها خوارزمية لجأت الى الصالح أيوب بعد سقوط دولة جلال الخوارزمى فى فارس .

وكانت شجرة الدر قد أنجبت ولدا اسمه خليل بن الصالح أيوب ولكنه مات صغيرا . ولذلك طبعت اسمها على النقود على النحو المستعصميه الصالحة والدة المنصور خليل .

ولعل اسمها يجمع بين اسم الخليفة العباسى المستعصم واسم زوجها السابق الصالح أيوب واسم ابنها خليل .

وكان ذلك فى محاولة منها لاظهار الولاء للدوله العباسيه . ولكن الخليفة العباسى لم يرضى أن يولى حكم مصر لامرأة ، فأرسل الى قضاة مصر يعاتبهم على ذلك .

كانت شجرة الدر قد بدأت بالانعام على أمراء المماليك وجندهم بالوظائف الكبرى والاقطاعيات الضخمه ، وأحسنت الى رعيتها احسانا كبيرا . غير أن الرأى العام الاسلامى فى مصر والمحيط الاسلامى لم يقبل ولاية امرأه . هذا فضلا عن أن شجرة الدر نفسها محاطه بالمؤامرات التى كانت تستهدف عزلها كليه عن الحكم أو عزلها فعليا مع بقاء الشكل الاسمى فقط ، ولذلك فانها نزولا على رغبة العلماء ومنهم القاضى تاج الدين رأت انه من الأسلم أن تحتمى هى والسلطنة كلها وراء رجل قوى يتسلم منها دفة الحكم ، وكان هذا الرجل هو الأمير أيبك التركمانى وكان ذلك بداية لحكم جديد وهو حكم المماليك البحريه .

وانتهت دولة صلاح الدين الأيوبى .

حكمت دولة بنى أيوب مصر حوالى ٨٠ سنة ؛ فمنذ تولى صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ الموافقة ١١٧٠ م الى سنة ٦٤٨ هـ الموافقة سنة ١٢٥٠ م كانت الدولة الأيوبية فى مصر دولة عسكرية بالدرجة

الاولى فقد شهدت أعوامها الثمانون سلسلة طويلة من المعارك مع الصليبيين انتهت معظمها بالانتصارات الساحقة ؛ فقد عاد بيت المقدس فى عهد صلاح الدين . ولم يسترده الصليبيون الا سلما على اثر معاهدة مع الملك الكامل ثم استرده الملك الصالح حربا .

والى جانب الصفة العسكرية للدولة الأيوبية فقد أحسنت ادارة البلاد فلم تشهد أعوام حكم الأيوبيين ثورة قام بها المصريون درءا لظلم أو مقاومة لتعسف كما كان يحدث فى سنوات سالفة .

بلغت الدولة الأيوبية أوجها فى الاستقرار والعدل والرخاء فى عهد الناصر صلاح الدين . ولكن بوفاته اختل البيت الأيوبى ذاته ، ومع ذلك استمر قائما فى الحكم ومصرا على النصر حتى اللحظات الأخيرة لنهاية الدولة ففى نفس السنة التى مات فيها آخر الحكام الأيوبيين هى سنة النصر الحاسم على الصليبيين ، ولكن كانت قوة جديدة قد اشتد عودها فى مصر وهى قوة المماليك .

ثم كان المماليــك

حكام مصر
فى دولة المماليك البحرية

تمهيد حول أصل المماليك ونشأتهم :

المماليك هم مجموعة من الأرقاء أو الأسرى الذين جيء بهم الى مصر فى عصور متعددة ، ولقد كان العباسيون أول من استعملوا العنصر المملوكى فى دولتهم سواء فى الجيش أم فى القصور أم فى الادارة(١) ، وكان ذلك لعدم اطمئنانهم الى العرب أو أهل البلاد الأصليين فى حمايتهم ، غير أن المماليك الذين تبوأوا حكم مصر موضع هذا البحث هم الذين استكثر منهم الأيوبيون فى مصر ، وخاصة الصالح نجم الدين أيوب ، وجعل منهم طبقة عسكرية ممتازة تحمى البلاد من السطو الخارجى ، وتحمى البيت الحاكم من المؤامرات الداخلية .

وتثبت الشواهد التاريخية أن المماليك لم يكن كلهم من أصل واحد(٢) ، فنجد مثلا قطز كان أسير من أمراء الخوارزميين ، بينما كان بيبرس تركيا وقد كانت الحروب الأيوبية سواء مع الصليبيين أو غيرهم من حكام بلاد المشرق تتيح لهم أسر أعداد كبيرة من هؤلاء الذين أصبحوا فيما بعد المماليك .

ولم يكن الأسر وحده هو المصدر الرئيسى لاستجلاب المماليك وانما كان هناك تجار الرقيق ، وهم مجموعة من قطاع الطرق كانت تعمل فى كل البلاد سواء فى بلاد المشرق أو فى بلاد ما وراء البحر الأبيض أو بلاد أفريقيا وتتاجر فى الرقيق وتبيعهم الى السلاطين والأعيان فى الشرق ، من كل هؤلاء تكونت طبقة غير متجانسة فى الأصل ، وجمع بينها خيط واحد وهو أنهم كلهم مماليك .

سبق الذكر أن المماليك البحرية التى استكثر منهم الملك الصالح أيوب كان لهم الفضل الأكبر فى الانتصار على الصليبيين فى موقعة المنصورة وأسر الملك الفرنسى لويس التاسع ، ثم شهد المماليك أحداث

البيت الأيوبى التى انتهت بمقتل توران شاه وتوليــة شجرة الدر ، ثم ما لبثت شجرة الدر أن خضعت للرأى العام فى الشارع المصرى والاسلامى بالتخلى عن السلطة بشكل مستتر حيث تزوجت من أحد قواد المماليك وهو أيبك التركمانى ليبدأ أول حاكم لمصر فترة حــكم جديدة للمماليك البحرية .

١١٢ ـ المعز عز الدين أيبك :

اعتلى عرش مصر فى ســنة ٦٤٨ هـ الموافقة ١٢٥٠ م باعتباره القائــد المملوكى الأول ، وزوج شــجرة الدر السلطانــة الأيوبيــة السابقة . لقيت توليته الحكم بعض التأييــد وبعض المعارضة ، فكانت المعارضة بالطبع من أمراء البيت الأيوبى وأتباعهم من المماليك ، هــذا فضلا عن بعض أحقاد قواد المماليك الآخرين مثل الفارس أقطاى .

ولذلك فقد وجد أيبك من المؤيدين لهم فكرة صــائبة يمكنه من خلالها اخماد حدة المعارضة . بمقتضى هــذه الفكرة كان اختيار طفل صغير من أحفاد الملك الصالح ليكون له السلطة الاسمية فى الحكم بينما تكون الادارة الفعليــة له هو ، ووافق أيبك على هذه الحيلة التى لم ترق للأيوبيين فى حلب والشام الذين أرسلوا جيشا الى مصر لمقاتلة أتباع عز الدين أيبك ، واستطاع الجيش المملوكى بقيادة فارس أقطاى أن ينتصر على الجيش الشامى الزاحف .

كان الخطر المغولى قد اتسع فى غرب آسيــا وهــدد الخلافة العباسية فى بغداد فقام الخليفة العباسى بوساطة الصــلح بين أيبك حاكم مصر الفعلى وبين الأمير الأيوبى الناصر يوسف فى الشام ، وكان هــذا الصلح بمثابة اعتراف متبادل بين أيبك ويوسف بسلطة الأول على مصر وجزء من فلسطين حتى نهر الأردن بما فى ذلك بيت المقدس ، وسلطة الثانى على حلب وبعض الشام وفلسطين .

وهنا استطاع عز الدين أيبك أن ينبت لنفســه الشرعية فى حكم مصر وأبعد الطفل الأيوبى عن مشاركته فى الحكم ، وعين زميلا له وهو سيف الدين قطز نائبا عنه للشئون العسكرية والداخليــة فى مصر .

وما لبثت أن قامت فتنة داخلية من أعراب مصر والبدو فى بلبيس ترفض حكم المماليك لمصر ، فكانت جولة ثانية للفارس أقطاى لاخماد هــذه الفتنة التى أحس بعدها بنفوذ كبير وأراد لنفسه وضعا متميزا فما كان من أيبك الا التآمر عليــه والتخلص منه فى القلعة ليخضــع الجميع من المماليك الصالحية لحكمه ، وقد هرب منهم الكثير اثر هــذه الواقعة الى الشام وكان منهم بيبرس البندقدارى الذى كان القــدر يخبىء له دورا مستقبليا فى حكم مصر .

استقرت الأمور فى مصر لعز الدين أيبك ونائبه سيف الدين قطز الى أن حدثت فتنة عائليــة فى داخل بيت أيبك نفســه ، فقد حدث تحالف بين أيبك وحاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ ، وأراد أيبك أن يتزوج من ابنته ، واعتبرت شجرة الدر هذا الزواج يخدش كبرياءها ، ودبرت مؤامرة للانتقام منه وبالفعل دعته لجلسة صلح فى قصرهــا ، وقتله أتباعها قتلة وحشية .

وسرعان ما انكشف الأمر واذا بأتباع أيبك يقتلون شجرة الدر . وهكذا فى أسبوع واحد من أبريل ســنة ١٢٥٧ م قتــل أيبك وقتلت شجرة الدر بعد سبع سنوات فى حــكم مصر استطاعت فى بدايتهــا شجرة الدر تأمين مصر من خطر صليبى ساحق ، واستطاع أيبك نزع السلطة من الأيوبيين فى مصر الى الأبد .

وعلى اثر هــذ ه الحوادث المريعة بايــع المماليك على سلطنــة مصر على نور الدين ابن عز الدين أيبك .

١١٣ — المنصور على نور الدين :

كان توليـــه فى ٦٥٥ هـ الموافقة ١٢٥٦ م ولم يكن قد تجاوز عمره الخامسة عشرة سنة ، فعين الأمير قطز نائبا للسلطنة وصار له الشأن والتدبير فى حكم البلاد .

كانت الأمور فى المحيط الدولى حول مصر تتحرك بسرعة فائقة فما لبثت بغداد عاصمة الخلافة العباسية أن سقطت فى أيدى التتار . فقد كان الزحف المغولى مستمرا ، فبعد أن سقطت فارس وخراسان كان الدور على الخلافة العباسية وكان ذلك بقيـــادة القائـــد المغولى هولاكو الذى أحرق بغداد وأكثر من النهب والسلب فى أهلهـــا . وبلغت الأنباء مصر وانتشر الذعر فى جميع البلاد الاسلامية المجاورة ، وانعقد مجلس الأعيان فى مصر ، وأصبح الامر يحتاج الى سلطنة رجل قوى تودع فى يده أمور الدولة المملوكية ، وكان الاختيار لسيف الدين قطز الذى بايعه قواد مصر وأعيانها لمواجهة الخطر الجديد . وتم خلـــع السلطان الصغير فى سنة ٦٥٧ هـ الموافقة ١٢٥٩ م .

١١٤ — الملك المظفر سيف الدين قطز :

ينتمى قطز كما سبق الذكر الى أصل خوارزمى ، وكان أميرا فى أهله قبل أن يصير مملوكا للأيوبيين ، وقد عاصر قطز مراحل خطيرة فى تاريخ مصر ، فقد اشترك اشتراك الأبطال فى هزيمة الصليبيين فى المنصورة ، وكان أحد القواد الذين اعتمد عليهم أيبك فى تأمين انتقال السلطة الى المماليك . وكان شجاعا ورعا .

كان المحيط الدولى حول مصر يموج بالتغيرات والتقلبات . وكان هولاكو زعيم التتار يواصل التدمير والسفك فى نواحى البلاد الاسلامية وكان الدور على الشـــام ثـــم مصر . وهنـــا ظهـــر الاختبار الأول — والأخير — للسلطان الجديد سيف الدين قطز .

زحف المغول نحو دمشق واستولوا عليها ، ثم بدأت قواتهم تهدد أراضى السلطنة المملوكية فى فلسطين ، وأرسل هولاكو انذارا الى حاكم مصر قطز الذى جمع أعيان مصر وعلمائها ليتشاور معهم فى الرأى والتعبئة العامة ، ووافق الجميع على ضرورة الجهاد لوقف الخطر المغولى وكان هناك موقف عظيم لشيخ العلماء عز الدين بن عبد السلام حيث رفض ارهاق أهل مصر بفرض ضرائب جديدة طالما كان الذهب والجواهر فى حوزة أمراء المماليك وأتباعهم •

وسارت الأمور على نحو عظيم وأعلنت التعبئة العامة فى أنحاء مصر لصد الخطر الذى يهدد الاسلام والمسلمين ، بل ويهدد العالم كله وهو خطر المغول • وتجمع جيش مصر بقيادة سيف الدين قطز ، وخرج الجيش لمواجهة المغول •

فوجىء المغول بوصول الجيش المصرى وعلى رأسه قطز ، وحدثت الموقعة الحاسمة عند عين جالوت وهى بالقرب من مدينة الناصرة فى فلسطين ، وكانت موقعة خالدة انضم اليها عدد من المماليك البحرية الذين كانوا قد فروا الى الشام أيام حكم أيبك ، وكان منهم بيبرس البندقدارى الذى عينه قطز على مقدمة الجيش المصرى •

وتواصل القتال ونجح قطز وبيبرس فى دحر المغول ، وهزيمتهم هزيمة ساحقة •

وهكذا نجح قطز فى هذا الاختبار ليرد عن مصر ، وعن العالم الاسلامى ، بل وعن العالم المسيحى فى الغرب خطر المغول ، وكانت تلك الموقعة من المواقع الحاسمة فى تاريخ البشرية •

وتقهقر المغول وانسحبوا من دمشق وحلب ، وكانت القوات المصرية تطاردهم وزينت الأقطار الاسلامية لهذا النصر المبين •

بدأ سيف الدين قطز فى العودة الى مصر ، ولكنه وهو فى طريق العودة وقع قتيلا اثر مؤامرة دبرها بيبرس زميله فى المعركة الخالدة •

يرى بعض المؤرخين أن حادث القتل كان بسبب خلاف قديم بين قطز وبيبرس عقب مقتل قائد المماليك أقطاى فى القلعة ، ويرى البعض الآخر أن قطز كان قد وعد بيبرس بامارة حلب ثم عدل عن وعده فدبر بيبرس لقتله • وأيا كانت الأسباب فانه يمكن القول أن قطز قد استشهد بعد نجاحه فى صد أكبر الحملات المغولية على الشرق وأوقف زحفها •

لم يستمر حكم قطز لمصر أو لجيش مصر سوى سنة واحدة ولكنها كانت مليئة بأحداث وانتصارات عظيمة ، وتولى من بعده بيبرس البندقدارى عقب عودته الى مصر •

(١١٥) الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

تولى حكم مصر فى سنة ٦٥٨ هـ الموافقة ١٢٦٠ م وامتدت فترة حكمه لمصر سبعة عشر عاما . استطاع فيها بيبرس أن يترك بصمات وملامح على دفة الادارة وعلى الشخصية المصرية نفسها .

كان الظاهر بيبرس من أصل تركى . تذكر المصادر التاريخية أنه ولد ببلاد قبجاق فى جنوب روسيا ، وأخذ من بلاده وبيع فى دمشق واشتراه الأمير علاء الدين البندقدارى الذى تسمى بيبرس باسمه .

كان فى الماضى قد استطاع بيبرس أن يحوز ثقة الملك الصالح أيوب فى نهاية عهد الدولة الأيوبية ، وكان من جملة قواده المماليك وأظهر من الشجاعة فى يوم موقعة المنصورة ما أهله ليتبوأ مكانا رفيعا فى صفوف قواد المماليك ، وكان قد ترك مصر فى أيام سلطنة أيبك وعاد اليها بعد الانتصار الذى شارك فيه مع قطز على التتار .

أظهر بيبرس مهارة فائقة فى ادارة حكم مصر ، وفى قيادة الجيوش . واجه فى بداية حكمه عددا من الفتن ، ففى دمشق رفض نائبه فيها الاعتراف باعتلاء بيبرس للحكم ، وجعل هذا النائب من نفسه ملكا على الشام ودعا الأيوبيين الى الاعتراف به ، واستطاع بيبرس أن يقمع هذه الفتنة فى مهدها ، ويعين سيده القديم علاء الدين البندقدارى واليا على دمشق .

ثم واجه فتنة أخرى فى مصر من العربان الذين كانوا يرفضون دوما حكم الأرقاء المماليك .

رتب بيبرس شئون مصر الداخلية وعمل نظاما للادارة محكما وعين عددا من الأكفاء على شئون المال والاقتصاد ، وأبطل بعض المكوس ، وعمل على العناية بالطرق واصلاح الجسور وحفر الترع ، وتقوية الحصون فى موانىء مصر فى الاسكندرية ورشيد ودمياط .

كان بيبرس يعمل على نفس نهج سلفه العظيم صلاح الدين فى توحيد أركان الجبهة الاسلامية فدعا واحدا من بقايا الأسرة العباسية التى تفككت بعد هجوم هولاكو على بغداد ، وكان اسمه الامام أحمد ، وكان أحد أقارب الخليفة العباسى الذى استشهد عقب سقوط بغداد ، ونودى بالامام أحمد خليفة عباسيا مقره القاهرة وبايع علماء مصر وفقهاؤها الخليفة العباسى الجديد الذى بايع بدوره الظاهر بيبرس سلطانا على مصر والشام •

وهنا أصبحت مصر مقرا للخلافة العباسية وان كانت خلافة اسمية الا أنها أعطت لحكام مصر المماليك الشرعية ، وجعلت مصر تتصدر دول المسلمين • وكانت الدنانير والدراهم يذكر عليها اسم الخليفة العباسى واسم السلطان المملوكى ، وكان الدعاء فى المنابر يتم باسميهما •

واستطاع بيبرس تنظيم جيش مصر واعادة تجديد الاسطول • وهكذا نجح بيبرس فى احياء الخلافة العباسية فى مصر • ولم يعد أمامه الا خطرين كبيرين وهما المغول والصليبيين ، وبالفعل بدأت المناوشات من هذين الخصمين واستطاع بيبرس الانتصار عليهما بالحرب والسياسة •

تحالف بيبرس مع أحد أمراء المغول الذين اعتنقوا الاسلام وصاهره وتزوج ابنته وهو الملك بركة خان • وبدأت انتصارات بيبرس على سواحل الصليبيين فى الشام واستولى على عدة مدن ، واستمر بين الشام والقاهرة فى رحلات متعددة هدفها التعبئة والحرب الى أن أمن كل حصون الشام فيما عدا امارات صليبية قليلة ، وأكد السيادة المملوكية على مكة والمدينة ، وطهر جبل الشام من مؤامرات الطائفة الاسماعيلية التى كانت دائمة التحالف مع الصليبيين • ثم تفرغ لمواجهة الغارات المغولية حول دمشق وانتصر عليهم • واستمر زحفه الى أرمينيا الصغرى •

نجح بيبرس فى ادارة حكم مصر نجاحا منقطع النظير فأحسن الادارة ، وأكثر الاعمار ، ونمت التجارة والزراعة والصناعة فى عهده نموا ملحوظا ، واستطاع أن يوطد أركان حكمه فى دولة مترامية الأطراف ، فكانت دولته هى أقوى دولة فى الشرق •

استكثر بيبرس من المدارس ورتب لكل مذهب قاضيا كبيرا ، وجدد عمارة الجامع الأزهر وجامع ابن طولون ، وأنشأ القناطر والجسور فى أنحاء مصر •

وفى احدى جولاته فى دمشق مات الملك الظاهر بيبرس فى ٦٧٦ هـ الموافقة ١٢٧٧ م ليتولى بعده حكم مصر ابنه محمد •

١١٦ ـ الملك السعيد محمد بن الظاهر بيبرس :

آآآآ وكان شابا صغيرا ، وكان أبوه قد أطلق عليه اسم بركة خان تيمنا باسم جده لأمه الأمير المغولى المسلم •

كان الملك السعيد قد تزوج بابنة أحد كبار المماليك وهو سيف الدين قلاوون الذى كان نائبا عن السلطان بيبرس وكبيرا للعسكر • كان السعيد على غير حكمة والده ولم يقدر الأمور حق قدرها ، وأساء الظن بالمماليك الذين كانوا سندا لأبيه طوال حكمه الأمر الذى جعل قلاوون يخلعه من الحكم بعد سنتين خشية أن يتآمر عليه الآخرون وأرسله الى أحد البلاد الشامية أميرا عليها ؛ وولى ابنا آخر من أبناء الظاهر بيبرس على حكم مصر وهو سلامش •

١١٧ ـ الملك العادل سيف الدين سلامش :

وهو ابن الملك الظاهر بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه السعيد فى سنة ٦٧٨ هـ ، وكان عمره نحو عشر سنوات ولذلك كان يتولى الحكم من الناحية الاسمية فقط أما الناحية الفعلية فى الادارة والقيادة فقد كان يتولاها قلاوون نفسه وقد ربط قلاوون اسمه باسم سلامش

على العمائم وفى الدعاء على المنابر • ولكن لم يلبث سلامش الصغير سوى ستة شهور فقد أقنع قلاوون أمراء الجند بأن المحيط الدولى ملىء بالمخاطر . وهو ما يستدعى وجود الكفاءة والحكمة فى رأس السلطة فى مصر . وهذا يقتضى وضع الأمر فى يده ، وبالفعل بايع الخليفة والأمراء قلاوون حاكما على مصر فى سنة ٦٧٩ هـ الموافقة ١٢٧٩ م •

١١٨ ـ الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى :

ويدعى سيف الدين أبى المعالى . كان من المماليك التى اشتراها الصالح أيوب . وترجع بعض المصادر أنه من أصل تركى •

واجه قلاوون فى أيام حكمه الأولى معارضة شديدة من أتباع ابناء الظاهر بيبرس . وكان من المعارضين الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق الذى لم يعترف بسلطنة قلاوون ، وأعلن نفسه سلطانا على الشام . واستطاع قلاوون أن يخرج اليه بجيش ليخمد الفتنة المشتعلة هناك . ولكن سنقر الأشقر استنجد بقائد المغول ابن هولاكو واستطاعت فرقة مغولية غزو الشام فاستطاع قلاوون مقاومتها وهزيمتها فى واقعة حمص هزيمة منكرة • وتم توقيع هدنة تعهد فيها المغول بعدم الاعتداء على أطراف الدولة المملوكية • وما لبث أن تولى قيادة المغول فى فارس قادة اعتنقوا الاسلام وبدأت علاقاتهم الودية بالسلطان قلاوون تأخذ خط فكرة الجبهة الاسلامية الواحدة ثم تولى قيادة المغول حاكما جديد يدعى أرغون فأخذ يسعى الى تحالف مغولى صليبى ضد المسلمين . ولكن الصليبيين كانوا على ضعف ووهن لم يمكنهم من اتمام هذا التحالف •

عاد قلاوون الى مصر بعد هزيمة المغول فى واقعة حمص فى سنة ١٢٨١ م ، وتفرغ لاعمار مصر وبناء المدارس ، وبنى مستشفى كبيرا يدعى البيمارستان خصص له كبار الأطباء ، وأوقف عليه مبالغ باهظة ليكون مكانا لعلاج المرضى من كافة أبناء الرعية •

لم يبق أمام قلاوون فى المحيط الدولى الا الخطر الصليبى فقط بعد توقيع الهدنة مع المغول ، فخرج من مصر مره أخرى على رأس جيش كبير لمقاومة الصليبيين فى ثغور الشام ، واستطاع الاستيلاء على امارة طرابلس ، ولم يبق للصليبيين الا مدينة عكا ومدينة بيروت اللاتى آل قلاوون على نفسه أن يخلصها منهم ، فعاد الى مصر مرة أخرى ليعد العدة لحصار عكا •

مات قلاوون قبل أن يقوم بالحصار الجديد فقد وافته المنية فى سنة ٦٨٩ هـ الموافقة ١٢٨٩ م ، وهو فى السبعين من عمره بعد حكم مصر لمدة تزيد على احدى عشرة سنة أسس فيها الكثير من المدارس والحصون ، وكان أبرز ما قدمه لمصر ذلك المستشفى العظيم الذى بقيت آثاره حتى اليوم •

كان قلاوون قد استجلب الكثير من المماليك من الجنس الجركسى وأسكنهم أبراج القلعة ليجعل منهم جندا وأتباعا ، وهم الذين سوف يحتلون فى المستقبل القريب عرش مصر •

بايع الخليفة والعلماء بعد وفاة قلاوون ابنه خليل حاكما على مصر •

١١٩ ـ الملك الأشرف خليل بن الملك قلاوون :

تولى الحكم بعد أبيه فى سنة ٦٨٩ هـ الموافقة ١٢٩٠ م وكان شابا تلقب بالملك الأشرف ونودى باسمه فى القاهرة ، وبدأ فى أول عهده ينتقم من رجال أبيه بلا سبب اعتقادا منه أنهم يدبرون المؤامرات لخلعه • كذلك قام بعمليات مصادرة أموال الرعية على غير حق وعدل استنادا الى رأيه فى أن اظاهر القوة والبطش هو السبيل الى سلطنة قوية •

أراد الأشرف خليل متابعة تنفيذ مشروع أبيه لحصار عكا ، وتخليص الشرق من الصليبيين ، وبالفعل خرج السلطان خليل على

رأس جيش من مصر ؛ وحاصر عكا حصارا شديدا واستمرت المعركة عدة أسابيع حتى سقطت عكا فى أيدى جيش مصر ، ثم سقطت بعدها القرى الصليبية المجاورة . وبعد هذه المعارك لم يعد للصليبيين دولة فى الشرق ، فقد كانت تلك هى آخر المعارك مع الصليبيين ، وباتت ثغور الشام كلها تخضع للسلطنة المملوكية فى مصر .

عاد الملك الأشرف ابن قلاوون الى مصر منتشيا بالنصر ، وأقنع الخليفة العباسى بأن يحث أهل مصر على الجهاد مرة أخرى ضد المغول حتى لا يبق فى الشرق كله سوى مصر الاسلامية مالكة جميع الأطراف ، والأمر يقتضى خصم الهدنة التى سبقت أن عقدها أبوه .

وبدأت الحملة الأولى الى الفرات ولكن الأشرف لم يحقق من هذه الحملة أية مكاسب تذكر ، فعاد الى مصر مرة أخرى ليعد لحملة جديدة هدفها فى هذه المرة استرداد بغداد نفسها من أيدى المغول .

وبدأت التعبئة فى هذه الحملة ، غير أن يد المؤامرات كانت أسبق الى الأشرف خليل ، وقتل وهو فى رحلة صيد داخل أراضى المصرية ، وكان على رأس قاتليه نائبه بيدرا ، كان ذلك فى سنة ٦٩٣ هـ الموافقة ١٢٩٣ م . وتوج القتلة النائب بيدرا حاكما على البلاد ، ولكن ما ان انتشر الخبر فاذا بالمماليك الأشرفية يتبعون بيدرا وأنصاره حتى قتلوه .

امتدت سلطنة الملك الأشرف فى مصر نحو ثلاث سنوات ، ولم يكن لديه من الذرية سوى ابنة طفلة صغيرة ، وعلى ذلك وقع الاتفاق بين الأمراء على سلطنة أخيه محمد بن قلاوون .

(١٢٠) الملك الناصر محمد بن قلاوون

بويع بالحكم وهو طفل صغير ابن تسع سنين ، وكانت أمه مغولية ، ويعتبر أصغر أبناء الملك الأسبق سيف الدين قلاوون .

ولقد عينه الأمراء اعتقادا منهم بامكانية عزله لصغر سنه والاستيلاء على السلطة الفعليـــة • كان يدير شئون المملكة وزيران هما القائـــد كتبغا والأمير سنجر الشجاعى فدب الصراع بينهما وانتصر كتبغا وأراد الاستئثار بالحكم حتى ينقذ البلاد من الاضطرابات التى كانت قد عادت للظهـــور عقب مقتـــل الأشرف • وبالفعـــل استدعى كتبغا الخليفة العباسى والقضـــاة واستصدر منهم قرار المبايعة له وتم خلع السلطان الصغير ونقلـــه الى مكان أمين فى القلعة ، فكانت مدة سلطنته الأولى نحو السنة •

١٢١ ــ زين الدين كتبغا :

تولى الحكم فى سنة ٦٩٤ هـ الموافقة ١٢٩٥ م . وكان الملك كتبغا أحد مماليك سيف الدين قلاوون ، ويروى أنه من أصل جركسى على خلاف بقيـــة المماليـــك البحرية ، حكم مصر لمدة سنتين ، حدثت فيهما مجاعة شديدة ، وزاد الغلاء ، وضـــاقت أرزاق الناس ، واعتبر أهل مصر أن توليتـــه كانت شؤما على البلاد •

عهد كتبغا الى أحد أصدقائه وهو حسام الدين لاجين بالوزارة الأولى ، ولكن حسام لم يرق له أن يكون أهل مصر غير راضين بحكم كتبغا ، فاستغل سفر كتبغا الى الشـــام ، وجمع الخليفة والقضاة ، وتم خلع كتبغا وتوليـــة لاجين حاكما فى سنة ٦٩٦ هـ الموافقة ١٢٩٧ م •

١٢٢ ــ حسام الدين لاجين :

وهو أيضا من مماليك قلاوون • فى عهده زاد منســـوب النيـــل وعم الرخاء أرجاء مصر ، ووصلت أفواج كثيرة من أهل المغـــول الى مصر راغبة فى العيش بها واعتناق الاسلام ، واختلطوا بأهل البلاد وصاهروهم •

تولى الوزارة الأولى فى عهد لاجين أحد المماليك الذى كان تم أسرهم من جيش التتار فى موقعـــة حمص واســـمه منكوتمر • وكان

مستبدا سيء السيرة ، أثار غضب الأمراء على السلطان حسام الدين • عرض منكوتمر نائب السلطان فكرة الدخول مع التتار فى حرب جديدة لاستغلال خلافاتهم الداخليـــة حيث كانت قد انقسمت دولة التتار الى قسمين أحدهما يدين بالاسلام ، والآخر لا يزال على الدين المغولى ، فأعد السلطان حسام الدين حمله عسكرية للتوجه لمقاتلة مغول فارس . وكان هدفه من هذه الحملة ارسال بعض قواد المماليك من ذوى الخطر على حكمه فى مصر ، وبالفعل وصلت القوات المملوكيـــة من مصر الى حلب ثم توجهت الى جهة سيس ثم الى الاسكندرية ، ووقع الخلاف بين أمراء الجيش المصرى ، وتحالف الأرمن مع المغول لقتال الجيش المصرى واستمر القتال فترة من الوقت ، واحتدم الخلاف بين أمراء الجند ، ولم تحقق الحملة غايتها وهدفها فى الاستيـــلاء على أى من مواقع التتار •

استمر هـــذا الوضع سنتين ، وكان الســـلطان لاجـــين يعبىء الحملات العسكرية من مصر الى الشام لنصرة جيش مصر الا أن وافاه الأجل حين احتج عليـــه أمراء المماليـــك وقتلـــوه باعتباره أدى الى استنزاف قوى مصر فى حرب غير سابق الاعداد لهـــا ، وكان ذلك فى ٦٩٨ هـ الموافقة ١٢٩٩ م ، وقتـــل نائبه أيضا منكوتمر • واستمرت أريكة الحكم فى مصر خاليـــة حيث كان أمراء الجند يتنافسون على الحكم الى أن حسم القضية الخليفة العباسى والقضاة وقرروا عودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى مصر •

عودة الناصر محمد بن قلاوون لحكم مصر مرة ثانية

وكان قد بدأ هـــذه المرة يخطو الى مرحلة الشـــبا ب، ولم يعد طفلا حال فترته الأولى • وجعل نائبه فى السلطنة سيف الدين سلار ، وعين أميرا آخرا من أمراء المماليك وهو بيبرس الجاشنكير وزيرا أولا •

فى أول عهـــد الناصر محمد الثانى استطاع غازان ملك التتـــار حفيد هولاكو الزحف على الشام • كان غازان هـــذا قد اعتنق الاسلام

فأرسل السلطان الناصر محمد حملة أولبه بقياده بيبرس . ثم خرج السلطان نفسه ومعه الخليفة والقضاة الأربعه للتلاقى مع جيش غازان • وانهزم السلطان الناصر محمد فى هذه الحمله . ودخل غازان الى الشام وهرب الملك الناصر الى مدينة بعلبك ثم عاد الى القاهره ليعلن التعبئة العامة بين أهل مصر وجند المماليك للوثوب مره أخرى على التتار فى الشام • واستطاع قلاوون بالوسائل السلميه أن يخضع الأمراء لطاعته ، واضطر غازان أن يدخل فى مفاوضات صلح مع الناصر محمد بن قلاوون غير أن غازان زحف مرة أخرى على بعض الامارات المملوكية فى الشام فاضطر السلطان الناصر الى دخول الحرب بجيش قوى فى سنة ٧٠٢ هـ الموافقة ١٣٠٢ م وحدثت معركه حاسمة انتصر فيها الجيش المصرى انتصارا ساحقا واستسلم التتار وفروا الى حدودهم فى فارس •

وعاد السلطان الناصر محمد مظفرا الى القاهره وتزينت له مصر وخرج أهلها لاستقباله فى موكب عظيم حافل •

ومضى الناصر محمد فى حكم مصر واعمارها ، ثم بدأت الفتنة تدب بين السلطان ونائبه سلار ، وضاق ذرعا بتصرفات نائبه ووزيره مع أهل مصر ، وخشى أن تسرى الفتنة فى بقية الجيش فأظهر رغبته فى الحج وخرج الى الكرك وتنحى عن السلطة بخلع نفسه من الحكم ووجه رسالة الى أهل مصر يدعوهم الى اختيار سلطان جديد •

حزن الأمراء والجند لاعتزال الملك الناصر محمد وذهبوا اليه يحاولون استرضائه فرفض ، وأوعز اليهم فى أن يحكموا أمرهم فى اختيار حاكم رشيد على مصر • وبالفعل اجتمع الأمراء والقضاة وأقروا على كره منهم بيبرس الجاشنكير •

١٢٣ — ركن الدين بيبرس الجاشنكير :

بايعه الخليفة العباسى حاكما على مصر فى سنه ٧٠٨ هـ الموافقه

١٣٠٨ م . وكان أحد المماليك الجراكسة الذين كان قد اشتراهم قلاوون الأول .

فى عهده القصير توقف النيل عن الوفاء وشحطت الغلال وارتفعت الأسعار ، وضاق الناس . كذلك عمت الفتنة أمراء المماليك حيث كان أغلبهم ومعهم أهل مصر يتابعون السلطان الناصر محمد مما اضطر بيبرس الجاشنكير الى ممارسة اجراءات التعسف والمصادرة فترك أكثر الأمراء القاهرة متجهين الى الكرك مقر اقامة الناصر محمد وشكوا اليه ظلم بيبرس ، فكتب الناصر محمد الى أمراء السواحل الشامية الذين أيدوه وطالبوه بالعودة مرة أخرى الى حكم مصر . ودعا أمراء الشام الملك الناصر محمد لدخول الشام ملكا عليها . فاضطربت أحوال القيادة فى مصر وأسقط فى يد بيبرس الجاشنكير . وأشار عليه أصحابه أن يرسل فى تأييد الملك الناصر حتى يأمن على نفسه وأهله .

وبالفعل تنازل بيبرس الجاشنكير عن السلطنة وشهر أمام الخليفة والقضاة بمبايعة الملك الناصر محمد ، وحضر الملك الناصر الى القاهرة ليحكم مصر للمرة الثالثة وسط ترحيب الناس ودون قتال . وهرب بيبرس الجاشنكير بعيدا بعد أن حكم مصر لمدة تزيد على عشرة شهور .

الفترة الثالثة لحكم الناصر محمد بن قلاوون

بدأت هذه الفترة فى سنة ٧٠٩ هـ الموافقة ١٣٠٩ م . وكان السلطان الناصر محمد قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وأصبح على دراية وخبرة بشئون السياسة والحكم .

حكم فيها مصر حكما فرديا ، وكانت تلك الفترة من أكثر العصور المملوكية ازدهارا ورخاء فى مصر ، فلقد انتشر الأمن والاعمار ، وكثر البناء والتشييد ، وأقام الناصر محمد الترع والجسور . واستزرع ملايين الأفدنة من الأراضى البور . وأبطل الكثير من الضرائب والمكوس التى كانت تعوق حركة الزراعة والتجارة .

لم تكن هناك فى دولة الناصر آيــة سلطة لايه جهة الا سلطته هو فقط ، فنجده عندما يختلف مع أحد القضاة يقوم بالعزل والتبديل . بل وصلت دكتاتوريته الى حد أنه نفى الخليفه العباسى المستكفى بالله من القلعة الى مدينة قوص على أثر خلاف دب بينهما • وكان بمجرد أن يعلم بثراء أحد المماليك ثراءا فاحشا حتى يحاكمه ويصادر أمواله . وعلى ذلك ساس الناصر محمد بن قلاوون الناس بالهيبة والحكمة . وان كان عهده بالفعل قد اتسم بالدكتاتورية ، فان ذلك كان يبرره كثرة الفتن والمؤامرات حول البيت الحاكم وفى صفوف القواد والأمراء مما كان يصعب معه اجراء المشورة •

ورغم ما شاب عهد الناصر محمد من سمات دكتاتورية واضحة الا أن هــذا العهد قد شهد كثيرا من الأحكام العادلة ، وشهد هــذا العهد رخاء لم يسبق له نظير ، فنشأت المدن والقرى وارتفعت ايرادات الحكومة وزادت نفقاتها •

شهدت الفترة الثالثة من حكم الناصر محمد استقرار أمنيــا فى الداخل والخارج ، فلم تجرؤ أية قوة خارجية مهاجمة حدود الدولة ، وأوقف المغول هجماتهم على أطراف الدولة مهادنة واحتراما للسلطان القوى • وأصبح لمصر مركز دولى متميز ، وزادت سفاراتها فى العالم الاسلامى والمسيحى ، وأصبحت قبلة للعلوم والفنــون والآداب من مختلف أنحاء العالم •

مات الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ هـ الموافقة ١٣٤٠ م • مخلفا عددا من الأبنــاء والأحفاد تولوا السلطنة من بعده ولمدة نصف قرن تالى ، وكان أولهم سيف الدين بن محمد بن قلاوون •

١٢٤ ــ الملك المنصور سيف الدين بن محمد بن قلاوون :

تولى حكم مصر بنــاء على وصية أبيه ، وكان شابا صغيرا يعمل تحت وصاية الأمير قوصون كبير الوزراء وزوج أخته ابنة النــاصر محمد ، وهنا بدأت الأطماع من أمراء الجند تظهر من جديد على مسرح

الاحداث . فقد أراد الملك الجديد أن يسير وفق نهج أبيه دون وصاية من أحد . فما لبثوا أن تآمروا عليه وقتلوه وولوا ابنا آخرا للملك الراحل الناصر محمد يمكنهم من خلاله أن يديروا شئون الحكم • وبالفعل لم يستمر حكم الملك المنصور سوى شهرين فقط ، تولى بعده أخوه الأشرف علاء الدين •

١٢٥ — الأشرف علاء الدين قجق بن الناصر محمد :

كان طفلا صغيرا لم يتجاوز خمس سنوات ، وأصبح الحاكم الفعلى هو الوزير الأول قوصون •

غير أن أهل مصر لم يرق لهم هذا الحال ، وقاموا بتمرد على حكم قوصون وكان هناك أمراء الشام يراقبون الأحداث فى القاهرة ، وكان للناصر محمد بن قلاوون أحد الأبناء يسمى شهاب الدين أحمد وكان شابا قويا حرضه أمراء الشام على الذهاب للقاهرة لحماية عرش قلاوون من فتنة المماليك • وحضر شهاب الدين الى القاهرة وحاصر هو وأنصاره قوصون فى القلعة ، ثم تم خلع الملك الصغير علاء الدين بعد خمسة شهور من توليته ومبايعة شهاب الدين بالسلطنة •

١٢٦ — الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد :

تمت مبايعته فى سنة ٧٤٣ هـ الموافقة ١٣٤٢ م وطلع الى القلعة وبايعه الخليفة العباسى والقضاة الأربعة •

بدأ شهاب الدين عهده بالانتقام من قتلة أخيه الأول سيف الدين ثم بدأ فى الضرب على يد المماليك الكبار ، وذهب الى خزائن بيت المال وأخذ منها الكثير ورحل من القاهرة الى الكرك التى كان يقيم بها ، معلنا أنه سوف يحكم مصر من امارة الكرك وسينقل ادارة الحكم اليها •

أدى ذلك الى اضطراب الأحوال فى مصر ، وضــاعت حقــوق المسلمين وتعثرت أحوال التجارة ، فأرسل الخليفة العباسى اليــه فى الكرك يستقدمه الى مصر فرفض ، وهنا حضر الخليفة والقضاة الأربعه الى القلعة وأعلنوا خلع السلطان أحمد شهاب الدين بعد ثلاثة أشهر من توليته ومبايعة أخاه اسماعيل بن الملك الناصر .

١٢٧ ـ الصالح أبو الفدا عماد الدين اسماعيل :

وهو أحد أبنــاء الملك الناصر محمد بن قــلاوون ولعــل هــذا الاضطراب فى الحكم كان وليــدا لوفاة سلطان قوى له أبنــاء ضعفاء محاطون بالفتن ، فقد وجدنا أنه بينما حكم السلطان الناصر محمــد مصر لمدة أربعين سنة ، فقد شهدت الفترة التى تلت وفاته تتابع أربعة من أبنائه على الحكم لمدد قصيرة للغاية دون نهج قويــم .

أخذ الأمراء على الملك الجديد اسماعيل العهــد باقامة العــدل ومراعاة حقوق الجميع ، وكان هو بطبيعته ميــالا الى الاســتقامة والتقوى ، واستوزر بالتالى وزيرا عادلا وله فى مصر الهيبة والاقدام وهو الحاج آل ملك . وبدأت مسيرة الحكم تأخذ مجراها الطبيعى لولا أحداث المؤامرات مرة أخرى . كان اسماعيل يطالب أخاه الملك السابق أحمد بالأموال التى كان سلبها من خزانة القاهرة ، وبدأ النزاع وانتهى النزاع المسلح بينهما الى مقتل أحمد شهاب الدين ، ورغم أن اسماعيل كان سببا فى مقتل أخيــه الا أنه حزن عليــه حزنا شديدا أدى به الى المرض والموت بعد ثلاث سنوات من حكمه ، وبويــع بعده أخاه الملك الكامل بن الناصر محمد .

١٢٨ ـ الكامل زين الدين شعبان بن الناصر محمد :

تولى شعبان بن محمد بن قلاوون حكم مصر فى ســنة ٧٤٦ هـ الموافقة ١٣٤٥ م ولكنه أساء التدبير وأهمل شئون الدولة تماما ، وكانت حياته مزيجا من اللهو والعبث .

كانت أمه جارية رومية حرضته على باقى أخوته حتى لا ينازعوه السلطان . فقبض على أخويه حاجى وحسين ، وعزل بعض مماليك أبيه المقربين وأشاع الظلم والتعسف ، فلم يرضى الأمراء والقضاة بحكمه ، وأرسلوا اليه ليعاهدوه على اقامة العدل والموازين بالقسط • فرفض . فما كان منهم الا الاستعانة بنائب حلب ، ولكنه لم يستمع الى آية نصائح . فاجتمع الأمراء على خلعه بعد سنة وشهرا من حكمه فدارت بين مماليكه وجملة المماليك نزاعات عسكرية انتهت بمقتله وتولية أخيه حاجى •

١٢٩ ــ المظفر حاجى بن الناصر محمد :

بايعه الأمراء والقضاة فى سنة ٧٤٨ هـ الموافقة ١٣٤٧ م • استمرت الفتن فى بيت قلاوون ، ولم يكن السلطان الجديد أهلا لتحمل المسئولية وأطاع هواه واستمرت حياته فى هزل ، واستخف بالأمراء ، ورفض حاجى مشورة القضاة له بخلع نفسه عن السلطنة سلميا اتقاء لسفك الدماء ، ودخل مع جند المماليك فى قتال دموى قتل على أثره بعد بسنة وثلاثة أشهر من حكمه ، واجتمع الأمراء بعد ذلك لتولية أخاه أبى المحاسن حسن •

١٣٠ ــ السلطان حسن بن الناصر محمد :

تمت مبايعته فى سنة ٧٤٨ هـ بعد مقتل السلطان حاجى • تلقب باسم الملك الناصر وهو لقب والده •

فى أول عهده حدث فى مصر وفى الشرق كله طاعون كبير ، بل وانتقل هذا الطاعون الى أوروبا ، وسمى فى تاريخ العصور الوسطى باسم الوباء الأسود • فوقع الفناء والفلاء ، وقلت زراعة الأرض ومات كثير من الناس ، وانخفض حجم التجارة وظهر القحط ، فما كان من السلطان الجديد الا أن يعمل على ترشيد نفقات الدولة فأعلن التعبئة بين الناس لأغراض جمع المال لاقامة الجسور ولدفن الموتى

ولحرق ما خلفه الطاعون من رمم الحيوانات حتى لا تنتشر العدوى .
وانشغل علمـاء المسلمين بالدعاء الى الله لكى يذهب هذا الوباء ؛ وحث الناس على التوبة والمغفرة .

عين السـلطان حسن أحد الوزراء المتعسفين لجمـع الخراج . فأحدث هـذا الوزير الكثير من المظالم ، فضج الأمراء منه وطالبوا السلطان بخلعه فلم يستجب لهم ، فاتفقوا فيـما بينهم على خلـع السلطان حسن نفسـه وبايعوا أخاه الصالح صلاح الدين بعد ثلاث سنوات ، وكانت هذه هى الفترة الأولى من حكم السلطان حسن التى انتهت فى سنة ٧٥٢ هـ الموافقة ١٣٥١ م .

١٣١ ــ الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد :

وهو أحد أبناء الناصر محمد بن قلاوون . فى أول عهده تمامت فتنـة كبيرة بين جند المماليك بعضهم بعضا ، حيث كان الصالح قد فوض أمور دولته الى أحد الوزراء ويدعى طازا ، فشق ذلك على بقية المماليك وقامت نزاعات عسكرية قتل فيها جند كثـيرين . واضـطر السلطان صلاح الى تعيين نائب جديد وهو الأمير قابلاى الذى كان محبوبا من عامة المماليك والناس .

كذلك حدثت فتنـة فى الشام حيث أراد نائبها الاستقلال بها . فخرج اليه السلطان صلاح وأعاد الشام الى السلطنة المملوكية .

عمل السلطان صلاح أثناء حكمه على تطهير البلاط المملوكى من لصوص المماليك الذين أثروا ثراءا فاحشا على حساب الشعب استغلالا لمناصبهم فلم يرحم كبيرا أو صغيرا من المحاسبة أو المراقبة . ولكنه أحدث مظالم عديدة أيضا ، فواجه ثورة العربان فى الصعيد مواجهة وحشية قتل فيها الآلاف من العربان والفلاحين حتى أن بعض المؤرخين يصف هـذه المواقع بأنها شبيهة بأفعال هولاكو فى بغداد .

كذلك كان السلطان صلاح متعصبا مع أهل الذمة ، فشرع بعض القوانين التى تحرم على اليهود والنصارى شغل المناصب الهامة ، وتعسف معهم ، فجعل عمائم اليهود والنصارى أقل من حيث الحجم والشكل من عمائم المسلمين ، وفرض عليهم مكوسا وضرائب جديدة .

ضج أهل مصر من المسلمين وغير المسلمين بهذا النوع الغريب من الحكم مما اضطر الأمراء الى خلعه بعد ثلاث سنوات من حكمه .

واجتمعت الكلمة على عودة السلطان حسن مرة أخرى ..

الفترة الثانية من حكم السلطان حسن

بدأت هذه الفترة سنة ٧٥٥ هـ الموافقة ١٣٥٤ م فأبطل المكوس التى قد فرضها أخوه على أهل الذمة ، وبدأ فى ادارة مصر واعمارها ، فبنى مسجد السلطان حسن ، التى يعتبر من أفخر آثار المماليك ، وجعل منه مسجدا ومدرسة كبيرة ، وبنى بجواره منازلا للطلاب الذين يفدون لطلب العلم . واستمر فى اعمار مصر وتشييدها . وكانت مدرسة السلطان حسن بمثابة اختبار عظيم نجح فيه صناع أهل مصر المهرة وبناؤوها وكان كان بهاء الدين قراقوش هو القائم على بناء القلعة فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، فان الوزير شيخوا كان هو القائم على بناء المسجد والمدرسة فى عهد السلطان حسن .

واستطاع الوزير الأول شيخوا الى جانب مهارته فى البناء والمعمار اقامة العدل بين أهل مصر .

أبطل السلطان حسن عادة سيئة كان يتبعها الأقباط وأهل مصر فى كل سنة ، حيث كانوا يحتفظون بأحد أصابع أحد أحبار الأقباط فى عصر الرومان وذلك فى صندوق محفوظ باحدى كنائس شبرا وكانوا فى كل سنة يقيمون عيدا يسمى عيد الشهيد ، ويغسلون هذا الأصبع فى النيل ، وكان الناس يظنون أن هذا الغسيل يؤدى الى زيادة النيل وشيوع البركة . فأمر السلطان حسن بابطال هذه العادة السيئة

حيث كان عيد الشهيد يجرى فيه الفجور والمفاسد وشرب الخمر ، فأحرق الأصبع ونثر رماده فى النيل ، وأبطل اعتقاد الناس فى البدع والخرافات •

مات السلطان حسن بعد فترة دامت سبع سنوات فى فترة حكمه الثانية ، فتكون المدة الاجمالية التى حكم فيها مصر نحو عشر سنوات . وقد مات مقتولا اثر فتنة قامت بين مماليكه ومماليك أحد الوزراء الدين خشوا مصادرة أموالهم ، وهو الأمير بيليغا • وكان ذلك فى سنة ٧٦٢ هـ الموافقة ١٣٦١ م • واحتج القضاة وبايعوا ابن أخيه المنصور محمد •

١٣٢ ــ السلطان المنصور محمد بن حاجى حفيد الناصر محمد :

بويع بالسلطنة بعد مقتل عمه السلطان حسن ، كان المنصور محمد صغيرا حين تولى حكم مصر . وكان ذلك الأمر لتسلط الأمير يلبغا قاتل السلطان السابق حسن ، الذى أغفل وجود الأمير أحمد ابن السلطان حسن ، وأغفل أيضا الأمير حسين بن السلطان الناصر محمد •

حيث خشى الأمير يلبغا بأسهما وبايع الأمير الصغير المنصور محمد •

بدأ عهد المنصور محمد بمقاتلة فتنه الشام التى أرادت ازاحة يلبغا من منصبه لاتهامه بقتل السلطان السابق •

أنشأ المنصور محمد عدة مدارس فى مصر والشام ، وسرعان ما دب الخلاف بينه وبين نائبه يلبغا الذى اتسع نفوذه ، كما كان من النائب الا التآمر على السلطان وخلعه بعد مدة سنتين وثلاثة أشهر قضاها المنصور محمد فى حكم مصر وبايع الخليفة والقضاة حاكما آخر على مصر من أحفاد الناصر محمد وهو شعبان بن حسين •

١٣٣ ـ الأشرف شعبان بن حسين حفيد الناصر محمد :

تولى فى ٧٦٤ هـ الموافقة ١٣٦٢ م ، وكان أبوه حسين هو الوحيد من بين أبنــاء الناصر محمد الذى لم يتوج سلطانا على مصر ٠

كان السلطان شعبان حين توليــه طفلا تجاوز العاشرة من عمره واستمر الحكم الفعلى للوزير يلبغا ٠

استمر حكم مصر فى الاضطراب نتيجة الفتن التى آثارها الأمير يلبغا ومماليكه ضد سائر المماليك ٠

اضطربت أيضا أحوال الجيش المصرى فى هذه الآونة ، ولم يعد له الهيبه التى كانت له فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ولذلك تعرضت مصر لغزو جديد ؛ وكان هــذه المرة غزوا صليبيا من قبرص ، وفى سنة ٧٦٧ هـ الموافقة سنة ١٣٦٥ م قام الاسطول الصليبى المؤلف من سفن قبرص ورودس وجنود البندقية بغزو الاسكندرية بقيادة بطرس الأول ملك قبرص . وكان الهدف اخضاع مصر تمهيدا لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين واستباح الاسطول الصليبى الاسكندرية ونهبها وأسر عدة آلاف من أهلها ، وأبحرت السفن الصليبيــة من الاسكندرية محملة بالغنائــم دون أن تجد مقاومة تذكر ٠ ثم تحرك الســلطان الأشرف شعبان الى الاسكندريــة بعد فوات الأوان ، ثــم جرت المفاوضات بين ملك قبرص والسلطان الأشرف وأسفرت عن معاهدة عدم اعتداء بين الجانبيين ٠

وفى اطار الضعف الذى حل بالسلطنة المملوكية تخلص الأشرف شعبان من وزيره الأول الظالم يلبغا ، وبدأ الأشرف يجرى مراســم العدل فى مصر . واحترم مواثيقه مع أهل الذمة ، ولمــا حدث الغلاء الشديد والقحط فى مصر استطاع الأشرف شعبان تدبير الأمور بحكمة بالغة حتى مرت الأزمة بسلام ٠

كان المحيط الدولى حول مصر يموج بثلاثة قوى ، أما الأولى فكانت قوة المغول فى فارس والعراق ، وكانت أطراف الدولة المغولية قد اتسعت حتى الهند .

وكانت القوة الثانية هى قوة دولة آل عثمان التى بدأت فى النمو والاضطراد حول الأناضول .

أما القوة الثالثة فكانت قوة الأرمن وهى قوة مسيحية فى أطراف آسيا الصغرى .

استطاع أمير حلب أن يستولى على عاصمة مملكة الأرمن وتسمى سيس ، وأخضعت سيس لحكم السلطنة فى مصر ، وتم أسر آخر ملوكها ، وتبعثرت بعد ذلك مملكة الأرمن بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية .

قتل الأشرف شعبان فى رحلته الى الحج سنة ٧٧٨ هـ الموافقة ١٣٧٦ م بعد نحو أربعة عشر عاما قضاها فى حكم مصر ، وكانت آخر أيامه شاهدة على العدل والتدبير والاعمار . وبعده بايع العلماء والأمراء ابنه المنصور على فى حكم مصر .

١٣٤ ــ المنصور على بن الأشرف شعبان :

كان طفلا صغيرا دون الثامنة من عمره وقت توليته ، وكان وزيره الأول مملوكا جركسيا من ضمن المماليك البرجية التى كان قد أتى بهم الناصر محمد بن قلاوون ولما كان الملك المنصور صغيرا فقد تولى الوزير الأول برقوق مصر .

مات الملك الصغير المنصور على بعد خمس سنوات من الحكم الاسمى لمصر ، وتولى بعده أخوه الصالح حاجى .

١٣٥ ـ الصالح حاجى بن الأشرف شعبان :

وكان أيضا وقت توليــه صغيرا فى السن ، واستمر تحت وصاية الوزير الأول برقوق الذى كان يدير أمور الدولة •

كانت الاضطرابات قد ســادت البلاد حيث تمرد العربان فى صحراء مصر وفى صعيدها ، كذلك تمرد نواب الشـــام وخرجوا عن طاعة السلطان ، فعمل الأمير برقوق على استدعاء الخليفة العباسى والعلماء ، وأقنعهم بضرورة وجود السلطان القوى فى مصر حتى تجتمع المهابة والطاعة لدولة الخلافة من سائر أطراف البلاد • وبالفعل وافق الخليفة والقضـــاة على مبايعة الأمير برقوق حاكما على مصر بعد سنة وبضعة شهور حكمها اسميا السلطان الصالح حاجى •

وبنهايــة حكم السلطان حاجى تكون قد انتهت صفحة أسرة قلاوون بعد أكثر من قرن فى حكم مصر ، ولتبدأ صفحة جديدة من حكم المماليــك البرجية أو المماليك الجراكسية وكان ذلك فى سنة ٧٨٤ هـ الموافقة سنة ١٣٨٢ م •

حكام مصر من المماليك الجراكسة

تمهيد حول أصل ونشأة المماليك الجراكسة :

ترجع أصولهم الى أوائــل عهد السلطان سيف الدين قلاوون الأول حين عزم على تكوين فرقة جديدة من المماليك يكون اخلاصهـــا وولاؤها له وأطلق قلاوون على أفراد هــذه الفرقة اسم المماليــك البرجية اشارة الى أبراج القلعة التى أنزلهم بها •

وقد عمل السلطان قلاوون بذكاء شديد على أن تكون عناصر هذه الفرقة من غير عناصر المماليك القائمين فعلا • فقد كان المماليك البحرية ومنهم قلاوون نفسه من أصول خوارزمية وتركمانية وتتـــار وأتراك . ولذلك فان فرق المماليك البرجية التى كونها قلاوون كانت من

الجراكسة وأصلهم من شمال القوقاز ، ويغلب أيضا العنصر الجركسى على المستجلبين من شرق البحر الأسود •

وكان هؤلاء المماليك الجدد الذين استجلبهم قلاوون وأسرته من بعده الى مصر من الذين امتلأت بهم أسواق الرقيق بعد غارات التتار على بلادهم • أصبح المماليك الجدد فرق يعتد بهم ، واشتد عودهم مع الأيام حتى أصبحت منافسا خطيرا للمماليك الأتراك ، الى أن ضعف بيت قلاوون وبزغ نجم مملوك جركسى قوى ليثب الى قمة السلطة وهو السلطان برقوق •

١٣٦ ــ السلطان برقوق بن أنس الجركسى :

تولى الحكم فى فترته الأولى سنة ١٣٨٢ م ، ٧٨٤ هـ • وأصله من قبيلة كسا الجركسية الواقعة شرق البحر الأسود • وقد بيع فى أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم وواستجلب الى القاهرة واشتراه أحد الأمراء وهو يلبغا فى عهد السلطان شعبان ، ولذا كان يسمى برقوق اليلبغاوى •

وقد لمع نجمه لما اشتهر به من الفروسية والذكاء والشجاعة ، ولما بلغ نحو الأربعين من عمره صار حاكما على مصر •

كان السلطان برقوق وقت أن كان أميرا للجند فى أواخر عهد أسرة قلاوون قد حقق درجة عالية من النفوذ والهيبة ، فقد قضى على فتنة العربان فى البحيرة الذين كانوا يرفضون حكم المماليك منذ زمن طويل • بدأ برقوق حكمه بتطهير المناصب العليا من يد الأتراك وجعل تلك المناصب فى يد الجراكسة ، وعمل على تنظيم ادارة البلاد تنظيما جديدا أشاد به ابن خلدون الذى توافقت زيارته الأولى لمصر مع عهد السلطان برقوق •

حاول المماليك الأتراك الاطاحة بالسلطان برقوق ، واتفقوا مع الخليفة العباسى على تنصيبه هو حاكما على مصر ، وما أن علم برقوق

بهذه المؤامرة حتى بادر بخلع الخليفة من منصبه ، وعين بدلا منه عمه الواثق بالله .

استمر برقوق يواجه الفتن الداخلية من قوتين مناهضتين أولاهما كانت قوة المماليك الأتراك ، وثانيهما كانت قوة العربان الذين كانوا ينادوا بسلطة العرب لحكم مصر . واستطاع الأتراك أن يقطعوا طريق الشام على السلطان برقوق واستولوا على دمشق ، فما كان من السلطان برقوق الا التقرب من أهل مصر وعمل على ابطال المظالم والمكوس . غير أن المماليك الأتراك غزوا القاهرة فى سنة ٧٩١ هـ الموافقة ١٣٨٩ م ، واختفى السلطان برقوق واستطاع الأمير يلبغا قائد المماليك الأتراك اعادة السلطة لأحد أفراد أسرة قلاوون مرة ثانية وتم اعتقال برقوق ونفيه الى الكرك . فكانت فترة حكمه الأولى نحو سبع سنوات .

كان يحترم العلماء ويجلهم وأنشأ المدرسة الظاهرية بين القصرين واهتم بالادارة ، ولكن الفتن الداخلية شغلته عن متابعة أعمال النهضة باقتصاد مصر .

لم يستطع مماليك الأتراك المحافظة على الوضع الجديد ، وحدث الخلاف بينهم فعاد برقوق بعد سنة واحدة من خلعه ليبدأ فترة ثانية من حكمه فى سنة ٧٩٢ هـ الموافقة سنة ١٣٩٠ م .

كان المحيط الدولى حول مصر يموج بظاهرة جديدة ، فقد كان المغول فى الشرق تحت قيادة جديدة وحشية وهى قيادة تيمورلنك خان . سقطت بغداد فى يد تيمورلنك ، وسقطت بعدها بلادا أخرى تابعة للسلطنة المملوكية فى الشام ، وهدد السلطان المغولى مصر . وبدأ برقوق فى اعداد جيش مصر لمقاتلة المغول الذى كانت تحالفهم الانتصارات من كل الجهات .

أراد السلطان برقوق توحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة تيمورلنك فراسل السلطان بايزيد الأول سلطان الدولة العثمانية لهذا الغرض .

وأعد برقوق عدتـــه لمقاتلة المغول ، ولكنه لم يمهله القدر لانجاز هذه المهمة حيث مات السلطان برقوق فى فترة الاعداد فى سنة ٨٠١ هـ الموافقة سنة ١٣٩٩ بعد نحو سبعة عشر سنة فى حكم مصر .

خلف برقوق وراءه ابنه فرج ليليـــه فى حكم مصر .

١٣٧ ـ الناصر فرج بن السلطان برقوق :

تولى حكم مصر بعد وفاة أبيـــه فى سنة ٨٠١ هـ . انتهز تيمورلنك موت السلطان القـــوى برقوق ، وبدأ يجهـــز للزحف على الدولـــة المملوكيـــة ، ويمنع الاتصـــال بين المماليك فى القاهرة ، والعثمانيين فى الأناضول . ووقع الخطأ الفادح من السلطنة المملوكية فى القاهرة التى رفضت محالفة السلطان العثمانى الذى عرض التحالف مع مصر لمقاومة التتار . ولكن السلطان فرج وقواده لم يستجيبوا لهذا الغرض .

ودخلت جيوش التتار بقيادة تيمورلنك الى الشـــام ، واستولت على دمشق وحلب ، واستسلم الشام ، وانسحبت جيوش السلطان فرج الى القاهرة وكانت هزيمة مروعة للجيش المملوكى .

اتجه تيمورلنك بعد ذلك الى أنقرة وهزم الدولة العثمانية وأسر سلطانها . وفقد السلطان المملوكى فى القاهرة احترام العالم الاسلامى لتقاعسه عن مواجهة تيمورلنك .

وانتشر الذعر فى القاهرة واضطربت الأحوال الاقتصادية ، وخاف الناس من زحف تيمورلنك على القاهرة ، واستسلم السلطان فرج لشروط تيمورلنك الذى صار هو القوة الوحيـــدة فى الشرق ، وكان استسلاما مهينـــا لمصر ، فقد تعهد فرج بالاعتراف بسيادة تيمورلنك على العالم الاسلامى ، وأعرب عن استعداده لضرب العملـــة باسمه والدعاء على المنابر له مع سلطان مصر . وكانت هزيمة سوداء أعقبتها المهانة للسلطة المملوكية . لم يوقف تلك المهانة الا وفاة تيمورلنك فى سنة ٨٠٧ هـ الموافقة سنة ١٤٠٥ م .

لم يقتنع أهل مصر بسلطنة فرج التى أدت الى الهزيمة ، فبدأت المؤامرات لخلعه . كان فرج يعتمد على المماليك الجراكسة لاسكات الأمراء والجند . استمر التطاحن والنزاع الى أن قتل فرج بن برقوق فى سنه ٨١٥ هـ الموافقة سنة ١٤١٢ م بعد حكم دام أربعة عشر سنة . ذاق فيهم الهزيمة المرة . وعانت مصر فيها معاناة أليمة من الفتن وسوء الاحوال .

على اثر مقتل السلطان فرج عين الأمراء الخليفة العباسى سلطانا على البلاد لفترة مؤقتة حتى يستقيم الأمر فى اختيار سلطان جديد . وبالفعل تم مبايعة الملك المؤيد شيخ المحمودى .

١٣٨ ـ السلطان المؤيد شيخ المحمودى :

وهو صاحب الجامع المشهور بالقاهرة باسم المؤيد ، استمر حكمه ست سنوات قاسى فيهم شدائد كثيرة ، فقد استشرى الطاعون فى مصر واحتدم الصراع بين المماليك بعضهم بعضا فى مصر من جهة ، وبين جند السلطنة ونواب الشام الذين لا يلبثون أن ينتهزوا ضعف السلطنة للاستقلال بحكم الشام .

مات المؤيد فى سنة ٨٢٤ هـ الموافقة سنة ١٤٢١ م ليتولى ابنه الرضيع اسميا تحت وصاية الأمير ططر الذى تولى امارة الجند وتزوج من والدة السلطان الصغير ، ولكن لم يلبث التمرد أن حدث ضد الأمير ططر الذى استطاع المقاومة ، وخلع السلطان الطفل وبويع سلطانا على مصر .

١٣٩ ـ الظاهر أبو الفتح ططر :

بويع بالسلطنة فى سنة ٨٢٤ هـ ، ولم تستمر ولايتـــه فى الحكم سوى أشهر معدودة مات بعدها موليـــا ابنه محمد الذى كان طفلا صغيرا ، وكان وزيره الأول أحد المماليك الرومية الأمر الذى جعل مملوكا آخرا من المماليك الجراكسة يثب الى الحكم ، وهو برسباى ليبدأ فى مصر عهد جديد على يد حاكم قوى .

١٤٠ — الملك الأشرف برسباى :

بايعه الخليفة والقضاة فى سنه ٨٢٥ هـ الموافقه سنه ١٤٢٢ م لبدأ عهد جديد مستقر بعد سنوات من الاضطراب والضياع والهزيمه بدأ برسباى عهده بالتركيز على ثلاثة محاور أساسيه .

أولها : الاستقرار الداخلى حيث كانت الفتنة تحتدم بين المماليك القدماء (القرانيص) وبين المماليك الجدد الجراكسة (الأجلاب) . واستطاع برسباى بحنكته أن يخفف من آثار هـذا التنازع . وتوزع الأمراء من الجانبين على المقاطعات المختلفة من مملكته حتى يضمن ثبات أركان الحكم ، وليبدأ فى اعداد الجيش القوى الذى يعيد الهيبه للدولة المملوكية .

ثانيها : مقاومه بقايا الصليبيين الذين كانوا قد اجتمعوا فى جزيرة قبرص وكانت قواتهم البحرية تهدد سواحل المملكة ، وبالفعل أعد برسباى جيشا قويا واستطاع أن يرسل حملتين الى قبرص . كانت أولاهما كافيـة لتحطيم جيش الصليبيين ، وكانت ثانيتهما كافيـة لاحتلال الجزيرة وأسر ملكها جانوس الذى دخل به الجيش المملوكى الى القاهرة أسيرا مع غنائم كثيرة ، واستطاع برسباى أن يعيد مواكب النصر مرة أخرى الى القاهرة ، وهنا وطد السلطان دعائـم حكمه وقيادته لمصر ، وكان ذلك فى سنة ٨٢٩ هـ الموافقة ١٤٢٦ م . وأصبحت جزيرة قبرص ضمن السيادة المصرية .

ثالثهما : مقاومة التهديـد المغولى للسلطنـة المملوكية ، فكان الامبراطور المغولى شاه رخ ابن تيمورلنـك يعتبر نفسه أقوى ملوك المسلمين ، وبدأ فى تهديد السلطنة المملوكية ، واستطاعت قوة الأشرف برسباى أن توقف أطماع المغول ، بل ورفض برسباى طلب الامبراطور المغولى مجرد الاشتراك مع مصر فى تجهيز محمل الكعبة ، ورفضت كل شروط المغول ، وأصبح للدولة المملوكية فى عهد برسباى الاحترام والهيبة بين جميع الدول .

استمر عهد برسباى فى مصر نحو سبعة عشر عاما كان نفوذ مصر يصل الى الشام والمغرب والحجاز وقبرص والى بلاد النوبة ، وزادت حركة التجارة فى عهده زيادة كبيرة ، الا أن تطبيق سياسة الاحتكار جعل ثمار هذا الرواج بعيد عن الشعب واستمتع به المماليك أنفسهم ، ولم يرتفع مستوى المعيشة لأهل مصر رغم ما تحقق من استقرار وزيادة فى الانتاج •

مات الأشرف برسباى فى سنة ٨٤١ هـ الموافقة ١٤٣٧ م مخلفا وراءه على الحكم ابنه يوسف دقمق •

١٤١ - العزيز يوسف جمال الدين دقمق :

تولى حكم مصر بعد وفاة أبيه ، وكان شابا صغيرا أعطى شئون الحكم والادارة لوزيره الأول جقمق العلائى الذى كان هو المتصرف الوحيد فى المجالين السياسى والاقتصادى •

وكما هى العادة كان الوزير الأول ينتهز طفولة السلطان الصغير ليعد العدة للاستيلاء على السلطة ، وهكذا فعل الوزير جقمق بعد شهرين من تولية يوسف بن برسباى فعزله وتولى هو السلطنة •

١٤٢ - الظاهر أبو سعيد جقمق العلائى :

بويع بالسلطنة ، وكان فى الأصل من مماليك برقوق ، وأخذ فى الترقى بين الجند حتى صار أميرا للجند ثم تولى السلطنة بعد خلع السلطان الصغير ابن برسباى •

ولكن الفتن ما لبثت أن عادت فى عهده وكان مصدرها مماليك السلطان يوسف وأمراء الشام • واستطاع جقمق معالجة هذه الفتن بالقوة واستتب له الحكم فى مصر والشام ، وبدأ فى مقاومة القراصنة الصليبيين وهدد جزيرة رودس التى كان ينطلق منها هؤلاء القراصنة الى أن خضعوا له فى النهايه وعقدوا معه الصلح •

واستمر جقمق فى احتكار النشاط الاقتصـــادى . وذلك خـــلال أربعة عشر سنة من حكمه عمل خلالها على انهاء التنازع مع القـــوى الخارجية ، فعقد صلحا مع شاه رخ ابن تيمورلنك وسمح له بالاشتراك فى كسوة الكعبة ، ووطد علاقته بالسلطان العثمانى مراد الثانى .

وعلى ذلك باتت القوى المملوكية والعثمانيه والتيموريه فى علاقات وديـــة متضامنة . ومع كل النجاح فى السياسة الخارجيـــة لم ينجح السلطان جقمق فى تهدئة الأحوال الداخليه . فمن ناحيه كان تمرد المماليك السلطانية ومن ناحية أخرى كان الفساد والرشوة هما الصفة الدائمة لرجال الدولة وذوى المناصب الادارية العليـــا كذلك شهد عهده تمرد الأرقاء السود من الصعيد الذين اضطر جقمق أن يرحلهم من البلاد الى الدولة العثمانية .

كان السلطان جقمق رجلا تقيـــا ورعا شهدت مصر فى عهده تطبيق الأحكام القرآنية من حيث الالتزام بالآداب الاسلاميه وابطال الفواحش ومعاقبتها ، كذلك كان جقمق ميالا الى المشورة الا أنه لم يكن من القوة التى يستطيع بها ابطال الفساد والرشوة . وكانت نهايته على فراش المرض حيث دعا الأعيان والأمراء ، وطلب اليهم أن يختاروا من هو جدير بالكفاءة والنزاهة دون أن يفرض عليهم شخصا معينا . وكانت تلك سابقة لم يسبقه اليها أحد من المماليك ، ومع ذلك بايـــع الأمراء والعلماء ابنه عثمان وكان ذلك بعد وفاة جقمق فى سنة ٨٥٧ هـ الموافقة سنة ١٤٥٣ م .

١٤٣ ــ المنصور أبو السعادات عثمان :

هو ابن السلطان جقمق ، كانت توليته من جانب العلماء اكراما لأبيه ، وكانت امارته مؤقتة ، فلم يمكث فى السلطنة الا نحو شهرين اختلف المماليـــك فيها على توليـــة واحد منهم ، فكانت الغلبة للأمير اينـــال العلائى .

١٤٤ ـ الأشرف اينـــال العلائى :

بويع بالحكم فى سنة ٨٥٧ هـ ، وكان أميرا للجند ، وكان المحيط الدولى حول مصر يشهد ازدهار الدولة العثمانية تحت قيادة محمـــد الفاتـــح . حيث استطاع ذلك الملك غزو القسطنطينية وفتحها ، وقد كان هـــذا الفتح هدفا عظيما منذ صدر الاسلام ، وكان هذا الفتـــح نصرا جديد للدولة الاسلامية مجتمعة .

وأوفد سلطان مصر وفدا كبيرا لتهنئة محمد الفاتح بهذا النصر المبين .

كان الأشرف اينال وقت توليتة يبلغ الثالثة والسبعين من عمره ، ولذلك كان ضعيفا أمام مماليكه الذين استشرى نفوذهم بشكل كبير .

ومن أبرز ما قدمه اينال فى فترة حكمه العمل على ابطال الغش فى النقود الذهبيه والفضية ، وأحل نظاما نقديا جديدا .

أصاب الأشرف اينال نجاحا ملموسا فى السياسة الخارجية ، فعمل على توطيد علاقاته بالسلطان العثمانى محمد التانى الفاتح ، وعقد معاهدات صلح مع أمراء الأطراف الشمالية للسلطنة المملوكية .

مات الأشرف اينال بعد ثمانية أعوام من حكمه ، وكان قد تنازل عن الحكم لابنه الأكبر أحمد فى سنة ٨٦٥ هـ الموافقة سنة ١٤٦٠ م .

١٤٥ ـ المؤيد أحمد بن اينال :

وكان شابا وديعا أراد أن يسلك نهج أبيه فى الاصلاح والادارة العادلة الا أن الحزبية المملوكية رفضت وجود مثل هـــذا المسلك غير المنحاز ، فاجتمعت كلمة المماليك الجراكسة على خلعه ، وكما هى العادة كان الوزير الأول للمؤيد أحمد هو السلطان الفعلى وهو السلطان الجديد ويدعى خشقدم .

١٤٦ — الظاهر خشقدم الرومى :

تعنى كلمة خشقدم فى اللغة الفارسية قدم السعد . ويرجع أصل خشقدم الى المماليك الأجلاب . وتذكر بعض المصادر أنه من أصل يونانى وكان يغلب على طباعه نكران الجميل .

تولى الحكم فى ٨٦٥ هـ ، وأخذ فى جمع الثروة لنفسه ، وهدم موازين العدل(١) ، ومساومة المتقاضين أمامه على مبالغ معينة ليكون الحكم فى صالح من يعرض دفع المزيد .

كانت سياسته الخارجية غير حكيمة اذ بدأ النزاع مع الدولة العثمانية فى غير حكمة أو سبب .

مات خشقدم بعد مرض مفاجىء ، وبعد عهد أسود استمر نحو ست سنوات ضج فيه الناس ، واستمرت مصر بعده فى اضطرابات وفتن حول من يتولى أمور المملكة الى أن بايع الجند رجلا جديدا من الأقوياء وهو أمير الجند قايتباى الذى دخلت مصر فى عهده مرحلة جديدة .

١٤٧ — الملك الأشرف قايتباى المحمودى :

تولى حكم مصر فى ٨٧٢ هـ الموافقة سنة ١٤٦٧ م ، وكان من أحد مماليك الأشرف ، ولم يكن طامعا فى الحكم مثل سابقيه من المماليك .

استمر الأشرف قايتباى حاكما لمصر لمدة تسعة وعشرون سنة فكان عهدا جديدا جعل من قايتباى ألمع المماليك الجراكسة على مسرح الحياة المصرية .

بدأت أولى المشكلات السياسية فى عهد قايتباى عندما أعلن أحد أمراء التركمان التابعين للسلطنة المصرية استقلاله ، فاستطاع جيش قايتباى بقيادة الأمير يشبك هزيمة الأمير المنشق واخضاع باقى الامارات التركمانية لحكم مصر .

وكانت ثانى المشكلات السياسية حدوث تمرد تزعمه أمير العراقيين حسن الطويل ضد قايتباى ، غير أن التحالف بين السلطنة المملوكية والدولة العثمانية لم يمكن الأمير الطويل من تحقيق مأربه فى انشقاق امارات الفرات عن السلطة المملوكيه •

ولكن بقيت مشكلة ثالثة استفحلت حتى أدت فى نهاية الأمر الى القضاء على حكم المماليك بصفة نهائية • وهذه المشكلة كانت تكمن فى اتساع نفوذ الدولة العثمانية ، وتولى السلطان العثمانى بايزيد الثانى عقب وفاة محمد الفاتح ، فبدأت المشكلات بين السلطان الجديد وسلطان مصر قايتباى الذى كان قد استضاف أميرا عثمانيا من اخوة السلطان بايزيد وأكرمه مع رفاقه ، فاعتقد السلطان بايزيد أن مصر تساعد المتمردين على حكمه ، وبدأت الصدامات العسكرية بين الجانبين ، فوقع أول هذه المنازعات فى سنة ٨٩١ هـ الموافقة سنة ١٤٨٦ م ، واستطاع الأمير يزبك قائد الجيش المصرى هزيمة الجيش العثمانى على حدود الشام •

وتجددت الاشتباكات مرة أخرى فى سنة ٨٩٣ هـ بين جيش المماليك وجيش العثمانيين ، فاستطاع أيضا الأمير يزبك أن يحسم هذا الصدام بانتصار بحرى ساحقا • فاضطر السلطان العثمانى أن يعقد صلحا مؤقتا مع السلطان الأشرف قايتباى •

كانت حروب مصر مع العثمانيين ، ومع المتمردين من أمراء الشام كافية بأن تنعكس آثارها على السياسة الداخلية فى عهد قايتباى فى شكل المزيد من فرض الضرائب والمكوس على الناس ، وأدى ذلك بالفعل الى ارهاق كاهل الناس ، ولكن حسن الادارة وكفاءة سياسة قايتباى جعلت من مصر أنشط الدول التجارية وأغناها فى العالم اجمع •

فى عهد قايتباى نشطت حركة العمران والبناء ، فمن ناحية أنشأ الأمير يزبك منطقة الأزبكية بحدائقها ومبانيها التى ما زال بعضها

قائمـا حتى الآن ، ومن ناحيه أخرى أنشأ قايتباى قلعته المشهورة فى الاسكندرية ، والتى كانت حصنا بحريا لحماية المدينة • كذلك أكثر قايتباى من المساجد والطواحين والميادين ، وكانت فترته فترة اعمار ملحوظ ما زالت آثاره حتى الآن •

بل وأكثر من ذلك قام قايتباى بتجديد بنايـة المسجد النبوى الشريف ، وجعل من معمار المسجد تحفة معمارية رائعة •

كان المحيط الدولى حول مصر يموج بالتغيرات السريعة ففى الأندلس سقطت بقية الدولة الاسلامية فى غرنـاطة وطويت صفحة الاسلام فى أسبانيـا ، ومن ناحيـة ثانية كانت الدولة العثمانية فى الشرق تبسط سلطانها وتتسع وتقوى مع الأيام •

مات قايتباى سنة ٩٠١ هـ الموافقة ١٤٩٦ م بعد عمر طويل ودام حكمه على مصر تسعة وعشرون سنة ، كان من أكثر عهود المماليـك الجراكسة استقرار ورخاء •

شهدت مصر فى السنوات الخمس التى أعقبت وفاة قايتباى حكم أربعة من السلاطين فى عهود غير مستقرة وغير آمنة ، انتشرت فيها الفوضى وكان ترتيبهم على النحو التالى :

١٤٨ — محمد أبو السعادات :

وهو ابن قايتباى ، استمر فى الحكم لمدة سنتين ، وكان سيئـا فوضويا حيث كان السلطان شابا صغيرا انصرف عن شئون الحكم الى الملذات الخاصة ، تآمر المماليك على قتله ، وبالفعل قتل فى سنة ٩٠٤ هـ الموافقة سنة ١٤٩٩ م • ٤

١٤٩ — قنصوة الأشرفى :

وهو صهر السلطان قايتباى ولم يمكث فى حكم مصر سوى سنة واحدة وبضعة شهور ، ولم يستطع خلالها اخماد الفتن الداخليـة ثم خلعه أحد المماليك الجراكسة يدعى جان بلاط •

١٥٠ ـ جان بلاط :

كان أميرا للجند ، وتولى السلطنة فى سنة ٩٠٦ هـ الموافقة ١٥٠١ م ولم يوفق أيضا فى اقرار الأمن والنظام لعى النحو الذى عرفته البلاد فى عهد قايتباى ، وانتهز المماليك فرصة سفره للشـــام وتـــم خلعه وتعيين طومان باى الأول •

١٥١ ـ طومان باى الأول :

تولى الحكم فى فترة الفوضى التى أعقبت وفاة قايتباى ، وحكم لفترة قصيرة شهدت سفكا للدماء ، فلم يمكث سوى ثلاثة أشهر قتـــل بعدها ليتولى حكم مصر حاكم جديد وهو قنصوة الغورى ، الذى حفل عهده بالأحداث الجسام •

١٥٢ ـ الأشرف قنصوة الغورى :

بايعه الخليفة وأمـــراء الجنـــد فى سنة ٩٠٦ هـ الموافقة ســـنة ١٥٠١ م • وكان من ضمن المماليك الجراكسة الذين ترقوا فى السلم العسكرى حتى يلغ قمته وأضحى سلطانا على مصر •

شهد عهد السلطان الغورى حادثين عظيمين كان لهما كبير الأثر على مسيرة مصر الاقتصادية والسياسية لقرون تاليـــة •

أما الحدث الأول : فهو تحويل التجارة العالميـــة التى كانت تمر عبر الطريق البرى من البحر الأبيض الى البحر الأحمر فى منطقـــة السويس الى الطريق الدائرى البحرى حول رأس الرجاء الصالح • حيث كان البرتغاليون قد اكتشفوا الطريق الجديد وأصبح من السهل للسفن الابحار عبر رأس الرجاء الصالح ، وقد كانت مصر تكسب كثيرا من نقل التجارة العالمية عبر أراضيها فسرعان ما توقف ذلك عقب ذلك الاكتشاف البحرى ، ومن ثم انخفضت ايرادات الدولة ، كما كان من السلطان الغورى الا فرض المزيد من الضرائب على التجار والصناع والزراع •

بدأ البرتغاليون فى انشاء محطة تجارية على الساحل الغربى الهندى تهدد السفن التجارية المتجهة الى مصر ، فأعد السلطان الغورى استعداداته للقتال البحرى ضد البرتغاليين لحماية التجارة العابرة الى مصر ، وبالفعل انتصر الجيش المصرى على البرتغاليين فى سنة ٩١٤ هـ الموافقة سنة ١٥٠٨ م ، ولكن ما لبث الاسطول البرتغالى آن اجتمعت قواه من كافة سفن الغرب وتلاقى مع الاسطول المصرى فى معركة ديو البحرية التى انتهت بهزيمة فادحة للاسطول المملوكى . بحيث لم تعد للتجارة المصرية عبر المحيط الهندى أية قائمة بعد ذلك .

وكان لهذا الحادث الخطير فى تحويل مجرى التجارة عبر رأس الرجاء الصالح الأثر الكبير فى انخفاض عائدات الاقتصاد المصرى ، وارتفاع الضرائب على المصريين .

ومن ناحية ثانية كان الجيش المملوكى يعمل لقمع الفتن الداخلية فى امارات الشام ، ويعمل ضد أخطار الدولة الصفوية فى فارس ، وكان السلطان الغورى فى نفس الوقت يدبر من الانفاق العام لغرض البناء والتشييد فأنشأ مسجد الغورى والمدرسة التابعة له ، وأكثر من الحدائق والبساتين والميادين . واستمر حكم الغورى بين البناء والاعمار من جهة والحرب وقمع الاضطرابات من جهة ثانية ، وبين الظلم والعدل بين الرعية من جهة ثالثة حتى جاء الحدث الثانى الخطير .

كانت الدولة العثمانية قد اعتلى عرشها السلطان سليم الأول الذى بدأ يحقق الانتصارات على الدول المجاورة ، فبدأ بالدولة الصفوية التى سرعان ما استسلمت ، وكان الدور على مصر وكانت السنة الحاسمة ٩٢٢ هـ الموافقة سنة ١٥١٦ م حيث خرج السلطان الغورى نفسه على رأس الجيش المصرى لمواجهة السلطان سليم الأول .

وبالفعل تلاقى الجيشان فى معركة من أشهر معارك التاريخ وهى معركة مرج دابق ، واستبسل الجيش المملوكى بقيادة الغورى فى الدفاع عن أرض مصر والشـــام . ولكنها كانت القوة العسكرية الضخمة التى حشدها العثمانيون ، وكانت الخيانة من جانب بعض المماليك . واستمر السلطان الغورى فى القتـــال حتى استشهد فى المعركة . وفرت بقية الجيوش المملوكية من أمام القوات العثمانية الكاسحة . وبلغت الأنباء مصرا ، وكان لابد من تدارك الموقف(١) ، فقام والد الخليفه وبعض القضاة بتولية طومان باى •

١٥٣ ــ الأشرف طومان باى الثانى :

الحاكم الأخير الشهيد والبطل

كان طومان باى شابا جليلا أحب الناس وأحبوه . كان عادلا وشجاعا الى أقصى الحدود •

تولى طومان باى عرش مصر فى أسوأ الظروف العسكرية فقد تلقت مصر أنباء استشهاد السلطان الغورى ، وهزيمة الجيش المصرى وكان ذلك فى شهر رمضان من ٩٢٢ هـ ، ١٥١٦ م •

رفض طومان باى الاستسلام ، وأعد ما بقى من جيش مصر للقتال مرة أخرى ، وكانت معركة الريدانية ، ودخل سليم الأول الى مصر ، وجرت الخطبة باسمه على منابر القاهرة ، ولكن طومان باى أخذ يهاجم من جديد فى شكل حرب عصابات منظمة . مره من بولاق . ومرة من الصعيد ، ومرة من البحيرة ، واستمر فى مقاومته عدة شهور حتى اجتمعت عليـــه القوى الخارجية والخيانة الداخلية •

استطاع العثمانيون أسر طومان باى والحكم واعدامه فى أول سنه ٩٢٣ هـ الموافقة ١٥١٧ م ، وحزن الناس لهذا الحاكم البطل . وبعده انتهى حكم المماليك فى مصر • ولتبدأ مصر صفحة جديدة من التبعية للدولة العثمانيـــة •

وانتهى حكم المماليك فى مصر

لاشك أن حكم المماليك فى بعضه كان من أزهى عصور مصر . وفى بعضه الآخر كان حكما مظلما .

كان هناك الاستقلال نعم .. بل وكان الحكم فى مصر يسيطر على أقاليم عربية عديدة فى الشرق وفى الغرب أيضا .

استطاع المماليك سواء فى دولتهم الأولى أو الثانية دك معاقل الصليبيين والمغول ، وخلصوا العالم الاسلامى من خطرهم . وحققوا فى المجالات العسكرية انتصارات ساحقة ، بل لقد صد المماليك فى مصر عن الغرب المسيحى خطر المغول وتخريبهم ، وكانوا حجر عثرة أعاقت تقدمهم ، وكانوا همزة وصل نحو اسلام المغول وجنوح بعض حكامهم لأحكام العدل والعقل .

تميز عهد المماليك ببعض السلاطين العظام ، فكان الظاهر بيبرس وكان قلاوون الأول . وكان محمد بن قلاوون ، وكان برسباى وكان قايتباى وكان الغورى ، وكان آخرهم طومان باى الذى سطر سطورا حسنة مضيئة فى صفحة المماليك .

لم يكن الاستقرار السياسى هو الشكل العام فى الحكم ، وانما اعتمد الاستقرار على شخصية الحاكم ، فالحاكم القوى استطاع فرض الاستقرار ، والحاكم الضعيف هو الذى ترك لفتنة الطامعين الذين كانوا يولون من يريدون طمعا فى الاثراء والاتقاء والسلطة .

كان الشعب المصرى فى كل هذه الحالات مسالما منتجا بانيا ، لم يشترك المصرى فى مؤامرات الحكم ، وانما اشترك فى ساحات القتال للزود والدفاع عن أرض الوطن ضد الصليبيين مرات عديدة ، وضد المغول مرات أخرى ، لم تكن تهم المصريين راية القائد المملوكى الذى كان يتبعه أهل مصر بقدر ما كانت تهمهم راية الاسلام وراية الوطن .

فى كثير من الحالات كان هناك الظلم ، كان هناك احتكار النشاط الاقتصادى ، كان هناك النهب والسلب ، وكان أيضـــا هناك دواوين المظالم لقضاء حاجات الرعيـــة • كانت هناك صورا متناقضة ، وبقى الأثر الوحيد الباقى هو الاعمار والثقافة ، فقد خلف المماليك تحفا معمارية فى المساجد والمدارس والطرق والميادين ، وكان الأكثر من ذلك كتب الأدب والفقه ، ففى فترة المماليك أنجبت مصر أنجب علمائها فى مجالات التاريخ والتفسير والفلك والطب وفى شتى فروع العلم والثقافة ، وعبر اليها الرحالة وعمر فيها ابن خلدون وكتب فيها مقدمته الخالدة •

وانتهى عهد المماليك باستشهاد طومان باى بعد بسالة منقطعة النظير شهد بها السلطان سليم الأول نفسه ولم تطاوعه نفسه فى اعدام هـــذا البطل لولا مشورة الخونة الذين خشوا على أنفسهم من بقائه حيـــا • ولتنطوى صفحة المماليك ولتبدأ صفحة جديدة من حـــكم العثمانيين •

* * *

ثم كانت الدولة العثمانيـــة

الدولـــة العثمانيـــة

تمهيد ـ حول أصل ونشأة الدولة العثمانية :

يرجع أصل العثمانيين الى القرن الثالث عشر الميلادى . حيث كان الأمير أرطغرل زعيما لقبيلة قويـــة تسكن شمال دولة السلاجقة فى آسيا الصغرى حول الأناضول . وكانت تلك القبيلة الأناضوليية تقاتل مع دولة السلاجقة ضد المغول . وقد أبلت بلاءا حسنا فى وقف زحف القائد المغولى ابن جنكيز خان ، ونتيجة لذلك عمـل السلطان علاء الدين الأول سلطان دولة الأتراك السلاجقة الى ترقية زعيـــم القبيلة الأناضولية أرطغرل الى أوج يكفى « أى محافظ محدود » وشعل له اقطاعيات واسعة فى الجزء الغربى من اقليم الأناضول .

استمر نمو هذه القبيله فى تلك الاقطاعيات ، ونجح أرطغرل بقوة السلاح الى ضم أقاليم آخرى الى حدوده الخاصة .

وقد كان العامل الحاسم فى نشأة هذه الدولة هو العام الذى سقطت فيه بغداد فى أيدى المغول ، فكانت سنة ١٣٥٨ م هى السنة التى استطاع فيها هولاكو زعيم المغول اسقاط حـكم العباسيين فى بغداد ، وهو نفس العام الذى رزق فيه الأمير أرطغرل زعيم القبيلة الأناضولية بولد أسماه عثمان الذى قـدر له فيـما بعد أن يؤسس امبراطوريـــة عظيمة الشـأن تحمل اسـمه ، وهى الامبراطوريـــة العثمانية(١) .

مات الأمير أرطغرل سنة ١٢٩٩ ميلاديـــة مخلفا ابنه عثمان الذى استطاع أن يمد أطراف امارتـــه شرقا وغربا . كانت القبيلة التركية التى نشأ فيها عثمان قد اعتنقت الاسلام مثلهم مثل دولة الأتراك السلاجقة . غير أن امارة عثمان لقبيلته حددت الاسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين وكانت فتوحاتهم ابتداء من عند الأمـير عثمان تتـــم تحت رايـــة الاسلام .

وكانت المساندة والمساعدة ضد المغول أو ضد الصليبيين باعتبار انهم امارة مسلمة شأنهم شأن باقى الدول الاسلامية .

فى سنة ١٣٠٠ ميلادية أغار المغول على دولة السلاجقة وتشتت أركان هـذه الدول . فكانت فرصة لأن يعلن الأمير عثمان شاه أن يعلن استقلاله بمقاطعاته ، واستطاع أن يؤسس حكومة مستقلة ، وجيشا قويـا مستقلا تابعا له ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ التأسيس الفعلى لدولة جديدة وهى الدولة العثمانية .

مضى عثمان يوسع من رقعة بلاده ، فبدأ يشن الغارات الخاطفة على حدود الدولـة البيزنطيـة ، واستطاع أن يصـل الى مضيق البوسفور ، وتم له الاستيلاء على بعض الجزر فى بحر مرمرة .

مات السلطان عثمان الأول فى سنة ١٣٢٦ ميلادية بينما كان ابنه أورخان على رأس قوة عثمانية كبيرة يعمل على فتح مدينة بروسة البيزنطية التى ما لبث أن فتحها وأصبحت هى العاصمة الأولى لدولة العثمانيين .

تحددت خصائص الدولة التى أرساها عثمان الأول فى أنها دولة عسكرية اسلامية يتنوع فيها البشر بين مسلمين وغير مسلمين ، ودولة ذات حكم مطلق .

واستمرت هذه الخصائص الى أن توارث أبنـاء عثمان الحكم رافعين رايـة الاسلام مستخدمين القوة العسكرية وسيلة للفتح والضم حتى كان الدور على مصر والشـام فى عهـد السلطان سليم الأول . حيث تم له فى سنة ١٥١٧ أن يطوى صفحة المماليـك ، ولتبدأ صفحة جديدة من حكم العثمانيين .

مصر والحكام العثمانيين

(١٥٤) السلطان سليم الأول

عمل السلطان سليم على احداث تنظيم جديد فى مصر التى أصبحت احدى الولايات العثمانية ، وبمقتضى هذا التنظيم كان هناك ثلاث هيئات أساسية :

١ ـ ديوان الحكم ، وهو برئاسة الوالى المعين من قبل السلطان العثمانى ، وكان يلقب باسم الباشا . ويترأس الوالى الحكومة فى القاهرة وكان يعين لمدة عام واحد قابل للزيادة . ويتعهد الوالى « الباشا » بالاشراف على الشئون المالية والعسكرية لولايته ، ويعمل على ضمان وصول الجزية سنويا الى استامبول . وكانت تقدر الجزية فى أول العهد العثمانى بنحو ستمائة ألف قرش .

وكان من أهم اختصاصات الوالى اخبار أوامر السلطة العثمانية الى أفراد حكومته والى شعب مصر ، ويعمل على متابعة ما يرد اليه من أوامر .

٢ ـ القوات البرية والبحرية . وهى قوة الجيش النظامية ، وكانت تعتمد على :

(أ) الوجاقات : وهى قوات عسكرية من الفرسان والمشاة ، وتوزع بين الأقاليم ، ويتألف منها الحرس السلطانى .

(ب) قوات الانكشارية : وهى احدى فرق المشاة ينقسمون الى عدة كتائب لكل منها علم خاص ، ويعهد الى الانكشارية الحفاظ على الأمن والنظام العام .

(جـ) وكانت هناك القوات البحرية فى موانىء الاسكندرية والسويس ورشيد ودمياط ، ولكل فرقة بحرية قائد يسمى القبودان أو القبطان يعين من قبل الوالى فى

القاهره . أما قبودان البحر الأحمر فكان يتبع مباشرة للسلطان العثمانى وذلك لما كان يتميز به أمن البحر الأحمر للسلطنة العثمانية .

٣ ـ المماليك والكشاف والبكوات .

اشترك بعض المماليك الذين أعطاهم سليم الأول الأمان بعد هزيمة القوات المملوكية ، اشتركوا فى حكم مصر مع الولاة العثمانيين ، هذا فضلا عن المماليك الجدد الذين كان يتم شراؤهم من دول البلقان ومن جنوب روسيا فكانت الدولة تعين من هؤلاء المماليك فى وظائف بكوات الصناجق « اللواءات » بحيث ان كل بك يحكم اقليما أو مقاطعة من أقاليم مصر .

كان البكوات يقيمون فى القاهرة بصورة شبه دائمة تاركين سلطاتهم الى ما يسمى الكشافين وهم بمثابة نواب للبكوات يقيمون فى الأقاليم . كانت الكشوفيات بمثابة مديريات بلغ عددها فى القرن السابع عشر الى نحو ٣٠ كشوفية .

كان من أهم واجبات الكشاف تنظيم الزراعة ، واصلاح الجسور ، والاشراف على جمع الضرائب ، وتعيين العمد والمشايخ فى المنطقة التى بحكمها . كان بيت الكشاف فى عاصمة مختلفا تماما عن بيوت الفلاحين .

كذلك كانت معظم الوظائف العامة للدولة موزعة على البكوات فكان منهم الدفتردار وأمير الحج وشيخ البلد .

كان المملوك بمجرد وصوله الى رتبة البكوية يعمل على جلب المزيد من المماليك الجدد للقيام بمعاونته فى عمله الجديد .

وكان الشعب المصرى بعيدا عن مراكز القوى الثلاث ، وانما كان يعمل فى الأرض والتجارة والحرف المختلفة ، ولم تربطه بالولاة الا تنفيذ ما يرد اليه من تعليمات عبر القنوات المختلفة للتنظيم الادارى .

وكانت علاقة الشعب المصرى بالقوات العسكرية لا تعدو الا أن تكون امدادا مستمرا لهذه القوات بالعناصر الفتية من هـذا الشعب فى الأوقات الحرجة التى تدخل فيها السلطنة العثمانية حروبا جديدة .

أما صلات الشعب بطبقة المماليك البكوات ، فكانت تتمثل فى الاحتكاك المستمر نتيجة الضرائب أو الاشتراك فى تنفيذ مشروعات الرى وشق الترع ، كذلك كانت الصلات تتجدد عند تعيين العمد وعند انشاء الكتاتيب كذلك نشأت صلات مباشرة بين الشعب والمماليك فى الحفلات الدينية ، ورغم ذلك فكان لكل منهم طبقته المتميزة بخصوصيتها المنفردة ، غير أن تلك الخصوصيات لم تمنع من علاقات المصاهرة والتزاوج بين طبقات الشعب وطبقات المماليك ، مما أضفى على الجميع نسيج واحد وان كان نسيجا غير متجانس .

نائب السلطان سليم الأول :

دخل السلطان سليم الأول بن بايزيد الثانى مصر وبدأ فيها مسيرة الحكم العثمانى سنة ١٥١٧ ميلادية بعد استشهاد آخر حكام المماليك القائد طومان باى .

بدأ سليم يعمل على تنظيم مصر اداريا ، وقام بتعديل النظام النقدى ، فأصدر نقودا جديدة تحمل اسمه .

ألغى السلطان سليم وظيفة الخليفة العباسى وقام بترحيله هو وأسرته الى الأستانة ، وأصبح سلطان الدولة العثمانية يجمع فى وظيفته بين السلطة الدنيوية والامامة الروحية .

كان للسلطان سليم فى مصر أثر سلبى على مسيرة الصناعة والتشييد ، فقد جمع الآلاف من صناع مصر المهرة ورجال المعمار وتم ترحيلهم الى عاصمة الدولة العثمانية .

غادر سليم الأول مصر بعد نحو سنة من مجيئه اليها منيبا عليها أحد مساعدية فى المحلة على مصر وهو خاير بك الذى كان نائبا عن السلطنة المملوكية فى حلب ، وبايع السلطان سليم فى حملته على مصر .

استمر خاير باشا « حيث خلع عليه السلطان لقب باشا بعد توليته ولاية مصر » فى ادارة حكم مصر باسم سليم الأول الذى لم يلبث أن مات فى سنة ١٥٢٠ ميلادية مخلفا على عرش الدولة العثمانية ابنه السلطان سليمان .

١٥٥ ـ السلطان سليمان بن السلطان سليم الأول :

تولى حكم السلطنة العثمانية فى ١٢٦ هجرية الموافقة ١٥٢٠ ميلادية واستمر فى نهج والده وأجداده فى الفتح ، واتجه غربا ليضم اليه دولا جديدة فى البلقان .

اهتم السلطان سليمان بشئون مصر ، وقام بتشريع بعض القوانين التى أكدت احتكار النشاط الاقتصادى فيها للسلطان . وبمقتضى هذه القوانين أصبح للسلطان الملكية الفعلية للأرض الزراعية ، وكان على المصريين قبول نظام الالتزام الذى بمقتضاه يصير للملتزم الحق فى جمع الضرائب من اقطاعيته وله الحق فى توريث الأرض من بعده لأولاده التزاما وليس ملكية .

أكثر السلطان سليمان من اللوائح والقوانين بحيث أطلق عليه لقب سليمان القانونى أو سليمان المشرع .

كان نواب السلطان سليمان على مصر :

١ ـ خاير باشا : وكان نائبا لوالده سليم الأول ثم أصبح نائبا له عقب وفاة السلطان سليم .

٢ ـ مصطفى باشا : وكان صهرا للسلطان سليمان واستمر فى حكم مصر نحو سنتين ، وكانت كل هذه الفترة حافلة بنشاط الجيش

العثمانى فى الاستيلاء على المجر ويوغوسلافيا وجزيرة رودس ، وكان نواب مصر يمدون السلطنة بالجنود المهرة من المصريين والعربان لمشاركة الجيش العثمانى فى العمليات العسكرية .

٣ — ابراهيم باشا : وكان أيضا رئيسا لوزراء السلطنة فعبنه السلطان سليمان نائبا له على مصر لبعض الوقت .

٤ — سليمان باشا الخادم : وكان من خدم السلطان سليمان واستطاع اخلاصه للسلطنة أن يهيئه لنيابة مصر فاستمر عليها نحو ٩ سنوات شارك فيها القيادة المركزية العثمانية فى حروبها البحرية واستطاع بجيش أعده فى مصر تأمين البحر الأحمر ، والاستيلاء على عدن ، ذلك أن هدف العثمانيين كان يدور حول جعل البحر الأحمر بحيرة اسلامية مغلقة ، وكان هذا الهدف يستدعى طرد البرتغاليين من الساحل الهندى ، فأصبح ميناء السويس هو نقطة الانطلاق ، وميناء عدن هو نقطة الأمن والتموين التى عندها الاسطول العثمانى « المصرى » حسم الصدام مع البرتغاليين .

٥ — داوود باشا : وكان من أرقاء السلطان سليمان استمرت نيابته على مصر نحو ١٠ سنوات تشهد المراجع التاريخية على حسن سيرته وعدله بين الرعية .

٦ — مصطفى باشا الصفصاف .

٧ — على باشا .

٨ — محمد باشا بن قادن : وفى مدة نيابته زادت الضرائب والمكوس على الناس ، وانتشر الغلاء وارتفعت أصوات أهل مصر بالشكوى الى السلطان سليمان فعزله من منصبه استجابة للمصريين .

٩ — اسكندر باشا .

١٠ — على باشا الخادم .

١١ — مصطفى شاهين باشا .

١٢ ــ على باشا الصوفى •

١٣ ــ محمود باشا : وقد اشتهرت نيابته بالرشوة والفساد •

مات السلطان سليمان فى سنة ١٥٦٧ ميلادية بعد حكم دام ٥٠ سنة للسلطنة العثمانية قضاها فى الفتح المستمر مما أدى الى ضم أجزاء كثيرة من البلاد الى السلطنة ، كان الاسطول العثمانى فى عهده من أقوى أساطيل العالم • واستطاع تأمين البحر الأحمر •

تعدد نوابه على مصر فكان بعضهم سىء السيرة مرتشيا وكان القليل منهم هو الذى يجنح الى العدل ، وبصفة عامة لم تشهد مصر فى عهد السلطان سليمان سوى فترات قليلة من الرخاء • ولم يكن عهدها بالاعمار والبناء كعهد حكام المماليك • كذلك اشتهر السلطان سليمان فى حياته الداخلية بقصة غرام مع زوجته الروسية الأصل روكسلانه التى أدى به حبها فى أواخر أيامه الى التقاعد عن قيادة الجيوش والى عدم متابعة نوابه فى الولايات ، فكثر الظلم وتوقف الفتح •

وتولى ابنه سليم الثانى حكم السلطنة العثمانية عقب وفاة والده سليمان •

١٥٦ ــ السلطان سليم خان الثانى ونوابه على مصر :

تولى السلطنة فى سنة ١٥٦٧ ميلادية الموافقة ٩٧٤ هجرية ولم يتعدد نوابه على مصر على النحو السابق فى عهد أبيه ، وانما اكتفى بنائب واحد وهو سنان باشا • وكان من أفضل من تولى نيابة مصر ، وأقر فيها العدل ، استطاع عن طريق جيش قوى من مصر تأمين عدن واليمن • أكثر سنان باشا من الاعمار فى مصر على عكس سابقيه من النواب العثمانيين ، كذلك استطاع مقاتلة الأسبانيين فى شمال أفريقيا وضم طرابلس وتونس والجزائر الى الدولة العثمانية •

مات السلطان سليم الثانى بعد ثمانى سنوات من حكمه فى وقت استطاع فيه البرتغاليون أن يحرضوا دول البحر المتوسط على الصدام مع الاسطول العثمانى وهزيمته ، خلفه من بعده ابنه مراد الثالث .

١٥٧ ــ السلطان مراد الثالث ونوابه لعى مصر :

تولى مراد الثالث حكم الدولة العثمانية فى سنه ١٥٩٥ ميلاديه واستمر على نهج سلفه فى ترك شئون الدولة فى أيدى كبار الوزراء وبدأ الفساد ينتشر فى البر والبحر ، واستشرى الاسترخاء فى أوساط الجند وقوادهم على اثر منحهم الاقطاعيات الواسعة فى الولايات العثمانية .

كان ينوب عن السلطان فى مصر محمد باشا الشريف الذى كثرت فى عهده حوادث الشغب من الذين رفضوا طاعته ، وأوقعوا السلب والنهب بالتجار والأهالى .

لم يلبث مراد الثالث طويلا اذ مات فى نفس السنة ، وتولى ابنه محمد الثالث العرش .

١٥٨ ــ السلطان محمد الثالث ونوابه على مصر :

كانت بداية عهده نقطة سوداء فى تاريخ الدولة العثمانية ، اذ انتشر القتل وسفك الدماء داخل البيت العثمانى نفسه ، فقد أصدر السلطان فتوى غريبة تقضى بأن الحفاظ على هيبة الدولة من منازعات العرش تقتضى قتل الاخوة الذكور ، فكانت بداية سوداء حرمت السلطنة من تأييد الخالق والمخلوق .

استأنف محمد الثالث الحروب ضد ملوك أوروبا ، واستطاع لفترة بسيطة أن يعيد الثقة للجيوش العثمانية .

كان نواب محمد الثالث على مصر :

١ — محمد نورللى باشا ، استمر فى ولاية مصر ســـنة كاملة كانت ادارته لها ضعيفة لم تشهد مصر فيها سوى الفوضى وســـوء الأحوال •

٢ — خضر باشا ، وأعاد الى نظام الولاية مبدأ الرشوة الذى سبقه اليه عدد من الولاة العثمانيين •

٣ — على باشا السلحدار ، استمر فى ولاية مصر نحو السنتين يعمل على اعادة الهيبة للسلطنة ازاء نفوذ البكوات المماليك فى الأقاليم •

٤ — عثمان باشا ، وتولى نيابة مصر لفترة قصيرة خلفه بعدها على السلحدار مرة ثانية ، وفى ١٦٠٣ ميلادية مات السلطان محمد الثالث مخلفا ابنه أحمد الأول على السلطنة العثمانية •

١٥٩ — السلطان أحمد الأول ونوابه على مصر :

كان السلطان أحمد شابا صغيرا وقت توليته الحكم فى سنة ١٦٠٣ ميلادية واستطاعت الدولة الصفوية فى ايران انتزاع بعض المقاطعات من السيادة العثمانية •

توالى فى عهد السلطان أحمـــد النـــواب على مصر ، وكان من أشهرهم :

١ — ابراهيم باشا الذى قتـــله الجنـــد ، وظلت مصر فترة بلا نائب قوى •

٢ — محمد باشا الكردى ، وتولى نيابة مصر سنة واحدة بهدف اعادة النظام وقمع الفتن ، فكثر سفك الدماء •

٣ — حسن باشا الدفتردار ، وكان حاكما عثمانيا على اليمن ، لم تكن ادارته حازمة ورشيدة ، استمر فى نيابة مصر ثلاث سنوات •

٤ ــ محمد باشا معور ، وبدأ عهدا جديدا يعمل فيه على تطبيق العدل والنظام واخماد الفتن ، أحبه أهل مصر حبا جما ولكنه لم يلبث أن غادرها الى منصب آخر فى العاصمة العثمانية •

٥ ــ محمد باشا الصدفى ، ونهج أيضا نهجا طيبا فى حكم مصر على النسق الذى سلكه سلفه ، واستمر فى الحكم ٤ سنوات كاملة •

٦ ــ أحمد باشا الدقردار ، واستمر مسيرة العدل الذى سلكها سلفيه السابقين ، واستتب الأمن والنظام فترة طويلة من الوقت • فى عهده مات السلطان العثمانى أحمد الأول ليتولى بعده أخوه مصطفى الأول الذى لم يلبث سوى أشهر محدودة ليتولى عثمان الثانى ابن السلطان أحمد •

١٦٠ ــ السلطان عثمان الثانى ونوابه على مصر :

بدأ عثمان الثانى حكمه بالحرب مع بولندا ، ولكنه لم يستطع اخضاع جنده الذين بدأوا حركات التمرد ضد القادة العثمانيين أنفسهم وخاصة فئة الانكشارية الذين استطاع قوادهم حيازة اقطاعيات ضخمة فى الولايات التابعة أدت بهم الى التراخى عن الجهاد والحرب •

فى عهد السلطان عثمان الثانى كان نواب مصر :

١ ــ مصطفى باشا المناكلى : استمر سنة واحدة ، كان العصيان هو الصفة المميزة للجند ضد الوالى العثمانى ، فلم تشهد مصر فى عهده الأمن والاستقرار •

٢ ــ جعفر باشا : وكان فى عهده نكبة الطاعون الذى فتك بالكثير من أهل مصر •

٣ ــ مصطفى باشا الحميدى : استمر سنة واحدة ، كانت الفوضى والأوبئة تغمر أرجاء مصر •

٤ - حسين باشا أرناؤوط : واستمر عهده لمدة سنتين يحاول اعادة النظام ومعالجة الأمور الصحية ، فكان يهادن الباشوات والمماليك وبرد بعض المظالم المرفوعة اليه من أهل مصر .

٥ - محمد باشا : وكان مثل أسلافه يعمل على تثبيت أقدام أقدام الدولة العثمانيه ، فلم يجد أمامه الا ارضاء المماليك البكوات على حساب الجند .

قتل السلطان عثمان الثانى على أيدى قوات الانكشارية الذى كان قد بدأ يعمل على تصفيتها .

أعادت قوات الانكشارية السلطان مصطفى الأول الى العرش لأشهر محدودة ، ولم يكن السلطان الجديد على درجة من الدراية والكفاءة التى تؤهله للصدارة والقيادة ، فبايع العلماء السلطان مراد الرابع .

١٦١ - السلطان مراد الرابع ونوابه على مصر :

تولى مراد الرابع السلطنة العثمانية فى سنة ١٠٣٢ هجرية الموافقة ١٦٢٣ ميلادية ، وهو ابن السلطان أحمد الأول ، وكان قد بدأ الانحلال يظهر بصورة واضحة فى قلب الدولة العثمانية ، وكان الصفويون قد احتلوا مدينة بغداد ، وأبعدوها عن السيادة العثمانية .

أناب السلطان مراد فى حكم مصر عددا من الولاة بينهم الكفء والمرتشى والعادل والظالم لعى النحو التالى :

١ - مصطفى باشا قرة : وكان من ضمن الحكام المرتشين الذين عملوا على ارضاء الأعيان وقواد الجند على حساب الأهالى . استمرت نيابته على مصر نحو ثلاث سنوات بقوة السلاح ، ولكن أهل مصر رفعوا مطالبهم الى السلطان العثمانى الذى استدعاه الى عاصمة السلطنة وحكم عليه بالاعدام .

٢ — بيرم باشا : وجمع بين الحزم والعدل . واستمر أيضا نحو ثلاث سنوات .

٣ — محمد باشا : وفى عهده أمر الجند بمصاحبة أحد الأمراء العثمانيين الى الحبشة فاستطاع هؤلاء الجند اشاعة السلب والنهب فى صعيد مصر ، فلا تذكر لهذا الباشا أى حسنة سوى أنه أرسل من مصر نخبة من البنائين والمهندسين لاعادة اعمار الكعبة المشرفة .

٤ — موسى باشا السلحدار : وكان من سمات عهده الظلم والرشوة فاجتمع أمراء المماليك مع علماء مصر وكتبوا للسلطان العثمانى عن مظالم موسى باشا السلحدار الذى استجاب لهم وأمر بعزله فورا .

٥ — خليل باشا البستانى : وكان على النقيض من سلفه عادلا حازما استمر فى نيابة مصر سنة واحدة .

٦ — بكرجى أحمد باشا : انشغل باعداد جيش من مصر لاخماد الفتنة الدرزية فى الشام ، فاستغل الأمر لمصلحته وحقق المزيد من المكاسب المادية ازاء اعفاء الأعيان من الانخراط فى سلك الجندية واستجاب السلطان مراد مرة ثانية لصوت أهل مصر الذين ضجوا بالشكوى من ذلك الحاكم فعزله وأعدمه .

٧ — حسين باشا الدالى : استمر على نفس النهج من الظلم والاستبداد فكتب أهل مصر وعلماؤها الى السلطان يرغبون فى عزله فاستجاب لهم .

٨ — محمد باشا جوان : وانشغل أيضا باعداد الحملات المصرية لاسترداد بغداد من الصفويين ، واستطاع جيش مصر فعلا مساعدة السلطان مراد الرابع على استرداد بغداد ، واعادة الهيبة للدولة العثمانية .

مات السلطان مراد الرابع بعد فترة دامت ١٧ سنة استطاع فيها أن يعمل على ضبط أمور الدولة العثمانية بعد أن اعتراها الوهن وأعاد الانتصارات الى ساحة العسكرية العثمانية •

وبويع بالسلطنة بعده أخوه ابراهيم الأول •

١٦٢ – السلطان ابراهيم الأول ونوابه على مصر :

بويع بالسلطنة فى سنة ١٠٤٩ هـ الموافقة سنة ١٦٣٩ م ، وبدأ حكمه بمواصلة الحملات العسكرية فى جزر البحر الأبيض •

فى عهده ضعفت سلطة نوابه على مصر ، وقويت سلطة المماليك واصبح قواد المماليك هم العنصر الحاسم فى حكم مصر •

أناب السلطان ابراهيم عددا من الباشوات العثمانيين على مصر :

١ – مصطفى باشا البستانجى ، وتولى نيابة مصر لمدة سنتين متتاليتين أرهق الرعية بمزيد من الضرائب والمكوس •

٢ – منصور باشا ، ونهج نهجا جديدا فعمل على الغاء الضرائب الجديدة ، وكان حازما ضد سلطة قواد المماليك ، فعملوا على عزله بعد نحو السنتين •

٣ – أيوب باشا ، وأعاد النفوذ الى قواد المماليك طمعا فى مساندتهم له ، واستمر سنة واحدة •

٤ – حيدر أغا زادة باشا وتولى أيضا لمدة سنة واحدة كان لقواد المماليك السلطة الفعلية كاملة •

مات السلطان ابراهيم الأول قتيلا على يد قواد الانكشارية الذين وجدوا فى حكمه امتدادا لنهج الاطاحة بهم ، وبويع ابنه محمد سلطانا على الدولة العثمانية فى سنة ١٠٥٨ هجرية الموافقة سنة ١٦٤٨ ميلادية •

١٦٣ ــ السلطان محمد الرابع ونوابه على مصر :

كان السلطان محمد طفلا صغيرا وقت مبايعتــه • فاضطربت أحوال الدولة فى عهده ، وازداد نفوذ المماليك فى مصر • بدأت نيابة مصر بعدد من النواب الضعفاء الذين ساءت أحوال مصر فى عهدهم • وبدأ النزاع بين قواد المماليك على السلطة الفعليــة • كانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت فى حروب مستمرة مع أوروبا ، واستطاع قواد المماليك فى غياب نيابة عثمانية قوية أن ينبتوا سلطانهم فى مصر • واستكثروا من المماليك الجدد من خارج البلاد • وكان نواب السلطان فى مصر يعملون قدر الامكان على تموين الحملات العثمانية بالسلاح والرجال والمــال ، حتى استطاع السلطان محمد بالفعل غزو أوكرانيا ومحاصرة فيينا مما دعا قادة أوروبا الى اجتماع وحدوا فيه كلمتهم للاطاحة بالدولة العثمانية ، وألحقوا بعض الهزائم بالجيوش العثمانية فى أوروبا مما اضطر العلماء والقضاة الى عزل محمد الرابع بعد (٤٠) سنة من حكم الدولة العثمانية وبايعوا أخاه سليمان الثانى •

١٦٤ ــ السلطان سليمان الثانى ونوابه على مصر :

تولى السلطان سليمان حكم الدولة العثمانية فى سنة ١٠٩٩ هـ الموافقة سنة ١٦٨٧ م واستمر حكمه نحو ثلاث سنوات فقط • كانت مصر فيها مسرحا للنزاع بين أحزاب المماليك ، فمنهم من كان يؤيد القائد المملوكى قاسم بك الفتردار وسموا بالمماليك القاسمية ، ومنهم من أيد محمد ذو الفقار ، وسموا بالمماليك الفقارية ، واستمر النزاع بين الحزبين ، وانتشر السلب والنهب فى شوارع القاهرة وامتد الى كافة أقاليم مصر •

تولى نيابة مصر فى ذلك الوقت على باشا قلج الذى عجز عن ردع المفسدين وتأمين أهالى مصر •

مات سليمان الثانى فى سنة ١١٠٢ هجرية الموافقة ١٦٩١ ميلادية فيخلفه أخوه أحمــد الثانى •

١٦٥ ـ السلطان أحمد الثـانى :

وارتقى احمد الثانى عرش الدوله العثمانية فى جو من الاضطراب والفوضى الذى كان يسود كل ولايات الدولة ومن بينها مصر •

تعاقب نواب السلطان أحمد بين حمزة باشا وأحمد باشا كتخذا وعلى باشا الخازندار ، ولم تكن لهم أية سلطات فعلية ، بل كانت السلطه لبكوات المماليك وحدهم •

مات السلطان أحمد الثانى بعد خمس سنوات ليتولى حكم الدولة العثمانيه ابن عمه مصطفى خان الثانى •

١٦٦ ـ السلطان مصطفى خان الثانى :

تولى حكم الدولة العثمانية فى سنة ١٦٩٥ ميلادية وانشغل مثل أسلافه فى الحروب العسكرية مع دول أوروبا وروسيا ، ونهج نهجهم فى العمل على القضاء على نفوذ قوات الانكشارية •

وأناب على مصر :

١ ـ اسماعيل باشا نور •
٢ ـ حسين باشا البشنقى •
٣ ـ قرة محمد باشا ، وكان ذلك الأخير أكثر اهتماما بالعدل والاعمار ا لأن سلطاته المحدودة لم تؤهله للقيام بالكثير من الأعمال •

تم عزل السلطان مصطفى الثانى فى سنة ١١١٥ هجرية الموافقة سنة ١٧٠٤ ميلادبة ، وتولى أخوه السلطان أحمد الثالث عرش السلطنة العثمانية •

١٦٧ ـ السلطان أحمد الثالث :

حاول السلطان أحمـد الثالث العمـل على مهادنة قواد جنـد الانكشارية حتى تستقر له الأمور ، ويعيد الهيبة للجيش العثمانى ،

وبالفعل استطاع أحمد الثالث تحقيق انتصارات ضخمة على روسيا . وأن يجبرها على عقد صلح يفرض فيه شروط الدوله العثمانية بألا تكون روسيا حليفة لدول أوروبا ضد العثمانيين .

أناب أحمد الثالث على مصر سليمان باشا ثم تلاه محمد رامى باشا ، وأخيرا كان مسلم على باشا ، ورغم هؤلاء الولاد فقد كانت الساحة المصرية تشهد النزاعات المسلحة بين فئات المماليك المتناحرة التى تتطلع الى السلطة الفعلية .

كان السلطان أحمد الثالث يواصل انتصاراته فى جزر البحر المتوسط ، واستطاع هزيمة الدولة الصفوية وضم ايران الى السلطنة العثمانية .

كان انشغال القيادة العثمانية بمواصلة الفتوحات والحروب سببا أساسيا فى ضعف سلطة الولاة العثمانيين فى مصر بحيث لم يقدر أى منهم على السيطرة على فئات المماليك التى استحوذت بالفعل على زمام السلطة . فكان بعض الولاة يلجأ الى تأييد حزب أو آخر حتى يحمى مجرد سلطته الاسمية .

استمر النزاع بين المماليك الفقارية والمماليك القاسمية مما أسفر عن المزيد من الاضطراب والفوضى فى كل أنحاء مصر .

تم خلع السلطان أحمد الثالث بعد ثمانى وعشرين سنة استطاع فيها أن يعيد فيها الهيبة العسكرية للدولة العثمانية ، ولم يستطيع فيها تقوية الادارة فى ولايات الدولة .

تولى الحكم بعده ابن عمه محمود الأول .

١٦٨ — السلطان محمود الأول :

تولى حكم الدولة العثمانية فى سنة ١١٤٣ هـ الموافقة سنة ١٧٣٠ م أرغم السلطان محمود الدول المعادية له الى عقد معاهدات مع الدولة

عثمانية بموجبها تبقى السيادة للعثمانيين على كل الأراضى التى دخلتها جيوشهم فى مقابل السماح ببعض الادارة الذاتية للمناطق المحتلة . كذلك كانت الدولة الايرانية الجديدة التى نشأت فى فارس عقب سقوط الدولة الصفوية قد بدأت فى كسب ود وصداقة الدولة العثمانية وابرام الصلح معها . وبدأ السلطان محمود يهتم بالادارة الداخلية فى الولايات . ونالت مصر جل اهتمامه حيث كانت تحفل بالتنازع بين فئات المماليك .

بعث السلطان محمود بعدد من الولاة الأقوياء لاخماد سلطة المماليك فى مصر . ولكنهم لم يستطيعوا وقف نفوذ المماليك الذى قد بدأ يتنامى ليشمل كل ربوع مصر ، بل استطاع قواد المماليك أن يوحدوا جبهاتهم فى مواجهة الولاة العثمانيين ، وآلت السلطة الفعلية الى أحد قوادهم وهو ابراهيم بك كخيا الذى صار بالفعل حاكما على مصر لفترة زادت على عشر سنوات لم يكن يأبه خلالها بسلطة الوالى العثمانى ، وكانت علاقته مباشرة مع السلطان محمود الأول الذى آنس الى قوته فى اعادة النظام والأمن الى مصر . وبقيت سلطة الوالى العثمانى فى تأمين احتياجات الدولة العثمانية من المال والرجال .

مات السلطان محمود فى سنة ١١٦٨ هـ الموافقة سنة ١٧٥٤ م فيخلفه ابن عمه عثمان الثالث .

١٦٩ ـ السلطان عثمان الثالث :

حكم عثمان الثالث أربع سنوات أخلد فيها الى السلم مع روسيا ودول أوروبا . أقر على مصر الحكم الفعلى لابراهيم بك كخيا مع تعاقب الولاة العثمانيين لتأمين السيادة العثمانية ، والذين لم تتعدى وظائفهم ابلاغ التعليمات ومتابعة تنفيذ أوامر السلطان فى مصر .

مات عثمان فى سنة ١١٧١ هـ ليتولى بعده السلطان مصطفى الثالث عرش الدولة العثمانية .

١٧٠ ـ السلطان مصطفى الثالث :

بدأت فى عهده الكثير من حركا تالتمرد والانفصال فى ولايات الدولة العتمانيه ، وساد الضعف كل الأجهزة الادارية فى العاصمة ، ونقصت هيبة الجيش العثمانى فى مواجهة الدول المتحاربة .

كان نواب السلطالن فى مصر يتعاقبون واحدا بعد الآخر بينما كانت السلطة الفعلية فى يد قواد المماليك ، وخاصة ابراهيم بك كخيا ورضوان بك . وما أن مات الأخير حتى ظهر فى مصر حاكم مملوكى جدبد وهو على بلوط قبان الذى لقب فيما بعد باسم على بك الكبير .

* * *

مصر والاستقلال القصير المضطرب

(١٧١) الحاكم على بك الكبير

وهو على بلوط قبان ، كان من مماليك ابراهيم بك كخيا ، ثم استجلابه من بلاد القوقاز التابعة للسلطنة العثمانية ، تعلم الفروسية ومبادىء الدين . وترقى فى سلك المماليك الى أن عين شيخا للبلد .

وبمجرد وفاة رضوان بك رأس السلطة المملوكية الفعلية بعد ابراهيم كخيا . تضامن المتنافسون على الحكم ، وانتظر على بك الفرصة ، وصاحب عبد الرحمن كتخذا الذى كان نائبا للوالى العثمانى فى مصر . وكان من أعظم الأمراء نفوذا ومالا ، فكانت صداقة على بك لعبد الرحمن كتخذا سبيلا للوصو لالى الناس والحكم فى آن واحد .

استكثر على بك الكبير من المماليك وأخذ يعمل على التخلص من كافة المنافسين على الحكم .

بدأ بكسب ثقة الوالى العثمانى ، وكسب رضاء السلطان وحانت له الفرصة للتخلص من صديقه عبد الرحمن كتخذا الذى كان له الفضل عليه ، وكان أيضا ذو فضل كبير فى انشاء العمائر والمساجد فى القاهرة ، بل وعمل على بك الكبير على مقاومة عربان الصعيد الذى كان يتزعمهم الشيخ همام الهوارى الذى كان بمثابة حاكم اقليمى قوى فى جنوب مصر .

وجاءت الظروف الدولية فى سنة ١٧٦٨ ميلادية ونشبت الحرب الروسية العثمانية فكانت فرصة على بك ليبدأ حركة استقلالية فى مصر .

كانت الدولة العثمانية فى هذا الوقت من الضعف الادارى والعسكرى والمالى ، وكانت الاضطرابات تموج فى أنحاء السلطنة سواء فى البلقان أو بلاد العرب . وانتشرت الأساطيل فى البحر الأبيض وبدأ تهديد مصر .

استصدر على بك الكبير بصفته شيخا للبلد أمرا بعزل الوالى العثمانى ، وتولى هو قائمقام مصر ، ولم يسمح بدخول باشوات عثمانيين الى مصر ، وأوقف ارسال الأموال الى عاصمة السلطنة واعتمد على قوة مماليكه فى حفظ الأمن والنظام فى مصر .

استقل على بك الكبير فعليا بادارة مصر ، وان كان قد أبقى على الخطبه والعملة تحملان اسم السلطان العثمانى ، أى أنه ما أن كانت سنة ١١٨٣ هجرية الموافقة سنة ١٧٦٩ ميلادية حتى كان سلطان على بك الكبير يمتد الى كل أنحاء مصر فى شكل استقلال فعلى صريح .

التقى على بك الكبير فى مصر بالرحالة والتجار الأجانب مثل جيمس بروس وكارلو روستى اللذان شجعاه على ضرورة فتح الطريق المصرى المباشر لتجارة الهند مع أوروبا ، وأن ذلك يقتضى أن يجعل البحر الأحمر كله خالصا للسيادة المصرية ، فبدأت الاستعدادات للاستيلاء على جدة وبدأت الحملة التى أعدها على بك الكبير ليقودها صهره القائد محمد أبو الدهب الذى انتهز فرصة النزاع بين حزبين من أشراف مكة ليتدخل الجيش المصرى ليضم الحجاز تحت حكم على بك الكبير ، وان كانت السيطرة الفعلية للجيش المصرى قد استقرت فى ميناء جدة .

بدأت مراسلات على بك الكبير مع أوروبا لانشاء المشروعات للاستفادة من البحر الأحمر كبحيرة مصرية خالصة تسهل التجارة بين الهند وميناء السويس وبالفعل بدأت شركة انجليزية فى كلكتا لتنفيذ هذا الاتفاق ، وعقدت معاهدة بين على بك والتجار الانجليز سنة ١٧٧٥ م تعطى لهؤلاء التجار حرية الملاحة والتجارة فى خليج السويس ؛ بل وأكثر من ذلك طرحت فكرة وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر التى نفذت بعد ذلك بقرن كامل تحت اسم قناة السويس .

سادت الصداقة بين على بك الكبير وحاكم الشام الشيخ ضاهر العمر . كان الشيخ الأخير حاكما فعليا على أقاليم الشام ، ولم يكن للعثمانيين هناك أى نفوذ يذكر .

وكان الشيخ ضاهر قد تعرف سابقا بعلى بك .

أراد على بك الكبير تحريض ضاهر العمر على القيام بحملة مشتركة على كافة أقاليم الشام تستهدف طرد العثمانيين ، وخاصة أن الوالى العثمانى فى تلك المناطق قد أكثر من المظالم . وبالفعل جهز على بك الكبير الحملات من مصر سنة ١٧٧١ واستطات الحملة الأخيرة بقيادة محمد أبو الذهب أن تبسط سلطان مصر على معظم أقاليم الشام .

كان انتصار أبو الذهب فى الشام مصحوبا بهزيمة معنوية استطاع السلطان العثمانى بها أن يقضى على نفوذ على بك ، تمثلت هذه الهزيمة فى التحالف الذى عقده على بك الكبير مع الامبراطورة الروسية المسيحية كاترين التى زودت على بك بالمال والسلاح ، فكان لهذا التصرف أثره على أهل الشام بل وعلى صفوف جند المماليك أنفسهم مما جعلهم يستنكرون هذا التصرف ، وبالتالى استطاع السلطان العثمانى وعلماء المسلمين اصدار فتوى تذاع على الناس باعتبار أن على بك من الخونة الكفرة .

وجدت فتوى علماء المسلمين صداها فى نفوس الجند ، بل وأثرت أيضا على نفسية محمد أبو الذهب .

يختلف المؤرخون حول ما اذا كانت خصومة أبو الدهب لعلى بك كانت بدافع الغيرة على دولة الخلافة الاسلامية ، أم بدافع التطلع الى الحكم • وأيا كان الأمر فقد كانت سقطة على بك فى الاتصال بأعداء الدولة الاسلامية هى التى مهدت لتلك الخصومة ، ومهدت لنهاية حكم على بك الكبير • استمر محمد أبو الدهب لفترة قصيرة قائدا للقوات المسلحة المملوكية وكان يشكل معارضة قويــة أمام على بك الذى أمر بنفيــه الى صعيد مصر • أرسل على بك حملة الى الصعيد لمقاتــلة أبى الذهب فانضمت الحملــة الى تأييــد محمــد أبى الذهب . وعاد الجميع الى القاهرة فما كان من على بك الا الخروج من القاهرة متخفيا الى الشام •

دخل محمد أبو الذهب الى القاهرة ١٧٧٢ ميلادية ، بينما ذهب على بك الى الشـــام للاتصال بحلفائه الروس ، واستطاع بمساعدة أصدقائه الروس فتح غزة واللد والرملة ويافا والسيطرة على سوريا الجنوبية . وأعاد تكوين فرقة عسكرية معززة بالأسلحة الروسيــة لمهاجمة مصر وانتزاع الحكم من محمد أبو الذهب الذى ما أن علم بتلك الاستعدادات حتى حرض بعض البكوا تفى مصر للكتابة الى على بك الكبير فى محاولة منه لاستدراجه الى مصر وملاقاتــه على حدودها . وبالفعل التقى الجيشـــان جيش على بك الكبير المؤيــد بالأسلحة وببعض القوات الشامية والجيش المملوكى بقيادة محمــد أبو الذهب • كاد النصر أن يكون حليف جيش على بك فى البداية لولا أن محمد بك استطاع أن يستغل السقطة المعنوية السابقة لعلى بك الكبير وأخذ يحرض الجند والأهالى ويذيع بينهم بأن القتال انما هو لمصلحه الاسلام وأن انتصار على بك الكبير سوف يجلب دخول الجيوش الروسية الى مصر . وبالفعل دارت الدائرة على جيش على

بك الذى استمر فى القتال حتى تم أسره وحمل الى مصر أسيرا ، وأكرمه أبو الذهب واستمر عدة أيام بعدها حتى مات فى مايو سنة ١٧٧٣ م .

وبموت على بك الكبير انتهت فترة اســتقلال قصيرة حفلت بالمعارك العسكرية ، استمرت نحو ٤ سنوات بدأت من عزل الوالى العثمانى سنة ١٧٦٩ الى أن مات على بك سنة ١٧٧٣ ، وحكم مصر لصالح الدولة العثمانية محمد أبو الذهب .

***

عودة التبعية للدولة العثمانيـــة

(١٧٣) محمد بك أبو الذهب حاكم مصر

وهو أحد المماليك وكان من أتباع على بك الكبير وصهرا له ، ثم انقلب عليـــه بعد تحالف على بك مع الروس •

تروى بعض المصادر أنه من الأسرى الصفويين الذين تم أسرهم أثنـــاء الحرب بين الدولة العثمانية والدوله الصفوية ، وتم استجلابه الى مصر صغيرا وأخذ يترقى حتى أصبح قائدا لجيوش على بك الكبير ثم أضحى حاكما فعليا لمصر فى سنة ١١٨٨ هـ الموافقة سنة ١٧٧٢ م •

ويذكر أن تسميته بأبى الذهب ترجع الى أنه كان دائم الاحتفاظ بالذهب • وكان دائم العطاء به •

بدأ أبو الذهب حكمه لمصر معلنا تبعته المباشرة للسلطان العثمانى وجمع حوله البكوات والصناجق وقلدهم أكبر المناصب ، وأخذ يعمل على استقرار الأمن والنظام فى مصر • وأستقبل الوالى العثمانى الجديد خليـــل باشا استقبالا حافلا ولكنه حرمه من النفوذ الفعلى ، أخذ أبو الذهب يعمل على اعمار القاهرة وأكثر من المدارس والمساجد فىمنطقة الأزهر • عقد أبو الذهب معاهدة مع التجار الانجليز تضمن مرور السفن الانجليزية العابرة من الهند الى أوروبا عبر السويس •

جهز محمد بك أبو الذهب حملة للقضاء على فتنة الشام ، وكان فى هـــذه المرة يعمل لصالح السلطنة العثمانية ، واستطاع بالفعل اخضاع الولايات الشامية للسلطان العثمانى ، وكان ذلك فى سنة ١٧٧٥ م وكان هـــذا النصر هو الأخير فى حياة ذلك الحاكم الذى ما أن عاد من الشام بعد انتصاره حتى وافته المنيـــة ودفن فى مسجده فى مواجهة الأزهر •

كان المحيط الدولى حول مصر يشهد فى تلك الفترة توقيع المعاهدة بين الروس والعثمانيين لعدم الاعتداء ويشهد أيضا وفاة السلطان العثمانى مصطفى الثالث وتوليته السلطان عبد الحميد الأول •

كانت مصر فى ظل حكم محمد أبو الذهب تحفل بنوع من الاستقرار حيث كان يساعده فى شئون مصر أميران عظيمان من أمراء المماليك وهما اللذان لعبا دورا كبيرا فى حكم مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وهما ابراهيم بك ومراد بك •

اقتسام السلطة فى مصر

١٧٣ ، ١٧٤ — ابراهيم بك ومراد بك :

حيث لا يمكن الفصل بينهما من حيث ترتيب المدة أو أسبقية أيهما فقد اشتركا فى الحكم منذ أن كانا نوابا لمحمد أبو الذهب ثم بعد وفاته ثم اقتسما الحكم تارة بالتراضى وتارة بالخصام ، فكانا نسيجا واحدا وان اعتراه عدم التجانس فقد شهدت مصر بعد وفاة أبو الذهب اقتساما فى السلطة حيث تولى ابراهيم بك شياخة البلد ، وتولى مراد الدفترادارية ويوسف بك امارة الحج ، وكان الثلاثة من أتباع أبو الذهب . واستمر الوالى العثمانى يحمل السلطة الاسمية •

غير أن هذا الاقتسام ما لبث أن انفصم عراه حيث خرج يوسف بك عن العهد وتواطىء فى مؤامرة غريبة لطرد ابراهيم ومراد من السلطة . وبالفعل نجحت المؤامرة لفترة هرب فيها كل من ابراهيم ومراد الى الصعيد ليتولى الحكم بالفعلى حاكم جديد وهو اسماعيل بك الكبير •

استمر الصراع بين الأطراف الثلاثة ابراهيم ومراد واسماعيل لمدة ٦ سنوات وكان مسرح العمليات يدور بين القاهرة والصعيد ، وبطبيعة الحال شهدت هذه الفترة تدهورا واضحا فى كافة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية كان السلطان العثمانى عبد الحميد الأول قد

أراد أن يضع نهاية لهذه الفوضى فى أحوال الولاية المصرية واعادة السلطة الفعلية للوالى العثمانى ؛ فجهز حملة عسكرية بقيادة حسن باشا الجزايرلى الذى حضر بالفعل على رأس قوة بحريه الى الاسكندرية ، وبدأ فى مقاتلة جند المماليك فاضطر ابراهيم بك ومراد بك الى تجهيز قوات فى صعيد مصر ، وظل حسن باشا الجزايرلى حاكما فعليا لمصر يعاونه اسماعيل بك الكبير •

دخلت قوات ابراهيم بك ومراد بك القاهرة عقب وفاة اسماعيل بك واضطرت الدولة العثمانية أن تعترف بالسلطة الفعلية للأميرين المملوكيين على مصر •

كان المحيط الدولى حول مصر يشهد تغيرات جذرية ؛ ففى نطاق الدولة العثمانية ما ت السلطان عبد الحميد الأول مخلفا العرش للسلطان سليم الثالث • وكانت الثورة افرنسية قد بدأت واشتعلت وظهر معها صوت النفوذ الشعبى الذى أسقط الملكية فى فرنسا ؛ وانتشر الفكر الحر المؤيد لحقوق الشعب • وانعكست حركة المد الثورى على الشعب المصرى الذى كان قد ضج من الفساد والرشوة ، وكان الأزهر وعلماء الدين فى مركز الصدارة بين الشعب المصرى ليرفعوا راية الحق فى مواجهة الحكام المعتدين •

يرضخ الحاكم لأول مرة لرأى العلماء الذين طالبوه برفع المظالم عن الرعية فقد اعتصم الناس بالأزهر وخرج العلماء لملاقاة ابراهيم ومراد ، ولم يهدأ الناس الا بعد أن عاد العلماء بوعد جديد وعهد جديد •

استمر حكم مراد بك وابراهيم بك على مصر مع وجود النائب العثمانى ذو السلطة الاسمية ، وعاشت مصر فترة من الاستقرار تارة والاضطراب تارة أخرى ، وظهر دور العلماء ورجال الدين فى مصر فى الاشتراك فى توجيه الأمور مع الحكام •

استمر ذلك الوضع حتى جاءت الى مصر الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ م بقيادة نابليون بونابرت •

ثلاث سنوات تحت الاحتلال الفرنسى

نابليــون بونابرت

كانت الثورة الفرنسية قد بدأت ، واستقرت حكومة الادارة فى فرنسا على أنقاض ملكيـــة بائدة ، غير أنه كان الصراع بين فرنسا وجاراتها فى أوروبا على أشده • استطاع بونابرت احراز انتصارات ضد النمسا ، وأجبرها على الخروج من الحرب ، وكان قـــد احتل هولندا ، وامتد نظره صوب البحر المتوسط وصوب مصر على اعتبار أن احتلال مصر سوف يمهد له فى الشرق ويمنع من استيلاء الخصم العتيد انجلترا على مداخل تجارة الشرق •

كان التجار الفرنسيون فى القاهرة قد راسلوا حكومة الادارة فى فرنسا للتنويــــه بالأهمية الاقتصادية والجغرافية للموقع المصرى •

استغل نابليون الفرص السانحة التى تمثلت فى ضعف الدولة العثمانية من ناحية وفى التواجد الفرنسى فى ايطاليا وفى قرب دول البلقان العثمانية ، فضلا عن أن الولايات العثمانية فى شبه جزيرة

البلقان العثمانية كانت فى تمرد مستمر وبالتالى وجد نابليون أن الدولة العثمانية لن تجرؤ على اعلان الحرب على فرنسا فى حالة تواجدها

للقرآن أو للاسلام أو للشعب ، وانما جاءت معادية لبكوات المماليك المستغلين •

قاوم حاكم الاسكندرية السيد محمد كريم بقواتـه المحدودة جحافل الحملة الفرنسية ، ولم يكن لديـه من الأسلحة أو الأفراد ما يكفى لمواجهة جيش كبير مزود بأحدث الأسلحة ، فلم يكن أمام الاسكندرية الا التسليم • ولم يشأ بونابرت أن يفر حاكمها محمد كريم ، وانما جعله حاكما على المدينة وأثنى على شجاعته وبين له أن غرض الحملة ليس الاحتلال أو عداء للدين وانما هو لمقاومة ظلم المماليك •

اذاع نابليون منشورا ثانيا يبدأ بـ« بسم الله الرحمن الرحيم » ويطمئن المصريين على أموالهم وأعراضهم ، ويطلب منـهم مؤازرة القوات الفرنسية فى زحفها للقاهرة ، ويحذر من المقاومة •

وكانت الأنباء قد وصلت للقاهرة واجتمع كبار المماليك واستعد ابراهيم بك ومراد بك لمواجهة الزحف الفرنسى الجديد • أقام مراد بك استحكاماته العسكرية فى البر الغربى عند امبابة ، وأقام ابراهيم بك استحكاماته فى البر الشرقى عند بولاق ، واجتمع عربان الشرقية والصعيد ، وجاءت الجماعات من كل جهة لتحمل السـلاح لمواجهة الفرنسيين •

تقدمت القوات الفرنسية الى امبابة فى ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ وبدأت المعركة بين الجبهة الفرنسية وجبهة مماليك مراد بك ومتطوعيه ، وكان الصراع بين الأسلحة التقليدية والأسلحة الحديثـة ، ودارت الدائرات على قوات المماليك ، وتراجع مراد بك ومركز قيادته بعد مقاومة عنيفة وباسلة الى الجنوب فى صعيد مصر • وبقى الدور على ابراهيم بك وقواتـه فى بولاق ، وبدأت مقاومة شجاعة من المصريين

بقيادة ابراهيم بك ولكنها كانت الأسلحة الحديثة التى اضطرت ابراهيم بك الى الانسحاب الى الشرقيه .

دخل الفرنسيون الى القاهرة ، وسادت العاصمة أجواء الفوضى والاضطراب حتى فر عدد كبير من الأهالى الى أرياف مصر ، وأصبحت القاهرة بلا حكومة فعلية أو اسمية . وذهب العلماء الى بونابرت الذى طمأنهم وهدأ من روعهم . وأصدر توجيهاته بحسن معاملة الأهالى .

سكن بونابرت فى بيت محمد بك الألفى فى الازبكية ، وأمر جنوده بأن يحصلوا على احتياجاتهم من المصريين بأثمان مجزية ، وبدأ الهدوء لفترة قصيره .

عمل بونابرت على استصدار قوانين جديدة للادارة ، فأمر بتشكيل ديوان الحكم من عدد من المشايخ لادارة شئون البلاد . وواصل الفرنسيون سيطرتهم على القاهرة فى الوقت الذى كان فيه ابراهيم بك فى الشرقية ومراد بك فى الصعيد يعدون العدد لشن حرب العصابات ضد الفرنسيين .

١ - الصدمة الأولى ضد الحملة الفرنسية :

كانت صدمة الفرنسين الأولى بعد شهر واحد من احتلالهم مصر ، حيث وصل الاسطول البريطانى بقيادة الأدميرال نلسون الى الاسكندرية ، واشتبك مع الاسطول الفرنسى فى أبى قير ، وكانت موقعة هامة تمكنت فيها البوارج البريطانية أن تنفذ الى مرابط السفن الفرنسية وتحاصرها ، واستطاعت تلك البوارج القضاء على الاسطول الفرنسى بأكمله فيما عدا أربع قطع منه اضطرت الى الفرار والانسحاب .

كان لمعركة أبى قير البحرية نتائج خطيرة على الحملة الفرنسية فى مصر فقد أصبح الفرنسيون فى مصر مقطوعى الصلة بوطنهم ،

وعادت السيادة البحرية لانجلترا . وانخفضت الروح المعنوية للجنود الفرنسيين • ولكن كانت لهذه الصدمة أثرها فى أن وضعت الفرنسيين أمام الأمر الواقع فبدأت تتقرب للمصريين وأن تقوم الحملة بالمسح الشامل لكافة الموارد المتاحة لمصر حتى تضمن المدد والتموين لأفراد الحملة •

وفى سبتمبر سنة ١٧٩٨ أعلن السلطان العثمانى على فرنسا حرب لتخليص مصر من الاحتلال ، وهنا تغيرت لهجة نابليون فى منشوراته لشعب مصر ، وأصبح يجاهر بالعداء للدولة العثمانية •

وفى يوم ٦ أكتوبر من نفس السنة هو اليوم الذى اجتمع فيه الديوان العام برئاسة نابليون بونابرت مع ممثلى تجار مصر وكافة طوائفها ، وأذاع منشورا جيدا يطمئن فيه شعب مصر ويعلن عداءه للمماليك والعثمانيين فى آن واحد •

وأمر نابليون أعضاء الديوان باختيار رئيس من بينهم عن طريق الاقتراع السرى ، وكان ذلك لأول مرة يطبق فيها هـذا النظام فى مصر • واختار المجتمعون الشيخ الشرقاوى رئيسا للديوان • وبحث الديوان الجديد بحضـور نابليون نظام الادارة والقضاء ونظـام المواريث وأشكال الضرائب • كان نابليون قد فرض ضرائب جديده على الأهالى تمويل حملته فىمصر واستصدر قانونا للضرائب العقاريه ، وفرض رسوما على عقـود الزواج والتوكيلات وشهادات الميـلاد والوفاة وتمادى الفرنسيون فى فرض القروض الاجباريه فى كل أنحاء البلاد ، وهنا حدث الضجر والاضطراب بين شعب مصر ، بل وظهر الغضب بين أعضاء الديوان أنفسهم •

ازدادت حدة الغضب بالمصريين عندما استدعى نابليون حاكم الاسكندرية محمد كريم الذى بلغه أن تراسل مع المماليك لتنظيـم حملات المقاومة ، وحكم نابليون على محمد كريم بالاعدام ، وتم تنفيذ

الاعدام بشكل وحشى • ازداد نفور المصريين عندما بدأ الفرنسيون يمشون فى سوارع مصر وفقا للتقاليد الغربيـــة التى تتعارض مع أعراف أهل مصر وعاداتهم ، وتتعارض مع تعاليم دينهم فكانت ثورة القاهرة الأولى •

٢ ـ ثورة القاهرة الأولى والصدمة الثانية للفرنسيين :

كانت هناك الأسباب المـــالية التى دعت المصريين للنفور من حكم نابليون . والأسباب الاجتماعيـــة التى أظهرت للمصريين عدم احترام الفرنسيين للاسلام ولعادات المصريين • وكانت الأســـباب الثورية نفسها عندما بدأ عمر مكرم والعلمـــاء النابهين فى تحريض شعب مصر على الثورة ضد الأجنبى المحتل • بدأ التجمهر والتظاهر ، وبدأت الشعارات الاسلامية تعلو صياح المصريين وبدأ الاحتكاك مع القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديبوى حاكم القاهرة ، وبدأ اطلاق النار من جانب الكتائب الفرنسية ، واعتصم المصريون بالأزهر ، وركب العلماء والمشـــايخ الى نابليـــون بونابرت يطلبون منه وقف العمليات العسكرية ، كانت القوات الفرنسية قد دخلت الى الجامع الأزهر بالخيول فأشعلت حماس الثوريين الذين قاموا بكل ما أوتى لهم من قوة • أوقف نابليون فورا عمليات الضرب وبدأ التحقيـــق وتنفيذ الأحكام العسكرية •

٣ ـ ديكتاتورية نابليـــون :

فى أعقاب الثورة الأولى أمر نابليون باعتقال علمـــاء المسلمين بتحريض من قادته العسكريين ، ثم أمر بابطال اجتماعات الديوان ، وعمل على انشاء التحصينات العسكرية حول القاهرة ، وعاد الفرنسيون الى تشديد المعاملة مع المصريين •

كانت أقاليم القطر المصرى تموج بالثورة وتدور فيها المقاومة ، فكانت المنزلة يقوم فيها حسن طيار زعيم الصيادين باعداد الأهالى

للقتال . وكان القائد ابراهيم بك يقاوم من الشرقية والصالحية . وكان مراد بك يقاوم من الصعيد ، فكانت المقاومة تجرى على قدم وساق فى كل أنحاء مصر . فكان صعيد مصر يحفل بالمقاومـة الفعليـة ، وحدثت المعارك العنيفة واستطاع الفرنسيون أن يحتلوا الفيـوم وبنى سويف والمنيـا . وكانت قوات مراد بك تعيد تنظيم صفوفها وتبدأ من جديد وتتحالف مع العربان والأهالى فى كل منطقة .

اتصل مراد بك بأشراف الحجاز الذين أرسلوا المدد لمقاومة ، واستمرت المعارك حتى أسوان ولأكثر من سنة كاملة .

كان نابليون قد أراد تأمين حدود مصر الشرقية ضد مخاطر الامداد من الشـام أو من الدولة العثمانية فقام بحملته الجديدة على سوريا ، حيث كان قد بلغ الى علمه أن العثمانيـين قد تحالفوا مع انجلترا ، وأن كلا الجانبين يعدان لهجوم على القوات الفرنسية من جهة الشرق .

وبدأ نابليون يعد العدة للخروج الى الشام ، والتحم الجيشان الفرنسى والعثمانى فى العريش ، واستطاع نابليون أن يحتل المدينة ثم تلا ذلك احتلال اللد والرملة رغم الخسائر الفادحة التى تحملها .

تقابل نابليون فى مدينة يافا مع السيد عمر مكرم وأعاده للقاهرة عن طريق دمياط ، كانت العقبة التى واجهت نابليون فى حملته على سوريا عند عكا حيث لم يستطع نابليون الاستيلاء عليها ، وقام بأول عمليـة انسحاب حيث خسر أكثر من ألفى قتيل . وعاد نابليون مرة أخرى الى مصر بعد غياب أربعة أشهر ، وكانت المقاومة فى مصر على أشدها وبدأت المناوشات بين الجيوش الفرنسيـة والأهالى فى كل الأقاليم فى البحيرة ، فى الشرقية ، فى طهطا ، فى وادى البحر الأحمر ، حتى كان اللقاء بين الجيش الفرنسى والجيش العثمانى على أرض مصر ، فقد أرسل السلطان العثمانى حملة بحرية استطاعت أن تدخل مصر فى المنطقة الساحلية الممتدة بين الاسكندرية ورشيد ، واستولت

القوات العثمانية على قلعه أبى قير ، ولكن سرعان ما أعد نابليون عدته وأمر قواده فى الأقاليم بتطويق القوة العثمانية الزاحفة القاهرة ، واستطاع بالفعل ايقافها بعد معركة حامية تسهدت خسائر فادحة فى الجانب الفرنسى •

جاءت الأنباء الى القاهره فى أغسطس سنة ١٧٩٩ أن هناك حملة عثمانية جديدة قادمة من جهة الشرق ، فبدأ نابليون يراسل الدولة العثمانية بشأن عقد الصلح مع فرنسا حيث بلغته أنباء باريس بأن هناك أمورا عاجلة تستدعى وجوده هناك ، وخرج نابليون من الاسكندرية فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد سنة واحدة وثلاثة أشهر قضاها فى مصر •

أناب نابليون الجنرال كليبر ليخلفه فى قيادة القوات الفرنسية فى مصر ، وبدأ كليبر يحكم مصر •

كليبر ومصر :

تسلم كليبر حكم مصر فى ظل أوضاع مغايرة تماما عن تلك التى بدأ فيها بونابرت • فكانت الأحوال المالية والاقتصادية قد ازدادت سوءا بسبب فرض الضرائب الباهظة والغرامات ، وبسبب قطع طرق الاتصال والتجارة سواء فى البحر نظرا لحصار الاسطول الانجليزى للاسكندرية أو فى البر نظرا للاستعدادات العثمانية فى الشرق •

هـذا فضلا عن الروح المعنوية للجنود الفرنسيين قد أخذت فى الهبوط الشديد بسبب قطع اتصالها عن الوطن الأم ، هـذا بالاضافة الى النقص الشديد فى القوات الفرنسية نفسها ، فقد بدأت الحملة بنحو ٣٦ ألف جندى برفقة نابليون ، بقى منهم بعد سنة واحدة ٢٣ ألف فقط ، حيث قتل الآلاف من الجنود فى المعارك والثورات الداخلية ، فضلا عن بعض القوات التى صاحبت نابليون عند رحيله الى فرنسا •

وكما كانت الأحوال مغايرة ، كانت أيضا شخصية كليبر كذلك شخصية مختلفة تماما عن شخصية سلفه ، فبينما كان نابليون بسيطا فى معاملاته ، وتربطه بعض الجسور من التفاهم مع العلماء والأهالى ، نجد أن كليبر كان ضخم الحجم فارع القامة متكلفا فى مظهره ، وكان بينه وبين الأهالى والعلماء حواجز كبيرة •

قرر كليبر مع بداية سنة ١٨٠٠ ميلادية التفاوض مع الدولة العثمانية لتنظيم اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، وكان يهدف من وراء ذلك الى اللحاق بنابليون فى أوروبا ، والمساعدة فى استعادة الهيبة العسكرية لفرنسا مع ضمان عدم تحالف العثمانيين مع الانجليز فى الشرق •

وحدثت موقعة عين شمس بين الجيش العثمانى والجيش الفرنسى بعد أن استطاع العثمانيون طرد القوات الفرنسية من الأقاليم الشرقية لمصر فى السويس والصالحية وبلبيس ، غير أن الالتحام عند مشارف القاهرة كان لصالح الفرنسيين مما اضطر الجيش العثمانى الى الانسحاب الى الشام مرة أخرى •

ولقد كان لتقدم العثمانيين ومقاتلة الفرنسيين فى القاهرة دورا كبيرا فى اشعال حماس المصريين للمقاومة من جديد ، فقامت ثورة القاهرة الثانية •

ثورة القاهرة الثانية :

وكانت ثورة عارمة اشترك فيها مع المصريين عدد كبير من جنود الأتراك والمماليك الذين بقوا فى القاهرة بعد موقعة عين شمس كان عمر مكرم وعلماء مصر وراء الحماس المتزايد للشعب المصرى فى ثورته • استمرت الجماهير فى ثورتها نحو شهر تعدل بكل الوسائل للقضاء على الفرنسيين واجبارهم على الرحيل • فقد كانت تشكل الهجمات تأخذ الطابع الفدائى مما اضطر كليبر الى الشروع فى حرق

القاهرة ، وبدأت النيران تلتهم بولاق ، وجعلت من أطراف خرابا شديدا .

لم يرق الحريق للجنود الفرنسيين أنفسهم . ولم يكن ذلا هزيمة نفسية لكليبر فى القاهرة ، اضطر بعدها كليبر الى المصالحة مع كافة الأطراف . واستطاع أن يستميل مراد بك ، بأن عينه حاكما على الصعيد حتى يأمن جانب المقاومة الجنوبـ عقد اتفاقا مع علماء الأزهر بمقتضاه أن يعملوا على تسهيل الأتراك والمماليك المرادية عن القاهرة فى مقابل أن يقوم كليبر العفو العام عن سكان القاهرة ، وذلك كخطوة أولى حتى يتم مع السلطان العثمانى على الانسحاب الفرنسى النهائى من مصـ

وكان أسلوب كليبر فى مقاومة الثورة الثانية أسلوبا اضطر معه الى دفع حياته ثمنا لما اقترفت يداه .

اغتيال كليبر فى القاهرة :

فى أعقاب ثورة القاهرة الثانية دعا كليبر الديوان العام من المشايخ والعلماء ، وطالبهم بالتعويضات عما ادعاه من ا التى لحقت بالجيش الفرنسى . واستخدم القسوة فى معاملة السادات ، بل وأكثر من ذلك احتجز كليبر فى وحشية مؤسفة المشايخ والعلماء كرهائن حتى يستطيع زملاؤهم جمع تلك التعويضـ

أدى هذا الموقف الى تذمر أهل القاهرة ، وتذمر رجال الذين ما لبثوا أن عادوا للعناد مرة ثانية ، وخرج منهم شاب يدعى سليمان الحلبى الى حيث كان كليبر يسكن ، وفى دار ا

قتل كليبر على يد الطالب الحلبى سليمان ، وأعلنت حالة الطوارىء فى القاهرة وبدأ البحث عن القاتل ومساعديه ، ثم كان التحقيق ثم المحاكمة التى حكم فيها على سليمان الحلبى بالاعدام مع رفاقه •

تولى قيادة القوات الفرنسية فى مصر بعد مقتل كليبر الجنرال عبد الله مينو •

مصر والجنرال مينو :

كان جاك مينو أحد قواد الحملة الفرنسية فى مصر وكان نائبا

تقرب مينو الى أهل رشيد وأشهر اسلامه وتزوج من فتاة مصرية مسلمة ، ومارس الشعائر الاسلامية بحماس شديد ، وأطلق على نفسه اسم عبد الله •

بدأ مينو حكم القاهرة فى ١٧ يونيو سنة ١٨٠٠ بعد تشييع جنازة القائد السابق كليبر • وكان الموقف المحلى والدولى حول مينو موقفا صعبا ، ففى مصر كانت حالة الطوارىء ، وفى المحيط الدولى كانت الأنباء تحمل اشارات تحالف الانجليز مع العثمانيين لاجلاء الفرنسيين عن مصر • هـــذا فضلا عن أن أهل مصر أنفسهم لم يكونوا مرحبين بهـــذا التواجد الفرنسى الغاصب ، وكانت الأحوال الاقتصادية باتت سيئة ، وأصبح الناس فى ترقب شديد لرحيل الفرنسيين من مصر • وجاءت سنة ١٨٠١ وفى شهر مارس منها استطاعت القوات البحرية الانجليزية غزو الاسكندرية وهزيمة القوات الفرنسية فيها ، وكان الزحف العثمانى يواصل الطريق الى مصر من جهة الشرق ، واستطاع

وبدأ المماليك حرب العصابات ضد الفرنسيين فى الصعيد وهنا أذعن مينو الى الصلح والتفاوض •

كان الجنرال مينو محاصرا فى الاسكندرية ، وعهد بالقيادة فى القاهرة الى الجنرال بليار الذى بدأ التفاوض مع الانجليز والعثمانيين • وانتهت المفاوضات فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٠١ ، واتفق الجميع على جلاء القوات الفرنسيـــة من مصر مع كافة المدنيين العاملين من الفرنسيين وعملاءهم على أن تسلم مصر الى ممثل الدولة العثمانية فيها حسنين باشا قبطان وأن تعمل القوات الانجليزية على تأمين جلاء القوات الفرنسية •

وانتهى الأمر الى أن رحل عن مصر فى سبتمبر سنة ١٨٠١ آخر جندى من قوات الحملة الفرنسية ، وعادت مصر مرة جديدة الى كنف الدولة العثمانية ، ودخل مصر ابراهيم بك الحاكم القديم الذى كان قد لجأ الى الشام ، ليبدأ بعد جلاء الحملة عصر جديد •

مصر بعد جلاء الفرنسيين :

تسلم ادارة الأمور فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ممثلا الدولة العثمانية وهما يوسف باشا ضيا رئيس وزراء السلطنة ، وحسين باشا قبطان قائد الحملة العثمانية الأخيرة ، تسلما ادارة مصر باعتبارهما ممثلا السلطان سليم الثالث •

كانت الأوضاع الداخلية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين قد خلقت عددا من القوى تتمثل فى :

- الأتراك العثمانيـــة •
- الحاميات العسكرية العثمانية •
- قوة المماليـــك •

- قوة الشعب المصرى متمثلة فى علمائه وشيوخه •

وكانت القوة الأخيرة هى القوة الجديدة التى ظهرت على مسرح السياسة المصرية ، والتى كان لدورهم فى مقاومة الحملة الفرنسية أثر كبير فى أن يقفوا ولأول مرة على منصة الحكم ليشاركوا فى مقدرات ومصير البلاد •

الى جانب ذلك كله كان الجيش الانجليزى لم يغادر الاراضى المصرية بعد ، وكان نظر السياسة الانجليزية يقع على مناصرة من يرونه حليفا لهم لتبدأ مخططات انجليزية طويلة المدى •

كان ذلك كله يتم فى اطار السلطنة العثمانية التى كان يقوم عليها فى ذلك الوقت السلطان سليم الثالث •

١٧٥ - السلطان سليم الثالث ونوابه على مصر :

بعد تسلم السلطه من الفرنسيين قام السلطان سليم الثالث بتعيين نائب جديد على مصر وهو محمد خسرو باشا ، كان ذلك فى مستهل سنة ١٨٠٢ • بدأ خسرو باشا يعمل على توطيد كيان السلطة العثمانية فى مصر فى الوقت الذى كان فيه أمراء المماليك يضعون أيديهم بالفعل على حكم أقاليم البلاد فى الصعيد وفى الدلتـــا • فلم يستطع خسرو باشا تأمين الموارد المـــالية فى القاهرة ، ولم تستطع قواته المختلفة الجنسيات مواجهة قوة المماليك الأمر الذى اضطره للهرب بعد سنة واحدة من حكمه الى دمياط ليترقب فرصة جديدة يعود بها الى السلطة • وهنا قام علمـــاء مصر بتعيين طاهر باشا ليقدم على شئون البلاد الى حين يأتى أمر الدولة العثمانية ، لم يستمر هـــذا الأخير سوى شهر واحد قتل بعده على أثر تباطئوه فى دفع المرتبات المتأخرة لجنوده ، وبات الاضطراب السياسى سمة واضحة فى البلاد ، فالمماليك يحكمون بالعقل ويترقبون ، وكانت هناك حامية ألبانيـــة قوية بقيادة ضابط شاب وهو محمد على كان هو أيضا يترقب سير الأمور •

كان أمراء المماليك قد آل أمرهم الى كبيرهم البرديسى حيث كان ابراهيم بك الحاكم القديم قد تقدم به السن وظل على ولائه الأول بشرعية حكم المماليك ، وكل تحالفاته خارج دائرة الحكم الفعلى ، وظهر من الامراء المماليك عثمان البرديسى ومحمد الألفى ، كان الألفى هو رجل الانجليز فى مصر حيث كان قد سافر الى انجلترا فى أيام الحملة الفرنسية وعاد منها مؤيدا الانجليز ومترقبا لفرصة يعود بها الى الحكم • غير أن البرديسى استطاع نفى الألفى بك الى صعيد مصر ليخلو له جو الحكم فى القاهرة •

فى ذلك الوقت عين السلطان العثمانى نائبا جديدا على مصر وهو على باشا الجزايرلى الذى بمجرد وصوله الى القاهرة تم التخلص منه بالقتل قبل أن يتولى نيابة البلاد وأصبح البرديسى هو الحاكم الفعلى الذى عانى منه أهل القاهرة ومن خلفهم الشعب المصرى كله بمسلميـــه وأقباطه وتجاره وزراعه وصناعه •

كان هناك الأمل الشاب فى الحامية الألبانيـــة التى يرأسها محمد على • انضم الأهالى والعلماء الى ذلك الضابط الشاب ليخلصهم من المماليك ، وبالفعل جمع محمد على قواته واستطاع اجلاء البرديسى وأيضا الكبير القديم ابراهيم بك الى الصعيد •

فى هذه الفترة كان محمد على يعمل مع العلماء والمشايخ والشعب المصرى لصالح الشرعية العثمانية ، ولذلك فما أن استطاع اجلاء كبار المماليك عن مصر حتى أتى بالوالى الشرعى السابق خسرو باشا الى الحكم ، فوجىء علمـــاء مصر بهذا التصرف الغريب من محمد على الذى جاء بحاكم ظالم سابق الى السلطة مما اضطر محمد على الى ابعاد خسرو باشا وتوليـــة أحد العثمانيـــين الأقويـــاء وهو حاكم الاسكندرية خورشيد باشا الذى أحضره محمد على الى القاهرة فى سنة ١٨٠٤ ليتولى نيابة الحكم •

حضر خورشيد باشا الى القاهرة يحاول ضبط الأمور ومقاومه المماليك فاستعان ببعض القوات الكردية فى الشام على استتباب الأمور فى مصر ، وظهر الظلم فى عهد خورشيد باشا ، وبدأ الصراع مع محمد على الذى كان يمثل دور المحافظ على حقوق الشعب فى ذلك الوقت . أحس خورشيد بمكانة محمد على بين أوساط الشعب ، فبدأ مناوراته لابعاد محمد على وقواته عن مصر . لم تفلح هـذه المناورات وضاق الشعب نتيجة المظالم والعبث والفجور وهى الأمور التى ظهرت فى جيش الأكراد الذى كان يحميه خورشيد باشا ، فكانت ثورة عارمة فى كل أنحاء مصر ، وظهر علمـاء مصر الشيخ الشرقاوى والشيخ عمر مكرم يتصدران هذه الثورة ، واستطاعا محاصرة خورشيد باشا فى القلعة ، واجتمع العلماء حول الضابط الشاب محمد على وأقروه حاكما على مصر ، واضطرات السلطة العثمانية فى استانبول الى خلع خورشيد باشا وتوليـة محمد على على مصر فى سنة ١٨٠٥ ، فجمع محمد على بين الشرعية الشعبية حيث أيده شعب مصر والشرعيـة الدستورية (الدينية) حيث أقره السلطان العثمانى واليـا على مصر .

* * *

وكانت أسرة محمد على

١٨٠٥ ــ ١٩٥٢

أسرة محمد على وحكم مصر

شاء القدر أن يهيىء لمصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، وبعد ظروف عصيبة ألمت بالبلاد والعباد على اثر حملة نابليون وما أعقبها من صراع مرير على السلطة بين المماليك بعضهم بعضا ، وبين المماليك والولاة العثمانيين من جهة أخرى ، شاء هذا القدر أن يهيىء لمصر نمطا جديدا من الحكم ، ولتعتلى أسرة محمد على حكم مصر ابتداء به وانتهاء بفاروق الأول ، وذلك على مدى مائة وخمسين سنة شهدت مصر فيها تغيرات جذرية بدأت ببناء دولة حديثة ترتكن الى حكم شمولى مستنير وتخللها فترات قاسية كانت مصر فيها محلا لانظار وأقدام المستعمر البريطانى ، وفى ثنايا هذه الفترة شهدت مصر الحركة الوطنية والحركات الاصلاحية ، وشهدت الثورة الشعبية والثورة العسكرية •

كان لمصر خلال فترة حكم أسرة محمد على حظها الوافر من الازدهار ، ونصيبها الوافر أيضا من المظالم والمفاسد من حكومات كثيرة متعاقبة • حفلت مصر خلال هذه الفترة بنظم جديدة فى التعليم والادارة ، وتحققت لها مشروعات كبرى نافست فيها أرقى الأمم مثل مشروعات السكك الحديدية ، وقناة السويس ، وخزان أسوان •

عرفت مصر فى هذه الفترة المصارف وأسواق المال كما عرفت الهيئات والمؤسسات الدستورية والبرلمانية •

كانت الفترة مزيجا بين استقلال فعلى واستقلال اسمى وتبعية شكلية للدولة العثمانية ، وحماية جائمة من دولة استعمارية كبرى •

كانت فترة غنية بالأحداث ، مليئة بالتناقضات ، اجتمع فيها النور الساطع والضوء الخافت والظلام الدامس •

١٧٦ - محمد على :

تولى محمد على حكم مصر عقب اعتراف السلطان العثمانى به واليـا على مصر سنة ١٨٠٥ نزولا على اختيار الشعب المصرى لمحمد على حاكما عليـه ، بعد الأحداث الدامية التى وقعت عقب جلاء نابليون عن مصر وتنازع المماليـك على السلطة •

كان محمد على قائـدا ألبانيـا للقوات المرابطـة فى مصر تحت اللواء العثمانى المرسل الى مصر لمقاومة الحملة الفرنسية ، وكانت البانيـا حينئذ احدى مقاطعات الدولة العثمانية • وكان محمد على وقت توليتـه مصر فى السادسة والثلاثين من عمره ، وكان قد بنى خلال تواجده فى مصر جسورا من الود والصداقة مع القوى الحقيقية فى مصر وهى علمـاء وقـادة الشعب المصرى الذين ظهرت قوتهم خلال وبعد الحملة الفرنسية •

بدأ محمد على الحكم بالعمل على مطاردة فلول المماليك وقادتهم الذين كانوا يتربصـون بالسـلطة ، وخاصـة البرديسى والألفى ، واستطاع ذلك فى سنة ١٨٠٧ ، الا أن الاختبار الأول الذى واجهـه كان يتمثل فى الحملة الانجليزية المعروفة بحملة فريزر والتى احتلت مدينـة الاسكندرية فى شهر مارس سنة ١٨٠٧ وأشاعت الذعر فى أنحاء مصر كلها ، واتجهت صوب رشيد فلاقت مقاومة عنيفة من أهل رشـيد •

كان الاختبار قاسيا أمام محمد على الذى استطاع أن يجمع قواته بسرعة فائقة لتقاتل الانجليز ، واستطاع بالفعـل أن ينتصر عليهم ، ويوقع معهم معاهدة الجلاء فى دمنهور بعد ستة شهور فقط من حملتهم الفاشلة •

أدى انتصار محمد على فى هـذا الاختبار الأول الى تدعيـم مركزه فى أريكة الحـكم ، وبدأ فى الانفراد بالادارة ، وعمـل على

التخلص الودى والجبرى فى نفس الوقت من مستشاريه من علماء الشعب المصرى وعلى رأسهم عمر مكرم الذى كان قد لعب دورا بارزا فى توليــة محمد على حكم مصر .

وجد محمد على أن فى مشورة العلمــاء دعوة صادقة للاصلاح التدريجى ورفع المعاناة عن الشعب فى الأجل القصير ؛ ولكنه كان يرى أن مثل ذلك الاصلاح لا يفيد شيئا وانما لابد من التغيير الجذرى لاقامة دولة قوية مهابة ، وعلى ذلك رفض دعوة الاصلاح ومضى على منهج ثورى لا يعيبه سوى الاستبداد بالرأى وان كان ينشد فى النهاية القوة والبنــاء والنمو .

كانت الخطوة التالية مطاردة رؤوس المماليك الباقية والقضاء عليهم بصفة نهائية ، ذلك أنهم كانوا يتحينون الفرص للزعامة أو كانت تهادن لاقتطاع المزيد من الامتيازات ، فكانت مذبحة القلعة التى دعــا اليها محمد على أقطاب المماليك فى حفل كبير لتوديع ابنه طوسون الذى كان مسافرا على رأس حملة الى الجزيرة العربية ، فشهدت القلعة فى سنة ١٨١١ نهاية هؤلاء الأقطاب فى عمليــة وحشية وليخلو الطريق تماما لمحمد على للتفرد فى حكم مصر .

اعتمد محمد على نظام احتكار الدولة للنشاط الاقتصادى فألغى نظام الالتزام ، وأصبحت الأرض الزراعية ملكا خالصا للحكومة . غير أن ذلك كان مقرونا فى نفس الوقت ببنــاء القناطر وشق الترع واستصلاح المزيد من الأرض ، واستزراع محاصيل جديــدة كانت سبيلا لملء خزانة الدولة بالمــال ، وليبدأ محمد على فى انشاء الصناعة الحديثة ، وليضع لبنات التعليم العالى والصحة وليغير نظم الادارة كلها رأسا على عقب ، ولينشىء الجيش بقواته البريــة والبحرية ، ثم لينطلق خارج الحدود المصرية بقواته محققا المزيد من الكسب تارة تحت لواء الدولة العثمانية الأم ، وتارة تحت لوائه هو شخصيا .

فكانت معاركه الأولى مع الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية ، وليصبح محمد على واليـا على مكة والمدينة بالاضافة الى مصر ، وابنه ابراهيم باشا واليـا على جدة ٠

وتستمر الحملات ليفتح محمد على ، على رأس الجيش المصرى السودان فى سنة ١٨٢٠ ويصبح السودان جزءا من ولاية مصر ٠

وتستمر الانتصارات على كافة المتمردين فى الولايات العثمانية فاستولى على جزيرة كريت ، واستطاع ابنه ابراهيم باشا أن يسيطر على جزء كبير من بلاد اليونـان لفترة غير قصيرة سنة ١٨٢٤ ٠ وكانت كل تلك الانتصارات للعسكرية المصرية بقيادة محمد على سببا فى تأليب الباب العـالى عليـه وبدء المشكلات بينـه وبين الدولة العثمانية ٠

فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ٠ وبالتحديد فى سنة ١٨٣١ بدأ فتح محمد على للشـام ، وكان ابنه القائد ابراهيم على رأس تلك الحملة حيث كانت المواجهة هذه المرة مع الجيش العثمانى نفسه ، وأوقع به الهزيمة ، بل واستطاع جيش ابراهيم أن يسير الى معاقل العثمانيين فى عاصمتهم وهنا بدأ دور أوروبا التى كانت تتربص شرا بالدولة الاسلامية فى الشرق ، غير أن قوة محمد على المتنامية كانت خطرا جديدا فبدأت انجلترا وفرنسا بالدوران نحو قطبى الخلاف السلطان محمود فى استانبول من جهة ومحمد على فى القاهرة من جهة أخرى ٠ وذلك لتحد م نتوسعات محمد على من ناحية ، ولتخمد الدولة العثمانية من ناحية ثانية ٠

أدى ذلك الى صياغة الاتفاقية التى عقدت سنة ١٨٣٣ والتى أعطت لمحمد على الحق فى حكم مصر وكريت وسوريا وادارة بلاد الحجاز والسودان على أن يترك أملاك الدولة العثمانية الأخرى ٠ ولكن الاتفاقيـة لم تنص على الاستقلال الكلى لمصر عن الدولـة

العثمانية ، وانما كان يفهم منها أن يحكم محمد على وأسرته فى اطار الدولة الأم .

وهنا يختلف المؤرخون حول نوايا محمد على تجاه العثمانيين وهل كان يريد الاستقلال الفعلى عنها أم كان يود تجديد الدماء فى الدولة الأم والمحافظة على دولة اسلامية مهابة فى الشرق ، فيذهب شفيق غربال المؤرخ الكبير الى أن حرص محمد على على دولة عثمانية مهابة الجانب كان هو الدافع لمهاجمتها لا بقصد تقليص أطرافها وانما للقضـــاء على الولاة الفاسدين فى تلك الأطراف . وفى رأى مؤرخنا الكبير أن محمد على كان يقصد توحيد جبهة الدولة الاسلامية فى الشرق لمواجهة العدو الأول الذى أفصح فعلا عن وجهه فى أعقاب الخلافات المتجددة والعسكرية بين محمـــد على والسلطان الجديـــد عبد المجيد ، فكانت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والتى بمقتضاها يكون لمحمد على وأسرته من بعده حكم مصر والسودان وراثيا ، وخلال فترة حياته يكون حاكما على بعض ولايات الشام ، وذلك كله فى نطاق الدولة العثمانية حيث يلتزم محمد على وأولاده من بعده بدفع الجزيـــة السنوية للباب العالى .

كان محمد على يكره تدخل الدول الأوروبية فى أى مســـائـــل داخلية بينه وبين الدولة العثمانية ، غير أن تلك الدول قد وجدت فى محاولات التصنيع والتطوير التى بدأها محمد على فى مصر ، وما يمكن أن تمتد اليـــه فى الشرق كله خطرا على أسواقها ، وعلى ذلك فقد فرضت على محمد على ما يعرف باسم سياسة الباب المفتوح ، والتى تعنى فتح أبواب الاقتصاد المصرى للبضائع وللتجار الأجانب الأمر الذى أدى الى وأد المحاولات الرائعة لتصنيع مصر فى مهدها .

محمد على والاصلاحات الداخلية :

كانت هناك الى جانب تطور العسكرية المصرية فى الداخل والخارج تطورات مماثلة على أوجه الحياة فى مصر .

فعلى المستوى الثقافى أنشئت المدارس والمدارس العليا وكلية الطب وكلية الألسن ، بل وظهرت الثقافة المصرية المنشورة ممثلة فى جريدة الوقائع . وعلى مستوى السلطة ورغم تفرد محمد عى بالحكم الا أنه فى سنة ١٨٢٩ ميلادية كان قد تكون مجلس شورى من علماء مصر وأعيانهم وان كان بالاختيار المباشر منه شخصيا الا أنه كان يناقش كافة المشكلات المتعلقة باقتصاد مصر وسياساتها وان كان محمد على هو صاحب القرار الأخير .

وفى المجال الزراعى كان المزيد من استصلاح الأراضى وشق الترع وادخال المحاصيل الجديدة ولا سيما القطن الذى استمر عشرات السنين بعد ذلك محورا للاقتصاد المصرى .

وفى مجال الصناعة كانت صناعة الأسلحة وصناعة السفن فى المقام الأول ثم تلاها عدد من الصناعات الهامة التى شكلت فيما بينها نهضة صناعية ذات شأن كبير .

ولعل أن فترة حكم محمد على وقد طالت الى ما يجاوز أربعين سنة قد شهدت تطورا حقيقيا وبعثا جديدا فى أركان الدولة بعد فترات مظلمة لعهد ولاة متبدلين غير مستقرين كانت تنازعهم فى سلطاتهم بكوات المماليك .

كان للفترة الطويلة التى قضاها محمد على فى الحكم وما واكبها من أحداث جسام وفتوحات هائلة ، وما واجهها من مشكلات عديدة كان لكل ذلك أثره المباشر فى أن يعترى محمد على الوهن وضعف الصحة فضلا عن الشيخوخة فآثر التنازل عن السلطة والحكم لابنه

القائــد ابراهيم فى سنة ١٨٤٨ ، وليقضى هو أيامه الأخيرة فى هدوء ودعة واثقا فى قدرة ابنه الفذ على تسيير الامــور فى مصر • ولتبــدأ صفحة جديدة فى أسرة محمد على وهى عهد ابراهيم • ولم يلبث محمد على بعد هــذا التنازل بنحو سنة ونصف الا وقد انتقل الى جوار ربه فى سنة ١٨٤٩ ميلادية وليتم دفنــه فى مسجده بالقلعة بالقاهرة بعد حيــاة حافلة ما زال يختلف العــالم حول ايجابياتها وسلبياتها •

١٧٧ ــ القائد ابراهيم باشا :

وهو ابن محمد على ، ولعله لم يكن الابن الأكبر ، ولكنه كان أكبر الأحياء من أبناء محمد على ، وأكثر الأبناء التصاقا بأبيه فى كافة الأعمال العامة التى عاصرها منذ بدايتها •

كان ابراهيم هو الذراع القوى لأبيه محمد على حيث كان على رأس الحملات العسكرية الى الشام والحجاز وكريت واليونــان ، وذلك فى عهد والده الكبير •

تقلد ابراهيم السلطة فى حيــاة أبيه بعد مبايعة العلماء والشيوخ وأعيــان البلاد ، واستصدر ديوان مصر موافقة السلطان العثمانى على تلك المبايعة •

استمر ابراهيم فى حكم مصر فترة محدودة واصــل فيها مسيرة أبيه فى الاعمار والتشييد وبنــاء العسكرية المصرية الا أن القــدر لم يسمح لابراهيم أن ينجز الكثير وقد أصبح حاكما وهو الذى أنجز الكثير عندما كان نائبا لوالده وقائد لجيشه فى السابق •

فلم تمر ثمانية أشهور حتى توفى ابراهيم باشا وكان أبوه محمد على ما زال على قيد الحياة • ولعل كثيرا من المؤرخين يقفون أمام

الروع واشتداد المرض بالرجل الكبير محمد على عقب وفـــاة ابنه القوى الشاب الأمر الذى عجل بنهايته بعد رحيل ابراهيم بثمانيـــة أشهر أخرى •

رحل ابراهيم ليخلفه فى حكم مصر عباس الأول وهو حفيد محمد على ، وكان ذلك باعتباره أكبر أعضاء الأسرة سنا وكان ذلك فى حيـــاة جده الأكبر •

١٧٨ ـ عباس الأول :

تولى حكم مصر عقب وفاة عمه ابراهيم باشا ، كان عباس وهو نجل الابن الأكبر طوسون الذى سبق أن مات فى أوائل عهد محمـــد على •

ولد عباس فى مصر أثنـــاء حكم جده ، وقد عاصر فى أول حياته النشأة العسكرية التى كانت السمة الرئيسية لأبيـــه وجده وعمه ، وتمرس فى عدد من المناصب غير أنه لم يكن له نفس الحنكة والمهارة التى كانت لسلفيـــه فكان عهده بمثابة ارتداد لمسيرة النهضة التى بدأها محمد على فى عشرينيات القرن التاسع عشر • نقص تعداد الجيش المصرى ، وتم اغلاق بعض المشروعات الصناعية فى عهده ، وألغى عددا من المدارس التى قد أنشأها جده الكبير وخاصة مدرسة اللغات التى كان على رأسها رفاعة الطهطاوى •

واقع الأمر أن سياسة عباس الأول فى تضييق النشاط الاقتصادى كانت تنفيذا لاتفاقية الباب المفتوح التى أملتها الارادة الأجنبية على مصر •

غير أن هناك ثمة انجاز خطير فى عهده تمثل فى ادخال السكك الحديدية لأول مرة فى الشرق لتربط بين الاسكندرية والقاهرة ثم لتربط بين القاهرة والسويس • وتـــم فى عهـــده كذلك شق الطرق

وتعبيدها ومد الخطوط لتكتمل بعض المشروعات فى عهده ، ولتستمر بعده استنادا الى البنيـــة الأساسية التى وضع أساسها جده •

كان مشروع انشاء السكك الحديدية يمكن أن يتوج حياة عباس فى الاضافة الى عمران مصر فى مسيرة التاريخ ، ولكن العمر لم يمهل هــذا الحاكم سوى ست سنوات فمات سنة ١٨٥٤ مخلفا حكم مصر لعمه محمد سعيد باشا ابن محمد على •

١٧٩ ــ محمد سعيد باشا :

وهو من أبناء محمد على الذين ولدوا بمصر أثناء ولاية أبيهم فقد ولد بالاسكندرية سنة ١٨٢٢ ، وتربى فيها وخالط أهلها الأمر الذى جعله فيما بعد يحكم من الاسكندرية ويوصى بأن يدفن بها •

تولى محمد سعيد حكم مصر فى سنة ١٨٥٤ ميلادية ، وكان قد تجاوز الثلاثين من عمره ، وبدأت مسيرته فى الحكم لمدة تسع ســنوات كانت مسرحا لأحداث جســام فى شئون مصر الداخليــة والخارجية •

كانت من أعماله الداخليـــة التى تذكر له هو اصدار اللائحة السعيدية والتى تقضى بتملك الفلاحين المصريين للأرض بعد قرون توالى فيها نظام الالتزام ثم احتكار الدولة •

فلأول مرة فى القرون الحديثة يصبح الفلاح المصرى المـــالك القانونى للأطيان التى يفلحها ، وأصبح من حقه التصرف فيها بالبيع والرهن والتأجير وتنتقل من بعده الى ورثته ملكية خالصة •

وقد اقترن صدور اللائحة السعيدية فى ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ ببعض القرارات الهامة والتى كانت فى مجملها مقدمة طيبة لاصلاح زراعى جديد ، فقد قرر سعيد الغاء نظــام احتــكار الحاصلات

الزراعية ، وأصبح للفلاح حق التصرف فى هـذه الحاصلات وتملك ثمنها ، كذلك كان هناك النظام الضريبى الذى أخذ الطابع النقدى بعد أن كانت الضريبة تجبى عينا من المحصول ذاته ، واقترن ذلك كله بأعمال تطهير الترع مثل ترعة المحمودية ، وبدأ تنفيذ عدد من مشروعات الرى الكبرى •

وعلى الصعيد الداخلى أيضا أتم سعيد باشا الخط الحديدى بين كفر الزيات والقاهرة ، وأنشأ خطا جديدا الى السويس وأصبح هـذا الخط يسـهل حركة التجارة الدوليـة بين مينائى السويس والاسكندرية •

كذلك أنشئت فى عهده مؤسسات مشتركة بين الأجانب والمصريين النقل البحرى والبرى •

اهتم سعيد بالجيش المصرى وعمل على تحبيب الجندية الى أهل مصر فأصدر قراراته بتقصير مدة الخدمة العسكرية فجعلها سنة واحدة وجعل الخدمة عامة على أبناء كافة الطبقات ، واعتنى بالمظهر العام لملابس الجنود ، وقام بانشـاء عدد من المعسكرات لتدريب القوات •

غير أن سعيد باشا لم يقـم بجهد ملموس فى تطوير الاسـطول البحرى المصرى فى الوقت الذى كانت الدول الأوروبية تعنى بأساطيلها البحرية ، وربما كان ذلك يعود الى الضغوط الدوليـة التى تعرض لها من الدول الكبرى التى كانت تخشى قيام قوة بحرية مرهوبة الجانب فى مصر •

وفى اطار الكثير من قرارات محمد سعيد الداخلية كانت هناك علامة مميزة لهذا العهد ألا وهى اتفاقية قناة السويس • فبمجرد اعتلائه عرش مصر عمل المهندس الفرنسى الشهير المسيو ديليسبس

على اقناع صديقه سعيد بمشروع قناة السويس ، واستطاع أن يحصل منه على امتياز القناة ، حيث وافق على قانون انشاء الشركة ، ونص العقد على منح هـذه الشركة حق التمتع بجنى ثمار القناة لمدة ٩٩ سنة مع تعهد سعيد باشا على أن يكون أربعة أخماس حجم العمالة فى حفر القناة من الفلاحين المصريين ، كذلك أعطى هـذا القانون للشركة الأجنبية حق استيراد جميع مستلزماتها من الخارج دون تحصيل أية ضرائب جمركية عليها .

كذلك نص عقد الامتياز على أن تحصل الحكومه المصرية على ١٥ ٪ فقط من صافى أرباح الشركة .

كان عقد الامتياز الذى منحه محمد سعيد للشركة الفرنسية مجحفا لمصر ذلك أنه قد قام بتمويل الشركة بالعمالة وبرأس المال أيضا قيمة بعض الاسهم التى اشترتها الحكومة المصرية ، غير أن أهم بنود الاجحاف تمثلت فى كون الشركة الفرنسية مالكة للأراضى على ضفتى القناة مع الامتيازات الخاصة بالضرائب الأمر الذى أدى الى نقص ملحوظ فى خزينة الدولة ، وبدأ لأول مرة فى تاريخ مصر الاقتراض من الخارج . فقام محمد سعيد سنة ١٨٦٢ بعقد أول قرض مع أحد بنوك انجلترا بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات بفائدة ٧ ٪ سنويا ولينهى عهده فى حكم مصر بفتح باب الاستدانة حيث ما لبث أن مات بعدها فى سنة ١٨٦٣ ودفن بالاسكندرية مخلفا على حكم مصر ابن أخيه اسماعيل .

***

١٨٠ – اسماعيل

ارتقى اسماعيل باشا عرش مصر فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ويعتبر اسماعيل حفيدا مباشرا لمحمد على حيث أنه أحد أبناء القائد العظيم ابراهيم .

وقد ولد اسماعيل بالقاهرة سنة ١٨٣٠ وكان محل رعاية جده الأكبر الذى أرسله لاتمام علومه فى فرنسا ، وعاد الى مصر وتولى فى عهد أبيه وعمه عددا من المهام التى مكنته بالالمام بشئون الحكم .

كان عهد اسماعيل جديدا على مصر فى كل ملامحه وما زال تقييم هذا العهد محل دراسة المؤرخين حيث كثرت فيه الايجابيات التى ما زالت ماثلة الى الآن ، وكثرت فيه السلبيات التى ما لبثت أن أوقعت مصر فى براثن المديونية والاحتلال .

ويمكن تناول عهد اسماعيل وانجازاته بايجابياته وسلبياته فى أكثر من نطاق .

أولا – فى النطاق الزراعى :

استثمر اسماعيل قيام الحرب الأهلية فى أمريكا فى بداية عهده استثمارا حسنا حيث سنحت الفرصة للعناية بزراعة القطن ، وخاصة القطن الطويل التيلة . واستكثر اسماعيل من مشروعات الرى الحديثة ، وزادت الرقعة الزراعية المخصصة للقطن ، وارتفعت قيمة صادرات مصر من ذلك المحصول الهام ، لارتفاع كميته ، وزادت الثروة فى البلاد ، ونشطت حركة التجارة واجتذب ذلك الجو عددا من رؤوس الأموال للاستثمار فى مصر .

ولكن ما أن انتهت الحرب الأهلية الامريكية بعد سنتين فقط من بداية حكم اسماعيل وعاد القطن الامريكى للظهور فى الأسواق

العالميــة حتى انخفض سعر القطن المصرى انخفاضا سريعا وسبب ذلك نكسة اقتصادية اضطرت معها الحكومة الى فرض المزيد من الضرائب على المزارعين ، وانتشرت حركة المرابين لاقراض الأهالى بأسعار فائدة عاليــة ، وظهــر الارتباك فى الاقتصــــاد المصرى فى مجموعه •

تداركا للموقف الزراعى أصدر اسماعيل توجيهاته بالاستكثار من زراعة القصب والعمل على زيادة مصانع الســكر ، واقتضى ذلك الحال التعديل فى طرق الرى من نظام الأحواض الى نظام الرى بالترع ، فعمل اسماعيل باشا على حفر ترعة موازيــة للنيل ابتداء من أسيوط يبلغ طولها ١٨٠ ميل ، وأطلق عليها اسم ترعة الابراهيمية نسبة الى أبيه ابراهيم ، وزاد محصول القصب وزادت قيمة صادرات السكر ، وبدأ التحسن التدريجى يظهر على الزراعة المصرية •

ثانيا ـ وفى النطاق الصناعى :

شهد عهد اسماعيل عددا من الصناعات الهامة فى مجال الغزل والنسيج الى جانب مصانع السكر فى الفشن والمنيا وأرمنت ، ومصانع الورق ، ومصانع الأسلحة لسد الاحتياجات العسكرية للجيش •

هــذا فضلا عن أن حركة البنـــاء والاعمار التى شهدها هــذا العهد شجعت الكثير من الأهالى على بنـــاء قمائن الطوب والمحاجر ومعدات البنـــاء والأخشاب ، وانتعشت بعض الصناعات الحرفيـــة المواكبة لمجال الاعمار فى مصر •

وفى اطار الأعمال العامة شهد عهد اسماعيل استكمال خطوط السكك الحديدية بين القاهرة ووسط صعيد مصر •

ـ وبنى كوبرى كفر الزيات ليربط الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة بشريط مباشر متصل •

ـ تم توسيع ميناء الاسكندرية وبنـــاء الأحواض الجافة فيه •

ـ وبشكل موازى شيد اسماعيل أحدث النظم للموانى والمنائر على سواحل مصر على البحر الأبيض والبحر الأحمر •

- تكونت فى عهد اسماعيل شركة ملاحية وطنية تسمى بالشركة العزيزية نسبة الى السلطان العثمانى عبد العزيز ، واستطاعت هذه الشركة منافسه الشركات الأجنبية ، وبعد توسعها امتلكت الحكومة الشطر الأعظم منها وأطلق عليها شركة البوستة الخديوية التى كانت تنقل معظم تجارة مصر الخارجية .

- فى عهد اسماعيل أيضا تأسست أول ادارة بريد وطنية . واستطاع الخديوى مد ٥٠٠٠ ميل من الأسلاك البرقية .

- تأسست أيضا فى الاسكندرية شركة لبون للانارة والكهرباء التى ما لبثت فى سنة ١٨٦٨ أن أضاءت القاهرة والاسكندرية وبنادر المديريات الكبرى .

ثالثا - فى نطاق التعليم :

أقام الخديوى اسماعيل فى مصر نهضة تعليمية حقيقية استنادا الى ما كان يؤمن به من أن الرقى يعتمد أساسا على التعليم ، وتبعا لذلك استدعى اسماعيل خبراء التعليم مثل دور بك السويسرى ، وروجرز بك الانجليزى وعلى باشا مبارك المعلم المصرى لوضع القانون الأساسى للتعليم وتنظيم مجلس المعارف الأعلى .

وصدر قانون التعليم الذى بمقتضاه انتشرت المدارس الابتدائية فى القاهرة والاسكندرية ومدن الوجه البحرى والقبلى ، وقسمت المدارس الى ابتدائية وثانوية وعالية ، وبدأ اسماعيل فى ارسال البعثات الى أوروبا .

ولم يكن بناء المدارس مقصورا على الحكومة الخديوية فقط ، وانما اشترك ديوان الأوقاف والجمعيات الخيرية فى تأسيس المدارس والانفاق عليها .

وبمحاذاة التعليم جدد الخديوى اسماعيل المطبعة الأميرية فى بولاق وأدخل فيها الآلات الحديثة ، وأسس حولها معاملا للورق .

اهتم اسماعيل بالثقافة المصرية فبدأ مع علماء الآثار الأجانب فى البحث والتنظيم فى آثار مصر القديمة ، وعهد الى مريت باشا اقامة

المعرض المصرى للآثار فى باريس تم تم تشييد المتحف المصرى فى قصر النيــل •

والى جانب ذلك كله كانت الحركة الثقافية فى مصر تموج بخريجى المدارس العليــا المصريين وأعضاء الحركة الأزهرية المستنيرة • ووفد الى مصر الكثير من علمــاء الشرق والغرب ، وعقدت المنتديات الفكرية والشعرية والدينية ، وانتشرت الفرق المسرحيــة وازدهرت فنــون الموسيقى والغنـــاء ، ونشطت حركة الترجمة لأعظم النصوص الأدبية والروايات العالميــة •

العلاقة بين اسماعيل والسلطنة العثمانية :

سادت هــذه العلاقة وعلى مدى فترات حكم اسماعيل أجواء من الصفاء والجفاء ، بدأت بالود الشديد والثقة المتبادلة على اثر زيارة السلطان عبد العزيز الى مصر فى السنة الأولى لعهد اسماعيل • وكان اســتقبال مصر الحافل للسلطان العثمانى من الروعــة بمكان بحيث استطاع اسماعيــل بعده أن يستصدر من الباب العــالى عــددا من الفرمانات التى تؤكد الاستقلال الذاتى وحق الحكومــة الخديويــة فى عقد المعاهدات التجارية وعقد القروض دون استشارة السلطان ، بل وأكثر من ذلك تغيرت قاعدة الوراثة لتقضى بأن تكون وراثة الحكم لأكبر الأنجال كما هو الحال فى الحكومات الاوروبية •

وتغير لقب الوالى الى لقب الخديوى الذى يوازى باللغة التركية لقب ملك أو سلطان • ولكن الجو تقلب بعد ذلك الى الجفاء حين أوعــز البعض الى السلطان العثمانى بأن اسماعيل يسعى الى الاستقلال الكامل • وأكدت هــذه المخاوف عدم دعوة اسماعيل للسلطان لحضور حفل افتتاح قناة السويس ذلك الحفل الذى تصرف فيه الخديوى على النحو الذى أظهره بجانب ملوك أوروبا وأمراءها بمظهر الملك المستقل لدولة مستقلة قويــة غنيــة مرهوبة الجانب•

هــذا فضلا عن استعدادات اسماعيل بالقوة العسكرية لتأمين حدود مصر الشمالية خشية احتمال أى مواجهة مع القوات العثمانية •

وتبدلت الأمور مرة أخرى ليعود التفاهم والصفاء حين ظهر أعداء جدد للخديوى اسماعيل تمثلوا فى حكومات الدول الأوروبية التى أرهقت كاهل مصر بالديون على النحو الذى يمكن أن نتعرف عليه حالا ٠

الخديوى اسماعيل وقناة السويس :

لعل اسم الخديوى اسماعيل يرتبط فى ذاكرة التاريخ بالاحتفال المهيب لافتتاح قناة السويس ، وصورة مصر الزاهية الغنية وحاكمها القوى المستقل المهاب ٠

غير أن قصة اسماعيل مع قناة السويس قد بدأت قبل حفل الافتتاح وفى أعقابه ، وبل وظلت آثارها معلقة بذاكرة مصر لسنوات بعيدة حتى بعد اسماعيل نفسه ٠

ففى أول أيام حكمه حاول اسماعيل بصدق التخفيف من شروط الامتيازات التى حصلت عليها الشركة الفرنسية للقناة ، فكان يكره أن تصدر مصر العمالة بهذا العدد الكبير من المصريين والذى يتعرض الهلاك فى ظروف قاسية من الحر والبرد ٠ وكان يكره أن تستولى الشركة الفرنسية على الأراضى المحيطة بضفتى القناة ، وكان يكره أن تحتكر هذه الشركة امتياز حفر ترعة المياه العذبة فى منطقة القناة ٠ وبدأ يطالب بتخفيف هذه الامتيازات والغاء بعضها ٠

وتدخل نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى الأمر ، ونزل على شروط اسماعيل مقابل تعويضات من الحكومة المصرية قبل اسماعيل دفعها استردادا لبعض حقوق مصر وتحريم استعمال السخرة ٠ ولخص اسماعيل موقفه فى كلمة واحدة قال فيها : أريد القناة لمصر ، لا مصر للقناة ٠٠

وتم افتتاح قناة السويس رسميا فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩ بحضور الامبراطورة أوجينى ملكة فرنسا وعدد من ملوك وأمراء العالم وظهر الخديوى كملك مستقل لدولة قوية عظيمة ، وأنفق على الاحتفال مبالغ باهظة ضخمة ٠

اقترن هـذا الاحتفال بافتتاح دار الأوبرا فى القاهرة وتشييد عددا من القصور والميادين •

وتمضى قصة اسماعيل مع القناة حين اضطر أن يعرض أسهم الحكومة المصرية فى القناة للبيع بعد خمس سنوات فقط من الافتتاح العظيم وتحت ضغط الديون التى أحاطت بالاقتصاد المصرى نتيجة توسع الخديوى فى الانفاق ، سواء أكان الانفاق فى مجال بناء العسكرية المصرية ، أو فى مجال الاعمار •

أدى احتياج الخديوى للأموال الى عرض أسهم القناة للبيع وانتهز رئيس الوزراء البريطانى ذزرائيلى هذه الفرصة السانحة وأبرق الى بنك روتشيلد يأمره بدفع القيمة نقدا للخديوى ، وقبل الخديوى أربعة ملايين من الجنيهات ثمنا لحصة مصر فى أسهم القناة ، وأصبحت انجلترا فى مركز الشريك القوى فى الشركة الفرنسية ، ولم يبق لمصر سوى ١٥ ٪ فقط من صافى أرباح القناة •

وكانت هـذه احدى السقطات الكبيرة التى وقع فيها الخديوى اسماعيل ، والتى حرمت مصر من جانب هام من الايرادات التى طالما كافحت مصر بدماء أبنائها وأرواحهم فى حفر تلك القناة •

امتداد دولة مصر فى أفريقيا فى عهد اسماعيل :

زاد الانفاق العسكرى زيادة كبيرة فى عهد اسماعيل وخاصة بعد أن أصبح للخديوى الحق المطلق فى تشييد العسكرية المصرية وزيادة عدد أفراد القوات المسلحة • واتجهت أنظار اسماعيل الى جنوب مصر كامتداد طبيعى لها ولحماية الأراضى المتاخمة لدلتا النيل فى قلب أفريقيا ، وعلى ذلك عمل اسماعيل على تكوين دولة مصرية مترامية الأطراف فى داخل أفريقيا رافعا بذلك شعار الكشف الجغرافى وتحرير الرقيق لكسب الدول الصديقة لتأييد حملته فى أفريقيا ، بينما كان الغرض أساسا جعل مصر مهابة الجانب ودولة كبرى فى الشرق •

فكانت الحمله المصرية الاولى التى رأسها السير صمويل بيكر وهو أحد علماء الكشف الجغرافى ، وكان قد سبق له اكتشاف موقع بحيرة البرت . استطاع بيكر فى هذه الحملة تأسيس محطات حربية تجارية مصرية على طول مجرى النيل .

استعان الخديوى اسماعيل بعدد من أكفأ الضباط والمهندسين وخاصة المحايدين من الامريكيين الذين تم تسريحهم من الجيش الامريكى بعد انتهاء الحرب الاهلية ، فكان منهم الجنرال ستون الذى عين فى وظيفة أركان حرب الجيش المصرى الذى استعان هو الاخر بعدد من الامريكيين، وتخرج على يديهم ضباط مصريين لهم من المهارة والتدريب ما جعلهم يتصدرون حملات اسماعيل فى السودان .

واستمرت الحملات المصرية فى أفريقيا حتى حانت سنة ١٨٧٤ وخفق العلم المصرى جنوبى خط الاستواء ، ودخلت القوات المصرية الى أوغندا وزنجبار ومن قبلها الصومال ، وارتفع اسم الخديوى اسماعيل فى سجل العظماء فى القرن التاسع عشر ذلك لارتباط حملاته فى أفريقيا بمحاربة تجارة الرقيق والغاء عبودية الانسان للانسان ، أو هكذا كان شعار الحملات ، ولا يعلم صدق النوايا سوى الله وحده ، ولكنه بالفعل كانت كل توجيهاته بمطاردة تجار الرقيق على ضفتى مجرى النيل ، ولعل الكثير من المذكرات المعاصرة لهذه الفترة كانت تربط بين هذه الحملات ونشر الاسلام فى أفريقيا ، ولكن ذلك كان يرد فى بعض مذكرات قلة من الاوروبيين الذين كانوا يهدفون الى تأليب أوروبا لوقف مد اسماعيل الى أفريقيا . واذا ورد الارتباط بين حملات اسماعيل ونشر الاسلام فى أفريقيا فى مذكرات بعض القادة المصريين الذين عاصروا هذه الفترة ، فاننا لا نملك تكذيب ذلك لان تواجد القوات المصرية فى هذه المناطق واجتماعهم للصلاة واحتكاكهم بالاهالى والاعلان عن أن تجارة الرقيق أمر ترفضه الفطرة السليمة والشرائع السماوية السمحه ، انما كان يدعو ذلك الامر أهالى تلك البلاد من الوثنيين الى اعتناق الاسلام ، وهذا أمر طبيعى لا يمكن للدراسة العلمية السليمة أن تدخله فى حسابات اسماعيل

وقراراته وان كانت النوايا أولا وأخيرا انما يكشف عنها فقط عالم الغيب والشهادة فقط .

حقق الجيش المصرى فى عهد اسماعيل فتوحات جديدة حتى سواحل المحيط الهندى ، وأصبح النفوذ المصرى يمتد الى منابع النيل ، بل وأكثر من ذلك كان ساحل البحر الاحمر بالكامل تحت السيادة المصرية بعد معارك طويلة بين الجيش المصرى بقيادة رؤوف باشا ، والجيش الحبشى، غير أن كثرة الخلافات أدت الى محدودية الانتصار فى حرب الحبشة ، واستطاع جيش مصر رفع العلم على بعض الموانى على البحر الاحمر فى الجنوب .

هذا كله الى جانب اشتراك الجنود المصريين فى معارك السلطنة العثمانية ذاتها ، فكان المصريون فى مركز الصدارة فى الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ ، وكان اشتراكهم فى قمع ثورة جزيرة كريت من قبل . وامتلكت مصر قوة عسكرية وبحرية عالية المستوى مكنتها من أن تكون هى دولة الشرق الاولى بحق .

السياسة والحكم فى عهد اسماعيل :

فى نوفمبر سنة ١٨٦٤ أصدر الخديوى اسماعيل قرارا بتكوين مجلس شورى النواب وكان عدد أعضاؤه خمسة وسبعون عضوا ، وذلك كخطوة أولى لارساء أسس الحياة النيابية فى مصر ، وان كان واقع الامر أن سلطة اسماعيل كانت من القوة والسطوة بحيث كان مستأثرا بالحكم ، ولم يكن المجلس النيابى فى أول الامر سوى استكمال للشكل الحضارى الغربى ، والذى يمكن أن يأنس اليه والى مشورته وقت الحاجة .

وفى أغسطس سنة ١٨٧٨ صدر الامر الخديوى بتشكيل أول وزارة مسئولة فى مصر ، وترأس مجلس الوزراء الاول نوبار باشا وهو أرمنى الاصل تدرج فى مناصب كثيرة فى مصر ، وكان بمثابة وزيرا لاسماعيل فى

الخارج • تكونت الوزارة من نوبار باشا رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية والعدل ، ورياض باشا وزيرا للداخلية ، وراتب باشا وزيرا للجهادية ، وعلى باشا مبارك وزيرا للاوقاف والمعارف العمومية •

وبدأ اسماعيل فى نهاية سبعينات القرن التاسع عشر بحكم مصر من خلال المجالس المؤسسية وان كان بالفعل هو صاحب القرار الذى لم يكن يحد من امتلاكه له سوى ضغوط صندوق الدين ، وتوجيهات السلطان العثمانى • وكانت لمجلس شورى القوانين فى الواقع بعض الاراء المعارضة ضد المسئولين الاجانب الذين جلبهم الخديوى من الخارج لحل بعض المشكلات المالية ، اذ صمم المجلس على خضوع كل الموظفين الاجانب له واعتبارهم هم المسئولين أمامه عن كافة تقاريرهم وأعمالهم •

استجاب الخديوى أكثر من مره لمطالب مجلس الشورى ؛ وغير من الوزراء تلبية لمطالب الامة ، وأسندت أعمال الوزارة الى شريف باشا الذى عهد اليه بتأليف أول وزارة وطنية تكون مسئولة أمام نواب الشعب، وكلفها بوضع لائحة دستورية للبلاد ، وبالفعل تقدم شريف باشا بمشروع الدستور فى سنة ١٨٧٩ كأول دستور مصرى يصبغ على النواب الحصانه البرلمانية ويعطى لهم حق استجواب الوزراء ويؤكد سيادة الاسلام دينا للدولة ، وسيادة القانون واحترامه •

ولكن الامور لم تكن لتجرى مجراها الصحيح ، فقد كان التدخل الاجنبى السافر يتزايد فى مصر تحت وطأة الدين ، وكانت الامتيازات الاجنبية التى قد منحها نوبار باشا للاجانب قد ساء استعمالها ، وكانت ديون الحكومة الخديوية التى أستخدمت على الجيش والتعمير من ناحية وعلى البذخ من ناحية ثانية قد أدت الى بيع أسهم القناة ، وتشكيل لجنة أجنبية انتهت الى تشكيل ادارة خاصة بالديون يطلق عليها صندوق الدين المصرى العام ، وكانت هذه اللجنة أول تحدى فعلى علنى لسلطة الخديوى، اذ أن اللجنة كانت تمثل حكومات الدول الدائنة ، وأسفر تدخلها عن

التصادم بينها وبين الخديوى أكثر من مره ، وانتهى الامر الى قبـــول اسماعيل تعيين وزيرين أجنبيين فى الحكومة المصرية أحدهما ولســـون للمالية وهو انجليزى ، والاخر بلير للاشغال وهو فرنسى •

وبدأت الحركة الوطنية تنبت فى مصر ضد تدخل الاجانب ، وضـــد نوبار باشا ، غير أن اسماعيل كان يعارض التدخل الاجنبى بحده فى الوقت الذى كان فيه مضطرا تحت وطأة الديون أن يكون مكتوف اليدين •

تدخل بسمارك مستشار ألمانيا بتهديد الخديوى اسماعيل بالتدخل فى مصر اذا لم تفى مصر بتعهداتها للدول الدائنة ، فما كان من الحكومتين الانجليزية والفرنسية الا العمل على نصح اسماعيل بترك الحكم لابنـــه توفيق ، ماطل الخديوى فى تنفيذ تلك النصيحة الماكرة التى عرف منها أن عزله عن عرش مصر سيمهد الطريق أمام مزيد من التـــدخل الاجنبى فى شئون مصر •

اللحظات الاخيرة فى حكم اسماعيل :

وقف اسماعيل بعناد أمام الانذارات التى أخذت شكل النصـــائح سواء من ألمانيا أو انجلترا وفرنسا واستند فى ذلك على الامل فى أن يقف الباب العالى الى جانبه فى محنته أمام الاجانب ، غير أن السلطان العثمانى نفسه اتخذ قراره فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ بعزل اسماعيل عن ولاية مصر ، وتولية ابنه الامير توفيق حكم مصر لتأمن البلاد شر التدخل الاجنبى •

وفى ٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩ غـــادر اســـماعيل القاهـــرة ومنهـــا الى الاسكندرية ثم ركب البحر الى خارج البلاد ، كانت رحلته الى أوروبا فى أول الامر يترقب سير الامور فى مصر ، ثم استقر به المقام فى استانبول ، وفاضت روحه فى سنة ١٨٩٥ ، ونقل جثمانة الى القاهرة فى ١٣ مارس ليتم دفنه فى مسجد الرفاعى •

وطويت صفحة اسماعيل فى مصر ، وهى صفحة بـــارزه فى حيـــاة

مصر ، صفحة عرفت فيها مصر الزهو كما عرفت الانحسار • عرفت القوة والمجد والعظمة وعرفت التدخل الاجنبى السافر تحت وطأة الدين الثقيل•

عرفت مصر فى عهد اسماعيل الامتداد جنوبا فى السودان ثم الى أفريقيا ، عرفت الانتصار وعرفت الفشل ، عرفت الاعمار وعرفت البذخ والاسراف • كان عهدا مليئا بالكثير من الانجازات والتراجعات ، ولكنه العهد الذى عرف المؤسسات النيابية وعرف الدستور •

واستمرت المسيرة •••

***

(١٨١)

الخديوى توفيق

تولى توفيق حكم مصر فى يولية سنة ١٨٧٩ عقب عزل والده اسماعيل ، ولم يكن غريبا أن يبدأ توفيق مسيرة الحكم وفق رغبة الدول الكبرى بعد أن رأى بعينيه درجة التدخل الاجنبى الذى أدى الى عزل والده اسماعيل .

كان توفيق أكبر أنجال اسماعيل ، ولد فى مصر سنة ١٨٥٢ وتعلم بها واستمر بجانب والده يتقلب فى عدد من الوظائف الى أن آل اليه حكم البلاد .

فى أول حكمه كلف شريف باشا باعادة تشكيل الوزارة وفقا للدستور، وكان شريف محبوبا لدى الجميع ، كذلك فقد لاقى اعادة تشكيل الوزارة، لاقى هذا القرار قبولا وطنيا يحمل معه الامل فى تخليص مصر من ربقة التدخل الاجنبى .

غير أنه ما لبث أن شب النزاع بين شريف باشا والخديوى توفيق بعد شهور قليلة من تشكيل الوزارة ، ذلك أن شريف قد أراد توسيع اختصاصات مجلس النواب على حساب اختصاصات الخديوى ذاته ، فانتهى الامر بتشكيل وزارة رياض باشا الذى اتفق مع الخديوى توفيق فى الاراء ، وساد الوفاق بينهما لمدة غير قصيرة .

كانت الحالة المالية للبلاد ما زالت مرتبكة فعملت الوزارة الجديدة على الغاء بعض الضرائب التى كانت قد فرضت فى أخر عهد اسماعيل . كذلك تشكلت لجنة لتصفية الديون فى سنة ١٨٨٠ وأصدرت تقريرها الذى حدد حجم الدين الخارجى بمبلغ ٩٩ مليون جنيه وقررت اللجنة عدم عقد قروض جديدة الا بموافقتها ، وعملت على احداث نوع من الجدونة وتخفيض أعباء الفوائد على الديون القديمة الا أن بواطن الامر كانت

تحمل بذور الثورة على مراقبة الاجانب لمالية مصر .

كان جمال الدين الافغانى قد وصل الى القاهرة من فترة سابقة وهو أحد الثوار المسلمين الذى قد يعود أصله الى بلاد فارس أو بلاد الافغان، وكانت ثورته فى كتاباته واجتماعاته التى كان يدعو فيها الى ضرورة يقظة الامة الاسلامية لتنهض بأعباء الجهاد ضد الاستعمار فى كافة ربوع الامة.

هذا فضلا عن انتشار بعض الصحف التى كانت تشعل الحماس ضد النفوذ الاجنبى وتنقل أفكار الديمقراطية وضرورة مشاركة الشعب فى حكم البلاد . وتألفت بعض الجمعيات السرية التى كان أشهرها ذلك التنظيم السرى الذى جمع بين الضباط المصريين والذى أدى فيما بعد الى الثورة العرابية .

الانتفاضة العرابية :

بدأ التذمر فى صفوف المصريين من الضباط فى الجيش المصرى نتيجة لتفوق كل من العنصر التركى والعنصر الجركسى فى الجيش ، ومحاباة وزير الحربية فى الوزارة المصرية عثمان رفقى غير المصرى الاصل الى العناصر الاخرى ، وقصر الترقى والالقاب على الضباط غير المصريين .

وحين بدأ عثمان رفقى فى صياغة مشروع انقاص عدد اليات الجيش والاستغناء عن كثير من الضباط المصريين بدأ السخط والتذمر ، واجتمع عدد من الضباط بزعامة أحمد عرابى ، وكان من أقوى الضباط المصريين شخصية وأفصحهم لسانا ، وأحمد عبد الغفار قائد سلاح الفرسان ، وعلى فهمى قائد الحرس ، وعبد العال حلمى أميرلاى الفرقة السادسة ، اجتمع هؤلاء على ضرورة تخليص الجيش من التسلط الجركسى ، ورفض قانون القرعة الذى يحجم الجيش المصرى .

وفى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عرابى وصحبه بمظاهرة عسكرية الى سراى عابدين لفرض مطالب الامة على الخديوى ، وكانت المطالب

تنحصر فى ثلاثة أساسيات :

- أولها عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة وطنية •

- وثانيها دعوة نواب الامة للاجتماع الدورى •

- وثالثها زيادة عدد قوات الجيش واسقاط المظالم التى تلحق بالضباط المصريين •

ووعد الخديوى بتنفيذ مطالب الامة وانتهت المظاهرة بالهتاف بحياة الخديوى • وبالفعل تألفت وزارة جديدة من شريف باشا مع وجود محمود سامى البارودى على رأس وزارة الحربية ، والبارودى هو أحد الضباط العرابيين الذى لعب دورا بارزا فى أحداث الحركة •

غير أن شريف باشا اشترط فى قبوله الوزارة امتثال عرابى وزملائه لاوامر الحكومة وعدم تدخلهم فى أعمال الوزارة ، بل وأكثر من ذلك اشترط عليهم الانتقال بجنودهم من القاهرة تجنبا لاى صدام محتمل ، وحتى لا يكون للجيش من النفوذ أو السلطان ما يضعف نفوذ الحكومة •

وأفتتح مجلس النواب بالفعل فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، ولاول مرة يتخذ مجلس النواب قرارا بضرورة مناقشة الميزانية والاعتراض عليها اذا كان هناك وجها لذلك ، بينما كان المراقبون الاجانب ينظرون الى ذلك الحق بالريبة والحذر الامر الذى أدى الى هياج الحكومتين الانجليزية والفرنسية اللاتى خشيتا على مصالحهما من تصاعد الحركة الوطنية فى مصر •

كان مجلس النواب يستند فى قوته على نجاح الانتفاضة العرابية الاولى التى طالبت الخديوى بانعقاد مجلس النواب بصفة دورية ، وعلى ذلك فقد كان نواب المجلس فى هذه المره لا يشعرون بأن انعقاد مجلسهم منحه من الخديوى ، وانما هو اذعان لمطالب الامة التى مثلها عرابى وصحبه فى حركة ٩ سبتمبر •

ونشأ النزاع بين الوزارة والنواب فاستقال شريف باشا ، وعين محمود سامى البارودى رئيسا للوزراء وهو الذى أقر عرابى على رأس وزارة الحربية ، وزاد نفوذ أحمد عرابى داخل الجيش وداخل الوزارة ، وحصل على رتبة الباشوية ، واستطاع عرابى محاكمة الضباط الجراكسة ومن بينهم عثمان رفقى نفسه وزير الحربية السابق •

وعندما أراد الخديوى تخفيف الاحكام على الضباط الجراكسة احتكم مجلس الوزراء الى المجلس النيابى الذى عقد دون دعوة الخديوى له الامر الذى أدى الى عزل رئيس الوزراء محمود سامى البارودى وبقيت الوزارة بلا رئيس لفترة قصيرة •

كانت تلك الظروف تواكب سيطرة الجيش وزعامته المصرية ، ووقع الارتباك فى أريكة الحكم ، وكانت أعين أنجلترا على مصر فى غمار هذه الحوادث •

أدت هذه الحوادث الى شيوع فتنة داخلية متعددة الجوانب فهناك الخديوى الذى ما لبث أن تحددت سلطاته فعليا بسبب تزايد نفوذ الجيش ، وهناك مجلس الوزراء الذى بقى فى موقف الاختيار الصعب بين توجيهات الخديوى ومراقبة مجلس النواب ، وهناك مجلس النواب الذى يستند الى شرعية الجيش ، وكان هناك التآمر الانجليزى الذى بدأ يحرك الاحداث لصالحه وينظر الى أى القوى فى الشارع المصرى هى التى يمكنه التحالف معها لتحجيم القوى الاخرى وليمارس تطلعاته وسيطرته على مصر •

وبالفعل رسى فى ميناء الاسكندرية عدد من وحدات الاسطول الانجليزى ومن وحدات الاسطول الفرنسى ، وصدر الانذار من الحكومتين الانجليزية والفرنسية الذى طالبا فيه بابعاد عرابى عن مصر مؤقتا واستقالة الوزارة ، واستقالت الوزارة فعلا ، غير أن الجيش أرغم الخديوى على اعادة تعيين أحمد عرابى وزيرا للحربية على شريطة أن يكفل عرابى الامن والنظام العام •

كان لنزول الاسطول المشترك فى الاسكندرية أكبر الاثر فى اشعال عدد من الحوادث التى كدرت صفو الامن العام فى البلاد ، وخاصة تلك الحوادث المباشرة بين المواطنين المصريين وجنود الاسطول • وعمل مندوب السلطان العثمانى على تسكين الحال بين المواطنين والاجانب •

أخذت انجلترا من تلك الحوادث ذريعة للتدخل العسكرى ، وبالفعل بدأ ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ، وحدث الحريق الكبير فى المدينة ، وانسحبت الجنود العرابية الى داخل القطر لاقامة التحصينات

تداعت الاحداث عقب ضرب الاسكندرية ، وبدأت التحصينات العرابية تأخذ مكانها فى عزبة خورشيد ثم الى كفر الدوار ، فى الوقت الذى حمل فيه الخديوى توفيق مسألة ضرب الاسكندرية على تخاذل عرابى وانسحابه انتقل توفيق الى قصر رأس التين فى الاسكندرية تحت حماية الاميرال الانجليزى سيمور وأبرق الى عرابى يوم ١٧ يوليو بوقف الاستعدادات العسكرية ، وأعلن عزل عرابى من قيادة الحربية •

ولكن الامور تهاوت بعد ذلك ، وحدثت الازمه والارتباك وكان التخبط ، فمن ناحية رفض عرابى تنفيذ قرار العزل ، ودعا الى عقد جمعية عمومية تضم العلماء والامراء وشيخ الازهر ، واجتمعت تلك الجمعية فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ وأعلن شيخ الازهر مخالفة الخديوى للدين عندما انحاز الى عدو البلاد ، وقررت هذه الجمعية تثبيت عرابى فى منصبه على رأس الجيش المصرى ، وبدأت المعارك من جديد • وهى التى كانت مبيته من قبل الانجليز لاحتلال مصر انتهازا لفرصة أزمة داخلية افتعلتها بين الخديوى من جهة وبين العرابيين من جهة أخرى •

فى ٢٢ يوليو احتل الانجليز مدن قناة السويس ، وكان عرابى يرابط عند كفر الدوار ، بينما كانت الجبهة الشرقية خالية تماما من آية قوى مصرية ، استمرت المعارك فى شهر يوليو وأغسطس • ووصل الانجليز الى مسافة قريبة من منطقة التل الكبير بالشرقية تمهيدا لوصولهم الى القاهرة ، أحرز جيش عرابى بعض النصر فى معركة القصاصين فى الجبهة

الشرقية ولكن كان هناك منشور السلطان العثمانى الذى يعلن عصيان عرابى الامر الذى كان له أكبر الاثر فى اختلال صفوف القيادة المصرية ، وفى سبتمبر وقعت معركة التل الكبير ، وفاجأ الجيش الانجليزى القوات المصرية ، وكانت الهزيمة •

وتختلف الروايات عند عودة عرابى الى القاهرة ، ودخول الانجليز فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ الى العاصمة المصرية ، وعودة الخديوى من الاسكندرية الى مقر الحكم ، وبدأ الاحتلال الانجليزى على مصر ، وحوكم عرابى بالنفى خارج البلاد ، وكذلك حوكم رفاقه فى تلك الحركة التى ما زال تقييم المؤرخين يختلف حول دوافعها وأسلوبها ونهايتها ، ولكنه أيا كان الامر فقد كانت مطالب عرابى الاولى فى وقفته أمام الخديوى فى عابدين مطالب نبيله ترفع الى حاكم مصر مطالبا شعبية وعسكريه مصرية أصيله ، ولكن هل كانت الفتنة مفتعلة من جانب الانجليز لايقاع الفرقة بين صفوف العرابيين والصفوف المصرية الاخرى من جهة ، وبين صفوف فئات من الناس تناصر الخديوى المثبت من الدولة العثمانية ، وصفوف فئات أخرى تناصر عرابى ، هل افتعلت انجلترا تلك الفتنة لتناصر هى بدورها الفئة التى تثبت قوتها ويكون عرابى هو الضحية التى عليها عبر الانجليز الى مصر •

عموما ما لبثت قبل أن تنتهى سنة ١٨٨٢ الا وهناك احتلال انجليزى متواجد فى مصر بصورة عملية ، وان كان الشكل هو أن تلك القوات جاءت لحماية مصر من فتنة داخلية •

وقبل أن تنتهى سنة ١٨٨٢ الا وكان اللورد كرومر فى مصر ممثلا لمصالح انجلترا ، وما لبث ذلك اللورد أن كانت له اليد الطولى فى سياسة مصر الداخلية والخارجية •

استمرت مسيرة الحكم بعد الاحتلال الانجليزى بقيادة الخديوى توفيق الذى حد وجود الانجليز من سلطاته الى أقصى ما يمكن • نشطت

قوى المعارضة فى مصر حتى داخل مجلس الشورى نفسه ، كانت النشرات الرسمية فى تلك الفترة تصف علاقة مصر بانجلترا وكأنها علاقة صداقة وليست كأنها علاقة تبعية .

كان الجيش المصرى فى أفريقيا يوطد أقدامه حتى مديرية خط الاستواء رغم كثير من المواقع التى فقدها نظرا لانتشار الحركة المهدية فى السودان التى بدأت فى الاصل لمقاومة التدخل الانجليزى ، وليست لمقاومة القوات المصرية ، ولكنه كان الاشتراك الذى معه لم تميز قوات المهدى بين العدو والصديق . بل كانت الحركة المهدية ذريعة قوية أمام انجلترا للبقاء فى مصر بحجة حمايتها من التمرد المهدى .

حدثت المؤامرات التى انتهت بتوزيع الاسلاب بين انجلترا والحبشة ، وانسحبت القوات المصرية من مواقع كثيرة على ساحل البحر الاحمر البعض ضمنه انجلترا للحبشة ، والبعض فرضت عليه انجلترا سيادتها ، والبعض الاخر تقاسمت فيه انجلترا مع البلجيك وفرنسا . وكان للتواجد الانجليزى فى مصر أسوأ الاثار على خطر أطراف الدولة المصرية فى أفريقيا التى أسسها اسماعيل .

واستمرت المسيرة وكانت الاصلاحات الداخلية التى أعقبت الحركة العرابية ، فكان اصلاح القناطر الخيرية وحفر الرياح التوفيقى فى سنة ١٨٨٩ ، ثم انشاء قناطر زفتى ، ولم تقتصر مشروعات الرى على ذلك فقط وانما تعدتها الى الشروع فى انشاء خزان أسوان ، وبدأ العمل فيه ، وزادت مساحات الاراضى المنزرعة .

وفى عهد توفيق أيضا تم انشاء عدد من الطرق الزراعية والطرق المعبدة التى تربط بين المدن والقرى .

أنشئت مصلحة الصحة العمومية وتبعها اقامة عدد من المستشفيات الكبرى فى المدن وعواصم المديريات ، كذلك أنشىء عدد من المدارس . وبصفة عامة كانت الحالة الاقتصادية فى هذا العهد تجنح الى الرواج

والتحسن مع ازدهار الزراعة والتجارة والصناعة .

وفى سنة ١٨٩٢ مات الخديوى توفيق . لم يكن توفيق بالطبع عميلا للانجليز ، ولكن الظروف اضطرته الى قبول الامر الواقع خشية أن يلقى نفس المصير الذى لاقاه أبوه الخدوى اسماعيل على اثر معاندته للتدخل الاجنبى .

كان توفيق يجنح الى تمصير الجيش المصرى ، وكان يحب الشعب المصرى ، ولكنه لم يحسن تقدير القوى الوطنية التى نشأت فى عهده ، وربما كان يخشى تصاعدها وانهيار سلطانه .

تذكر المصادر التاريخية أنه كان حريصا على تقوى الله ، ويقوم بأداء فروض الدين ، وأنه لم يكن جشعا فى جمع المال ، وتذكر الوقائع الملموسة تشييد الكثير من المشروعات ولكن يبقى أنه وفى عهده حدث الاحتلال الانجليزى ، وفى عهده تقلصت أطراف مصر الجنوبية فى أفريقيا، وفى عهده انحصرت الحركة العرابية التى كان يمكن له اذا أحسن التعامل معها ، وكان يمكن لها اذا كانت قد أحسنت الظن به لكان خيرا على البلاد والعباد .

مات توفيق مخلفا على عرش مصر ابنه الخديوى عباس حلمى الثانى .

* * *

(١٨٢)

الخديوى عباس حلمى الثانى

فى ٧ يناير سنة ١٨٩٢ توفى الخديوى توفيق ليخلفه فى الحكم ابنه الاكبر عباس حلمى ، وكان شابا أكمل ثمانية عشر سنة هجرية ، فتولى عرش مصر خلفا لابيه فى السادس عشر من يناير من نفس السنة •

بدأ عهد عباس الثانى بحماس الشباب والتعاطف مع القوى الوطنية الناشئة ، والوقوف بحزم ضد تدخل ممثل الحكومة الانجليزية اللورد كرومر ، ومضت مسيرة عباس الذى كان قد تلقى علومه الاولى فى النمسا والذى قد عرف الكثير عن أساليب التدخل الانجليزى والمكر والدهاء الذى أرهق والده وجده اسماعيل ، والتزم أمام العلماء وأعيان الشعب المصرى وممثليهم باتخاذ السياسات التى تكفل استقلال الارادة المصرية ، وتأكيد الصلات والولاء للسلطنة العثمانية باعتبارها الدولة الاسلامية الام فى الشرق ، والتى يجب أن تكون جسور التفاهم معها عاملا حاسما ضد التدخل الانجليزى فى شئون مصر الداخلية •

وفعلا كانت هذه هى البداية التى لم يكتب لها أن تستمر بنفس الحماس ، وانما كانت الضغوط والدسائس التى حولت المسيرة الى نهج أخر •

— بدأ الخديوى فى سنة ١٨٨٣ باصدار عفو عن بعض زعماء الحركة العرابية تمهيدا لاصدار عفو عام بعد ذلك •

— اهتم عباس بشئون مصر الداخلية وشجع لقيام الجمعية الخيرية الاسلامية لمساعدة الفقراء ولاقامة المؤسسات التعليمية فى البلاد •

— أقال عباس رئيس النظار مصطفى باشا فهمى الذى أشيع عنه أنه عميل الانجليز • أقاله دون استشارة كرومر ، وكان ذلك بمثابة الصدام الاول مع ممثل الحكومة الانجليزية فى القاهرة • كان هذا الصدام كفيلا بكسب تأييد الشعب كله للخديوى عباس •

- وطد الخديوى صلاته بالسلطان العثمانى عبد الحميد فى استانبول معاهدا اياه على الوقوف صفا واحدا ضد تدخل الانجليزى ، ولكن كانت بريطانيا تخطط من جهة أخرى ، بل كانت أوروبا بأسرها تعمل على تقسيم المقاطعات التى كانت تحكمها مصر فى السودان وأفريقيا ، بل وأكثر من ذلك كانت الشركات الاوروبية تبسط سلطانها الاقتصادى فى مصر رغم وجود الاعمار ، وانشغال هذه الشركات بتحلية المياه ، ومد أنابيب الغاز ، وانشاء خطوط الترام ، الا أن السعى للسطوة الاقتصادية وربط مصر بالتبعية الاقتصادية قد ساعد على انتشار المرابين وبيوت الرهونات • ان كانت هذه الشركات قد أدت الى رواج مفتعل فى البداية الا أنها أحكمت قبضتها بعد ذلك لتفرض نوعا من التخصص الزراعى على مصر لتمويل مشروعات الخدمات فيها وليذهب الفائض الكبير لتمويل مصانع أوروبا •

وفى عهد عباس ظهر مصطفى كامل الشاب الصغير الذى اشتعل حماسا بالقضية الوطنية ، وتأججت فى صدره فكرة الجامعة الاسلامية ، واستطاع مصطفى كامل من خلال رسائله وخطبه الحماسية الوطنية أن يكوّن جماعة من الوطنيين الذين أنشأوا فيما بعد الحزب الوطنى ليقف ندا وخصما قويا أمام مطامع الانجليز • وأكثر من ذلك يسافر مصطفى كامل الى فرنسا والى استانبول ، ويعلن على العالم كله قضية مصر • ويثق مصطفى كامل فى الخديوى الشاب عباس حلمى الذى كان بالفعل فى بداية عصره نصيرا للحركة الوطنية ، والذى وجد فى مصطفى كامل وصحبه عضدا له أمام كرومر ، ولكنه كان اللورد كرومر الداهية الانجليزى الذى استطاع بحنكة شديدة أن يستمل عددا من الشخصيات المصرية البارزة والاعيان وبعض رجال الدين ، وبعض الصحف ، وكان لهؤلاء فضل الاشادة بفكرة التمدين الزائف الذى كان يظهر به كرومر فى شكل خلاب ضمن اجراءاته لتنظيم بعض الشئون الداخلية فى مصر •

ومع ذلك ورغم كل هذا الضباب أعلن مصطفى كامل صيحته الجريئة بضرورة الجلاء عن مصر ، وانتهز هذا الزعيم الوطنى الشاب فرصة

انتصار تركيا على اليونان وأعلن أنه اذا كان العالم يرغب فى جلاء الاتراك عن أرض اليونان فليجلى الانجليز عن أرض مصر •

كان كرومر وجبهة أخرى من أهل مصر فى الجانب المضاد يتشدقون بالتمدين الزائف الذى أتت به انجلترا •

وكان الجيش المصرى فى السودان ما زال يقاوم عددا من المتمردين وحقق بعض الانتصارات فى موقعة عطبرة ، وفى أثناء ذلك كان الخديوى عباس الثانى يحمل كرها شديدا للتواجد الانجليزى ولكنها كانت الضغوط الدولية • وفى سنة ١٨٩٩ وقعت اتفاقية السودان بين مصر وانجلترا والتى جعلت الحكم فى السودان شكلا تحت ادارة الحكومة المصرية مع رفـــع العلم البريطانى والعلم المصرى على الاراضى السودانية ، ويعين حاكم عام للسودان بأمر الخديوى بناء على طلب الحكومة البريطانية ، وأصبح للانجليز بمقتضى هذه المعاهدة أقدام ثابتة وثقيلة على السودان •

فى السنة الاولى من القرن العشرين حاولت فيكتوريا ملكة انجلترا احتواء الخديوى عباس فى أثناء زيارته الى لندن ، ولكن الخديوى ورغم تعرضه لكثير من الضغوط لم يقدم ثقته كاملة الى حكومة الملكة وان كان كرومر فى مصر قد اتسع نفوذه ، ولم تبق مقاومة حقيقية فعاله الا مـــن خلال المستنيرين من صحبة مصطفى كامل •

فى عهد عباس تم افتتاح خزان أسوان ، وتم انشاء بعض مشروعات الرى الكبرى ، وعملت شركة أجنبية على مد خطوط التليفونات بين القاهرة والاسكندرية • وانتشرت الشركات الاجنبية فى مجال الخـــدمات ، وفى احتكار الائتمان ، وكان مصطفى كامل يواصل مسيرته الوطنية فى تعبئـــة الناس ضد الاحتلال ، وأصدر عددا من الاسهم ليكتتب فيها المواطنون للمشاركة فى مشروع مد سكة حديد الحجاز لتربط بين أطـــراف الشرق الاسلامى الامر الذى انتهى بمنحه رتبة الباشوية من السلطان العثمانى نفسه •

لم يجد مصطفى كامل نصيرا له سوى رفاقه فى الحركه الوطنيه بعدما تأكد له أن عباس حلمى لا يهىء له مركزه الحاكم وضغوط الحكومه الانجليزية أن يكون نصيرا مباشرا له .

فى عهد عباس أيضا حدثت بعض المناوشات بين مصر والسلطنه العثمانية ، ولكن ذلك لم يمنع ظهور العداء الواضح بين الشعب المصرى وانجلترا ، ففى سنة ١٩٠٦ حدثت قضية طابا بين مصر والسلطنة العثمانيه ونزلت كتيبة مصرية هناك مع أحد الضباط الانجليز ، وأقاموا فى معسكر قريب من القوات العثمانية، وكادت تحدث المناوشات بين الطرفين لولا المراسلات بين السلطان والخديوى حيث أمر الاخير بسحب القوات مع التأكيد بأن طابا تخضع للسيادة المصرية ، وأراد الانجليز اشعال الفتنة بين تركيا ومصر ، ولكن الشعب المصرى وصحافة الحزب الوطنى لم تدر ظهرها لتركيا وانما وقفت معها ضد الفتنة الانجليزية المفتعلة .

فى عام ١٩٠٦ وقعت مذبحة دنشواى ، والتى ستظل تحمل العار الى واجهة الاستعمار الانجليزى وظاهرة التمدين المزيف الذى كان يظهر به والذى كشفت هذه الحادثة عن أنه تمدين خادع شأنه شأن السراب . وخلاصة الحادثة يعود الى أن عدد من ضباط الجيش الانجليزى كانوا قد ذهبوا الى رحلة صيد فى بلدة دنشواى فى حماية بعض قوات الامن المصرية ، وبدأوا بالفعل فى صيد الحمام ، وأطلق بعضهم الرصاص . فأصابت بعض الرصاصات أجران القمح ، وأصيبت زوجة مؤذن القرية مما أصاب الاهالى بالهياج الشديد ، وهاجموا هؤلاء الضباط ، غير أن الضابط الجانى فر من مكان الحادث وسقط صريعا على اثر ضربة الشمس كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى .

ومع ذلك أعلنت حالة الطوارىء فى القرية ، وتم جمع الاهالى وقدموا الى محاكمة غير عادلة أمام محكمة ترأسها بطرس غالى الذى كان وزيرا للحقانية ، وأحمد فتحى زغلول شقيق سعد زغلول ، وصدرت الاحكام باعدام أربعة من الاهالى ، وتم التنفيذ بوحشية فى قريتهم وأمام

أولادهم ، وتم الحكم بالاشغال الشاقة لفترات تتراوح بين سنة وخمسة وعشرين سنة على ثلاثة عشر من المتهمين وجلد عدد آخر منهم .

كانت هذه الحادثة سببا فى أن يقوم مصطفى كامل باشعال الحماس الوطنى مرة أخرى ضد الاحتلال ، ومهاجمة كرومر علانية ، بل وذهب مصطفى كامل الى لندن لعرض القضية على أحرار انجلترا ومثقفيها الامر الذى زعزع مركز كرومر فى مصر ثم رحيله عن مصر نهائيا فى أبريل سنة ١٩٠٧ بعد أن مكث فى مصر نحو ربع قرن عاصر فيها توفيق وعباس وكان أمامهما حجر عثره حالت بين كل منهما وتنفيذ ارادة خديوية مستقلة . أحل محله الدوق جورست الذى كان قد مضى فى مصر أعواما يعمل مستشارا لوزارة المالية .

وتمضى سنة على رحيل كرومر عن مصر الى بلاده المستعمرة حتى رحل خصمه وخصم الاستعمار كله الشاب الوطنى الثائر مصطفى كامل فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، حيث رحل الى الخالق الاعظم بعد حياة حافلة بالجهاد ، وبعد أن حمل فى أعماق قلبه نبضات مصر وحقها فى حياة مستقلة مستقرة .

رحل مصطفى كامل بعد أن قدم للاسلام وللوطن جهدا كثيرا فى عمر قصير بعد أن جهر لسانه بالحق ليخلفه على رئاسة الحزب الوطنى زميله وصديقه محمد فريد .

شهدت تلك السنوات الاولى من القرن العشرين أحداثا متباينة . فقد شهدت مولد الجامعة المصرية التى طالما دعا اليها مصطفى كامل . شهدت رفض الخديوى عباس وحكومته ومصر بأسرها مد امتياز قناة السويس لمدة أربعين سنة أخرى .

شهدت سنة ١٩١٠ اغتيال بطرس باشا غالى رئيس الوزراء آنذاك على يد أحد المواطنين يدعى ابراهيم الوردانى .

لم يكن الاغتيال لاسباب دينية كما صورتها الصحف الغربية لتسيع الفتنة بين المسلمين والاقباط ، وانما كان الوردانى يرى أن بطرس غالى قد وقع اتفاقية السودان المجحفة لحقوق مصر ، وكان هـو الذى رأس محكمة دنشواى التى نفذ فيها أحكاما قاسية على مواطنين أبرياء .

شهدت هذه الفترة صدور عدد من الصحف التى كان بعضها يندد بالاحتلال ، والقليل منها يناصر واجهة التمدين المزيف الـذى أشـاعه المحتلون . كذلك شهدت هذه الفترة الجفاء بين الخـديوى وبين قيـادة الحزب الوطنى الجديدة . كذلك شهدت هذه الفترة التحام الجيش المصرى مع الليبيين ضد السيطرة الايطالية .

مات جورست خليفة اللورد كرومر فى مصر فى سنة ١٩١١ ، وعينت الحكومة الانجليزية اللورد كتشنر الذى نهج نهجا جديدا فى مواصـلة الاصلاح الادارى وكان قد أبلى بلاء حسنا فى معارك السودان ، ولكنه كان خصما للخديوى عباس بأشد ما كان عليه سلفية .

شهدت فترة عباس فى هذه الفترة من مطلع القرن العشرين بزوغ نجم سعد زغلول مرة وكان وزيرا باختيار اللورد كرومر ، ومرة كان نائبا فى الجمعية التشريعية باختيار الشعب المصرى .

كان الصراع بين عباس وبين كتشنر ممثل الحكومة الانجليزية فى مصر يشتد مع مرور الايـام ، فما لبثت أن حانت سـنة ١٩١٤ ودخلت سنوات الحرب العالمية الاولى وكان الخديوى عباس فى الاستانة عاصمة الخلافة حتى أعلنت انجلترا خلع الخديوى عباس وتعيين البرنس حسين كامل سلطانا على مصر ، ثم أعلنت انجلترا فرض الحماية العسكرية عى مصر .

تم خلع عباس حلمى من حكم مصر باجراء غير طبيعى تحت ذريعة أن عباس انما يعمل فى اطار السلطنة العثمانية التى اشتركت مع ألمانيا والنمسا فى اعلان الحرب على انجلترا وحلفائها .

وانتهى حكم الخديوى عباس حلمى الثانى فى مستهل الحر
الاولى ليبدأ بعده عهد جديد .

اختلال المقاييس فى أعقاب اعلان الحماية :

فى واقع الامر كانت قرارات انجلترا باعلان الاحـكام
مصر ، وتصرفات السلطات الانجليزية مع سفراء الدول المتد
انجلترا ، ثم اعلان قرارها المتقدم بخلع الخديوى عباس حلمى
حسين كامل على حكم مصر ، كل هذه القرارات كانت من قبيل
الامور ذلك أنها لا تستند على أى نوع من أنواع الشرعية . فك
أن ترد برقية مختومة بخاتم ملك انجلترا لعزل حاكم وتولية ح

نعم كان فى مصر جيش الاحتلال الذى دخل اليها فى أعق
العرابية ، ولكن الوضع السياسى فى مصر أنها كانت تتبع الدول
ولها حاكمها المستقل الخديوى عباس وله ممثليه فى الخارج ،
اتخاذ القرارات النهائية فيما يتعلق بمصير البـلاد . ربما كا
السلطة لحاكم مصر يحدها وجود جيش الاحتلال ، وكان هن
والعداء بين الخديوى وبين كتشنر ، ولكن ما حدث كان أمرا
أكثر ما يعبر عن نوايا انجلترا لاحتلال مصر بصفة فعلية واس
تكون مصر هى احدى قواعدها فى الشرق ، هكذا تؤكد تقارير
المؤسفة التى أذهلت الناس وهم يرون البرقيات الانجليزية
حاكما وتعين حاكما أخر ، بعد أن تعود الناس لمئات السنين أن ب
حاكمهم بأمر الخليفة ، أو بمبايعة علماء مصر وشيوخها ، أما فى
فقد كانت الغرابة وكان اختلال المقاييس .

ولكن استمرت المسيرة ...

***

١٨٣ ـ السلطان حسين كامل :

أعلنت الحماية الانجليزية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ وفى اليوم التالى نودى بالسلطان حسين كامل على حكم مصر . ويعد حسين كامل أحد أبناء الخديوى اسماعيل ، وهو عم الخديوى عباس . وكان فى تلك الفترة هو أكبر أبناء أسرة محمد على سنا .

يبرر حسين كامل قبوله لعرش مصر تحت أسنة الرماح الانجليزيه بأن ذلك كان لحماية مصر ولحماية عرش أسرة محمد على ، وليجتاز الفتره الصعبة التى ألمت بمصر .

الغريب أنه كانت فى مصر جمعية تشريعية من أبرز أعضائها سعد باشا زغلول فأين كانت هذه الجمعية وقت التولية الغير دستورية لحسين كامل .

ربما كان الشعب المصرى وتحت وطأة الاحكام العسكرية الصارمة له العذر فى أن يترقب الامور وأن ينتظر من نوابه فى الجمعية التشريعية أن يرفعوا أصواتهم بالرفض ان لم يكن حبا للخديوى عباس فعلى الاقل كرها ومقتا لجيوش الاحتلال .

كان الشعب المصرى فى قرارة نفسه ينتظر التدخل العثمانى ، وأيضا فى هذه الحالة ان لم يكن حبا فى تركيا فانها كانت الممثلة لدولة الخلافة الاسلامية ، وحتى وان كان قد صدر منها مظالم كثيرة ، فانها أقرب الى المصريين من انجلترا تلك الدولة المحتلة التى يعبث جنودها فى الارض المصرية فسادا . ولذلك قد تروى الحكايات الشعبية عن هذه الفترة أنه كلما ضاق المصريون ذرعا بجسامة الاحتلال كان احساسهم بالثورة على الانجليز ورفضهم لتعيين حاكم رغم أنفهم جعلهم يرددون فيما بينهم «الله حى عباس جى» وأقولها ليس تعاطفا مع حكم الخديوى عباس وانما على الاقل فانه الرجل الذى استمر على عدائه للسلطة الانجليزية فى مصر

ابتداء من كرومر ، ومرورا بجورست وانتهاءا بكتشنر • وهو الرجل الذى وقف فى البداية الى جانب حركة مصطفى كامل ، وتعاون فى اللحظات الأخيرة مع محمد فريد عندما أقر معه فى استانبول ضرورة وجود الحياة النيابية السليمة وحق مصر فى وجود الدستور الدائم • نعم كانت هناك السلبيات ولكن عباس كان موقفا متميزا ضد الاستعمار الانجليزى •

عموما حدث ما حدث واعتلى حسين كامل عرش مصر والانجليز من أمامه ومن خلفه • كانت الحرب العالمية الاولى قد اشتعلت نيرانها، أعدت تركيا حملة عسكرية بهدف تخليص مصر من الجيش الانجليزى ، وخاصة بعد أن أعلنت تركيا الحرب على انجلترا ، فما أن حانت سنة ١٩١٥ حتى وصلت الجنود التركية الى قناة السويس ، ولكنها وجدت مقاومة عنيفة من الجيش الانجليزى المرابض فى مصر ، ومن بعض القوات المصرية الحليفة معه •

مضى حسين كامل فى مسيرة الحكم فى مصر بين ضيق الناس عامة ، وضيق الطبقة المستنيرة من أبناء الشعب ، أسفر ذلك الضيق عن عدد من محاولات الاعتداء على حياته أكثر من مرة ، مرة حينما أطلق النار عليه أحد المواطنين فى ميدان عابدين فى أبريل سنة ١٩١٥ ، ومرة فى ٩ يونيو حيث ألقيت قنبلة على موكبة فى الاسكندرية ، بل وتعددت حوادث العنف الى بعض وزراء حسين كامل ، وانتشرت موجة الغلاء نظرا لظروف الحرب ونظرا للنفقات الباهظة التى تكبدتها مصر رغما عنها فى تمويل جيش الاحتلال الرابض ، ونظرا للظروف الاقتصادية القاسية التى عانت منها انجلترا نفسها بعد انهيار قاعدة الذهب فى سنة ١٩١٤ ولجوئها الى تمويل نفقات عسكرية عن طريق الدفع بالسندات على حساب الحكومة الانجليزية •

كان كتشنر ممثل السلطة الانجليزية فى مصر قد غادرها ليعمل وزيرا للحربية فى بلاده ، وليدير دفة الحرب ، وليأتى مندوب جديد وهو هنرى ماكما هون •

كانت الحرب قد ظللت الحياة الاقتصادية فى مصر بنوع من التأبه والركود • وكان ماكماهون يمارس فى مصر دورا بالغ الخطورة اذ أنه كلف من حكومته فى لندن بمراسلة أمراء الدول العربية المجاورة واعطائهم الوعود فى مساندتهم بحصولهم على الاستقلال من الدولة العثمانية •

كانت انجلترا تعمل فى الحرب وتعمل على تقويض الخلافة العثمانيه فى الشرق • بدأت المراسلات بين مكماهون والشريف حسين أمير مكة . تلك المراسلات التى عملت فيها انجلترا على تقطيع أوصال الدولة العثمانيه من الداخل • فقد ضمنت انجلترا أن تكون القوات العربية الى جانبها فى حربها ضد الالمان والاتراك ، وأكثر من ذلك كانت انجلترا وفرنسا فى غمار الحرب يخططان للاستيلاء على الدول العربية وتقسيمها فيما بينهما •

ولابد هنا من وقفة قليلة نذكر فيها أن تركيا كانت فى الحرب فى مواجهة انجلترا وفرنسا وكافة جيوش الحلفاء من ناحية وفى مواجهة ثورة القوات العربية ضد الحكم العثمانى من ناحية أخرى •

وأصبحت انجلترا تتقاتل على أرض ولاياتها ، وكان الفخ الصليبى الجديد الذى نجح هذه المرة بدهاء وحنكة ، فبدلا من أن يتقاتل التركى والعربى والمصرى فى صف واحد ضد العدو الغازى أيا كان جنسيته ، أصبح التركى والعربى فى الحرب خصمان لدودان • نعم كان تعسف جمال باشا الوالى التركى فى الشام ضد العرب ، وكان ظلم الولاة الاخرين فى باقى الولايات سببا لتصدع الثقة بين المواطنين العرب وبين السلطنة العثمانية ذاتها ، ولكن كانت انجلترا وراء تلك الاحداث . وكان اليهود فى بلاط الدولة العثمانية وفى الشارع العربى يحرضون على الفتنة بين العرب والسلطنة العثمانية ، تلك السلطنة التى أعلنت على لسان أحد قوادها الكبار السلطان عبد الحميد أنه لا أرض لليهود فوق الارض العربية •

استطاعت الفتنة أن تهزم الدولة العثمانية من داخلها ، وكانت الثورة

العربية الكبرى أو هكذا سميت ، كانت سندا لانجلترا فى حربها العظمى ، ولم يحصل قادة هذه الثورة على المغانم التى وعدتهم بها انجلترا ، وكان الذى حدث هو أنه اذا كان قد تخلص العـــرب من النفـــوذ التركى فقد أحاطت بهم منطقة نفوذ أخرى تمثلت فى منطقة النفوذ الاستعمارى •

فى نهاية ١٩١٦ تم عزل مكماهون وتعـــيين ريجنالـــد وينجت ممثلا لانجلترا فى مصر • واستطاع رجل انجلترا الجديد جمع أكبر قـــدر مـــن السلطات فى يده ، ومضى حسين كامل فى حكمه الاسمى على مصر والحرب العالمية ما زالت مستمرة بين انجلترا وحلفائها من جهة وألمانيا والنمســا وتركيا من جهة ثانية ، والثورة العربية تواصل أعمالها فى فصم العـــرى عن تركيا ، والجيش الانجليزى يتقدم فى الشرق العربى بقيادة اللـــورد اللنبى • وفى سنة ١٩١٧ وفى غمار الحرب تنجح ثورة البلاشفة فى روسيا فى أكتوبر ، و نفس أكتوبر هذا يرحل السلطان حسين كامل الى رحاب الله بعد مرض أقعده عن ممارسة شئون الحكم ، ويرفض ابنه الامير كمـــال الدين عرش مصر ، فتعمل انجلترا من جانبها على توليـــة البرنس أحمـــد فؤاد عرش مصر باسم السلطان أحمد فؤاد •

١٨٤ ـــ أحمد فؤاد :

السلطان والملك

وهو أيضا أحد أبناء اسماعيل ، تولى حكم مصر فى ٩ أكتوبر ســـنة ١٩١٧ بعد وفاة شقيقه حسين كامل •

تولى فؤاد الحكم فى اطار الظروف الغير طبيعيـــة التى كانت تحيط بمصر والشرق والعالم ، وكانت الحرب ما زالت تدور رحـــاها والجيش الانجليزى ينطلق من مصر الى جاراتها تحت ذريعـــة مقاومـــة الاتراك ، والعرب لا يجنون من وعود انجلترا أية ثمار سوى الخداع والاحتيال • فبعد شهر واحد من تولية فؤاد الاول كان وعد بلفور الذى نص على منح اسرائيل موضع قدم لانشاء دولة فى قلب الامة العربية •

وبعد شهرين آخرين يدخل الانجليز الى القدس بقيادة اللنبى • وتمضى سنوات الحرب فى مصر ثقيلة على السياسة والاقتصاد والحريات. وعلى الصحف •

شهدت بداية عهد أحمد فؤاد نهاية الحرب العالمية الاولى ، فقد أسخنت الجراح كاهل تركيا ، واستولت الجيوش العربية على سوريا . وتراجعت الجيوش التركية ، وطلبت المانيا عقد الهدنة . وباتت انجلترا مع نشوة النصر الذى أحرزته على أعدائها ، وكان النصر له أسبابه . وعلى الجبهة الكبرى للحرب دخلت الولايات المتحدة كشريكة للحلفاء ضد ألمانيا وتركيا ، وعلى الجبهة الشرقية كان العرب ضد الاتراك . وما أن حان ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى تم توقيع الهدنة بين جميع الاطراف المتحاربة ، وعقد مؤتمر فرساى للصلح ، وتقرر فيه تقسيم الامبراطوريه النمساوية الالمانية الى عدة دول وهى النمسا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا • خسرت ألمانيا نصيبها فى بولندا والالزاس واللورين ، ومنفذها على بحر البطليق • وفقدت تركيا وسوريا وفلسطين ، وأكثر من ذلك قاسى الاتراك بعض مرارة الاحتلال الانجليزى ، حيث كانت شروط الصلح قاسية ، فقد أقر الحلفاء أن تكون استانبول وأزمير والمضايق تحت الادارة الدولية ، وأن تحتل اليونان جزءا من الاراضى التركية ، وتكون أرمينيا دولة مستقلة ، وكانت الشروط قاسية شجعت احدى الجبهات التركية بقيادة كمال أتاتورك لتكوين حكومة وطنية ، ولتكتمل أرجاء المؤامرة ، وليتم عزل السلطان ولتبدأ فى تركيا دولة جديدة تعمل على استرداد بعض الاملاك فى الحدود التركية الاقليمية ، وتتنازل عن حدود الدولة العثمانية الأم ، ولتبدأ فى تركيا جمهورية جديدة على أنقاض الدولة القديمة ، وتنتهى فيها دولة الخلافة •

انتهت الحرب وأحمد فؤاد على عرش مصر وبقى لمصر أن تنتهز هذه الفرصة لمطالبة الانجليز بالجلاء،وخاصة بعد أن قدمت مصر لانجلترا فى حربها خدمات كثيرة • كانت مصر قد عانت الكثير فى أيام الحرب العالمية الاولى ، فقد كانت السلطة العسكرية الانجليزية تجمع أفراد

الشعب من الاقوياء والشباب لمساعدة جنود الحلفاء • وكان يتم شراء المحاصيل الزراعية بأبخس الاثمان لصالح السلطات الانجليزية ، كان المجندون المصريون يعملون فى تعبيد الطرق ووصل خطوط السكك الحديدية التى تخدم جيوش الحلفاء •

عانت مصر الكثير فى أيام الحرب ، وعلى ذلك فما أن حان وقت توقيع الهدنة حتى بادر ثلاثة من الزعماء الوطنيين وهم سعد زغلول وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى لتمثيل الامة أمام المعتمد البريطانى السير ريجنالد وينجت وعرض مطالب مصر بالاستقلال •

فى نفس ذلك الوقت كان رئيس الوزراء المصرى حسين رشدى ووزير المعارف عدلى يكن يطلبون السفر الى انجلترا لعرض مطالب مصر ، ولكن المعتمد البريطانى رفض اجابة هذه الطلبات وأعلن أن الوقت لم يحن بعد لبدء المفاوضات •

تألف الوفد المصرى تأسيسا على ضرورة أن يكون للشعب المصرى وكلاء يطالبون باستقلال البلاد • وهنا كان دور سعد زغلول ، ذلك الدور الجديد • فقد كان الدور القديم لسعد كما توردة المصادر والمذكرات أنه كان أحد الوزراء الذين كان قد استعان بهم اللورد كرومر فى أوائل القرن العشرين •

وتشهد خطبة كرومر فى دار الاوبرا فى حفل توديعه على ذلك حيث أشاد بكفاءة سعد زغلول واخلاصه ، كذلك حيا سعد زغلول كرومر وأثنى عليه (١) ، وقد يتساءل المرء عن هذا الزعيم الوطنى الفذ الذى سطع نجمه فى هذه الفترة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وماذا كان دوره حين كان مصطفى كامل يقيم الدنيا ويقعدها عقب حادث دنشواى ، أين كان سعد زغلول وقت أن أعلنت الحماية على مصر وتم عزل الخديوى بواسطة الانجليز وتعيين حاكم آخر رغم أن سعد كان فى مركز الصدارة فى الجمعية

---

(١) لطفى السيد ـ صفحات مطوية من تاريخ مصر ـ الفصل الخاص بكرومر ـ القاهرة ١٩٤٧ •

التشريعية حينذاك ، قد يجد البعض عذره فى ذلك أنه كان زوجا لابنة مصطفى باشا فهمى رجل الانجليز الاول فى مصر ، ولكن اذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يستمر ذلك العذر بعد اعلان الهدنة أيا كان الامر فقد عرفت مصر بعد الحرب العالمية الاولى سعد زغلول رجلا وطنيا وزعيما شعبيا شجاعا .

بدأ سعد يخطب فى الناس الخطب الوطنية بجرأة شديدة وينادى بحقوق مصر ، والتف حوله الشعب المصرى آملين معه أن تنال مصر استقلالها التام .

قبضت السلطة العسكرية الانجليزية على أقطاب الحركة فى سنة ١٩١٩ وكانوا يومها سعد زغلول واسماعيل صدقى ومحمد محمود وحمد الباسل ، وتم نفيهم الى جزيرة مالطة ، وما أن عرف الشعب الخبر حتى قامت الثورة الشعبية فى كل أنحاء مصر ، فى المدن ، فى القرى ، فى النجوع والكفور ، وبدأ الاهالى فى ضرب المنشآت الانجليزية فى كل مكان ، وتظاهر الطلاب فى مختلف الاعمار ، وخرجت النساء فى الشوارع لتطالب بالاستقلال . تضامن الشعب بكل طبقاته وتضامن الجميع لمقاومة الاحتلال والمطالبة بالافراج عن سعد وصحبه . قامت انجلترا بعزل السير ريجنالد وينجت وتعيين اللورد اللبنى وهو القائد العسكرى لقوات الحلفاء فى الشرق الاوسط محله . أراد اللورد اللنبى بذكاء شديد احتواء الحركة الوطنية فى مصر ، وهنا حاول اللنبى مع حكومته فى انجلترا العمل على الافراج عن زعماء الوفد المصرى والتصريح لهم بالذهاب الى باريس لعرض قضيتهم .

قامت الحكومة الانجليزية بتشكيل لجنة برئاسة اللورد ملنر لدراسة حالة البلاد والاسباب التى أدت الى ثورة الاهالى وحضرت اللجنة فى ديسمبر سنة ١٩١٩ وقاطعها المصريون ، وهنا كان الانقسام فى صفوف الصفوة من رجال الحركة ، فكان عدلى باشا يكن وصحبه فى ناحية ، وسعد زغلول وجماعته فى ناحية أخرى . البعض ينادى بالتفاوض للحصول

على بعض المكاسب ، والبعض لا يرى من الاعتدال وقبول ما تسمح به انجلترا استنادا على الامر الواقع . لا يرى فى ذلك أية ثمار مرضية للمصريين .

بدأت مفاوضات انجلترا مع عدلى باشا ، وتكرر نفى سعد زغلول مرة ثانية الى جزيرة سيشل ، وتقف القاعدة العريضة مع سعد للمطالبة بالاستقلال .

وفى غمار تلك الظروف ظهر من بين الصفوف رجل اجتمعت فيه صفات النبل والنزاهه التى هيأته لرئاسة الوزارة فى مصر وهيأته للتفاوض مع الانجليز من موقف كريم ، بحيث لم يلجأ للتفريط فى حق من حقوق بلاده ، وان كانت ظروف الاحتلال قد أملت بعض التحفظات على نتائج تلك المفاوضات ، كان هذا الرجل هو عبد الخالق باشا ثروت الذى تفاوض مع اللنبى وحصل على اعلان الاستقلال فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ والذى كان بمقتضاه انتهاء الحماية الانجليزية على مصر ، وأن تصبح حكومة مصر مستقلة ذات سيادة ، ولكن ذلك الاعلان كان معه تحفظات أربعة اقتضتها ظروف تلك الفترة تمثلت فى :

- حق انجلترا فى تأمين مواصلاتها عبر مصر .
- حق انجلترا فى الدفاع عن مصر ضد التدخل الاجنبى .
- حق ثالث زعمته انجلترا لنفسها لحماية الاجانب والاقليات .
- وكان التحفظ الرابع يتمثل فى مسألة السودان واحتفاظ انجلترا بمركز الشريك القوى فى ادارتها .

عموما حصلت مصر فى أعقاب ثورتها الشعبية التى قام بها الشعب المصرى بكافة طبقاته دون فضل من أحد ، حصلت على الاستقلال وربما كان استقلالا منقوصا الا أنه كان مرحلة من ملحمة كفاح استمرت لسنوات عديدة بعد هذا التاريخ . ان كان هناك فضل لسعد وصحبه

على الحركة الشعبية ، فالفضل لله فى أول وآخر الامر . فلقد كان ايمان الشعب بالله وعدالة قضيته ، واستنكار الشعب للكفر البريطانى المتمثل الذى تمثل فى الظلم والتعسف وواجهة التمدين المزيف ، كان ذلك كله هو وقود الثورة ، ولم يتعد دور سعد وصحبه ذلك الدور الكبير الذى لا ينكره أحد لم يتعد أن يكون دورا وطنيا سابقا للحركة ومبتدئا لشرارتها .

فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ أعلن أن فؤاد سلطان مصر وقتها هو أول ملك لملكة مصر المستقلة وذلك باسم الملك فؤاد الاول . واعترفت دول العالم بمصر وملكها وحكومتها ككيان مستقل له سفرائه ووزرائه وممثله فى أنحاء العالم .

فى مصر هدأت الثورة بعد اعلان الاستقلال وبدأ عهد فؤاد يأخذ طابعه الوظيفى فزاد عدد المدارس ، وتطورت الجامعة المصرية ، وأنشىء مجمع الدول العربية ، وزادت مدارس البنات ، وأنشىء الكثير من المعاهد الدينية . وفى المجال الصحى تم انشاء عدد من المستشفيات والملاجىء واضطلعت مديريات الصحة بعمليات التطعيم والوقاية .

وفى مجال الاشغال العامة تمت تعلية خزان أسوان . وبناء قناطر نجع حمادى ، وبناء خزان جبل الاولياء على النيل الابيض فى السودان. واستجدت عدد من الوزارات مثل وزارة المواصلات ووزارة الشئون القروية وذلك لتعدد الحاجات العامة الى مثل تلك الوظائف .

كانت الوطنية المصرية قد أنبتت عددا من الافراد الذين كان يؤرقهم ضرورة استقلال مصر الاقتصادى ، فكان طلعت حرب فى مقدمة الاقتصاديين المصريين حيث أنشأ بنك مصر ، واضطلع البنك بتمويل الكثير من المشروعات الصناعية والخدمية الوطنية .

فى سنة ١٩٢٣ وفى عهد الملك فؤاد صدر الدستور المصرى الذى نص على أن تكون الامة هى مصدر جميع السلطات وأصبح حق الانتخاب

عاما على كافة المواطنين .

أجريت الانتخابات وفاز حزب سعد زغلول الذى كان يتصدر العمل الحزبى فى ثورة سنة ١٩١٩ فاز بأغلبية الاصوات فى هذه الانتخابات ، وتم تشكيل الوزارة برئاسة سعد ، واجتمع أول برلمان نيابى دستورى فى سنة ١٩٢٤ .

شهد عهد الملك فؤاد بعد ذلك تعطيل الدستور وبدأت الاحزاب الجديدة تنشأ انشقاقا عن الوفد ، وظهر بعض الزعماء الذين لعبوا بعض الادوار فى سنة ١٩١٩ مثل صدقى باشا على رأس جبهة ثانية ، ومحمد محمود باشا على رأس جبهة ثالثة . واختلف البعد الاجتماعى لدى ثوار سنة ١٩١٩ فى توجهاتهم الحزبية الجديدة ، وشهدت البلاد التنازع والتخاصم بين الاحزاب . وبزغ اسم مصطفى النحاس باشا كزعيم للامة بعد توليته رئاسة حزب الوفد بعد أن فاضت روح الزعيم سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ .

كان مصطفى النحاس باشا رئيسا لوزراء مصر أكثر من مرة فى عهد الملك فؤاد ، وفى كل مرة كانت تأتى وزارة النحاس بناء على ضغوط شعبية ملحة وذلك لما كان لحزب الوفد من أغلبية كاسحة فى الشارع المصرى باعتباره أنه الحزب الذى ارتبط اسمه بالاستقلال والذى عليه كانت تعقد الامال فى حياة أفضل . فكانت وزارته الاولى فى مارس سنة ١٩٢٨ ، وكانت وزارته الثانية فى يناير سنة ١٩٣٠ حيث جاءت الانتخابات بأغلبية وفدية .

تتابعت الوزارات فى عهد الملك فؤاد بين وزارات ملكية ووزارات دستورية ، وكانت مصر قد حظيت ببعض الاستقرار فى مسيرة البناء والاعمار الا أنه كان بمثابة الاستقرار المضطرب فكانت الخطط الاقتصادية والسياسات الانمائية تتعثر ويختلف مداها بين وزارة وأخرى بحسب توجهات الاحزاب المنوط اليها تشكيل الوزارات .

مات الملك فؤاد فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ بعد نحو ١٩ سنة قضاها فى حكم مصر بين كونه السلطان فؤاد فى الخمس سنوات الاولى ، والملك فؤاد فى السنوات الاخرى الاربعة عشر بعد اعلان الاستقلال .

مات فؤاد ابن الخديوى اسماعيل ليخلفه على عرش مصر بنه فاروق .

١٨٥ ـــ الملك فاروق الاول :

كان فاروق وقت وفاة والده فؤاد لم يبلغ سن الرشد بعد . فقد ولد فاروق فى فبراير سنة ١٩٢٠ فى مصر بعد زواج والده من الاميرة نازلى ابنة عبد الرحيم باشا صبرى ، وتعلم بين مصر وأوروبا .

وفى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ ونظرا لعدم بلوغه السن القانونيه لتوليه العرش ، تعين له مجلسا للوصاية برئاسة ولى العهد الامير محمد على توفيق وعضوية عبد العزيز عزت باشا ، وشريف صبرى باشا ليتولى ذلك المجلس حكم البلاد باسم الملك فاروق الى أن يحين وقت توليه السلطات الدستورية .

فى أول عهد فاروق وقعت معاهدة سنة ١٩٣٦ بين حكومة مصر برئاسة مصطفى النحاس والحكومة الانجليزية التى كان يمثلها أنطونى أيدن وزير خارجيتها فى ذلك الوقت .

وقعت المعاهدة فى لندن فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ والتى سميت بمعاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا . نصت المعاهدة على انهاء احتلال مصر عسكريا بالقوات البريطانية مع بقاء بعض القوات فى منطقة قناة السويس على الا يخل وجودها بأى حق من حقوق السيادة المصرية ، ونصت هذه المعاهدة كذلك على امكان تعاون القوات الانجليزية مع القوات المصرية فى الدفاع عن قناة السويس .

غير أن أهم ما تضمنته المعاهدة هو اقــرار حــق مصر فى الغــاء الامتيازات الاجنبية والغاء المحاكم المختلطة متى وجدت مصر الحاجــة ملحة الى ذلك •

كذلك تطرقت المعاهدة الى مسألة السودان وأقرت بقاء الســودان تحت العلم المصرى والعلم الانجليزى ، وأن يواصل حاكم الســودان نيابة عن مصر وانجلترا مباشرة سلطاته المخولة اليه ، وأن لا يكون هناك أى تمييز بين البريطانيين والمصريين فى شئون التجارة والهجرة •

كذلك أقرت المعاهدة حق مصر فى الانضمام الى عصبة الامم كدولة مستقلة •

كانت المعاهدة محل تأييد ومحل خلاف بين كافة المواطنين ، فمنهم من يرى أنها كسبا جديدا للاستقلال المنقوص الذى حصلت عليه مصر فى فبراير سنة ١٩٢٨ ، ومنهم من وجد فيها تكريسا للتبعية وأن الاضافات الاستقلالية فيها انما هى اضافات شكلية •

تولى فاروق الاول سلطاته الدستورية فى ٢٩ يوليو ســنة ١٩٣٧ ، وكانت الشهور السابقة على توليته قد شهدت بالفعل الغاء الامتيــازات الاجنبية فى مصر وحق الحكومة المصرية فى اقرار نظامها المالى والقانونى على النحو الذى تراه •

والامر الذى تجمع عليه معظم المصادر أن عقــد المعاهــدة فى سنة ١٩٣٦ قد أدى الى تقلص درجة التدخل البريطانى فى الشــئون المصرية الى حد ما فيما عدا سنوات الحرب العالمية الثانية (١) •

كذلك فان الصراع ما لبث أن نشأ بين الملك وبين القوى الداخليــة وخاصة القوى الوفدية التى فقدت الكثــير من أرضــيتها نتيجة تصور الكثيرين أن معاهدة سنة ١٩٣٦ قد حلت القضية الوطنية ، هذا فضــلا عن ظهور قوى سياسية أخرى ذات طبيعة شعبية مثل الاخوان المسلمون،

---

(١) د• يونان لبيب رزق ـ تاريخ الوزارات المصرية ، الاهرام ١٩٧٥ •

وجماعة مصر الفتاة الامر الذى سحب كثيرا من العناصر المؤيدة للوفد .

بصفة عامة استبشر المصريون خيرا بتولية الملك الشاب فاروق على عرش مصر ، وخاصة وأن مصر بدت وكأنها دولة مستقلة لها حكومة ذات سيادة يمكنها أن تشرع من القوانين والاجراءات ما يكفل النمو . ولكنها كانت مسيرة ستة عشر عاما هى عهد فاروق شهدت الكثير .

شهدت اليد الخافية الماكرة لانجلترا ومايلز لامبسون الذى كان يمثلها فى القاهرة . شهدت الصراع الجديد بين القصر ومحاولات التدخل الانجليزى للحد من سلطاته ، وشهدت الصراع بين القصر ووزارة الوفد، ووسط هذه الصراعات تعثرت مسيرة النمو .

وتذكر بعض المصادر (١) أن الوضع السياسى فى عهد الملك فاروق قد شهد أنواعا من العلاقات تتمثل فى :

- خصومة بين الملك والسفارة البريطانية .
- التحالف بين القصر وبعض أحزاب الاقلية ضد الوفد .
- تحالفات مؤقته بين الوفد والسفارة البريطانية ضد القصر وأحزاب الاقلية .

وأيا كان الرأى فى حقيقة تلك التحالفات فانه كان طبيعيا أن تلعب القوى السياسية فى مصر أدوارا متناقضة .

فاذا كانت مسيرة الصناعة والزراعة والتجارة قد شهدت تطورا ملموسا فى عهد الملك فاروق الا أن محاربة الفقر والامية والطبقية لم تأخذ الاهتمام الكافى من الحكومات الحزبية المتعاقبة ، ولم توضع ضمن برامج جذرية للتغيير ، وانما كان هيكل توزيع الملكية وهيكل توزيع الدخل تشيران الى تفاوت رهيب بين أقلية تملك كل شىء وتحتكر صدارة العمل السياسى والاجتماعى وبين أغلبية تعانى الفقر والتخلف .

---

(١) محمد جمال الدين المسدى ، د. يونان رزق ، مصر والحرب العالمية الثانية ـ الاهرام ـ القاهرة ١٩٧٨ .

وكان من الطبيعى أن تنتشر دعوات الاصلاح فى حزب مصر الفتاة الذى أسسه المجاهد الكبير أحمد حسين ومجموعة من شباب مصر المخلصين فى ذلك الوقت فمنهم فتحى رضوان المصرى الفذ الذى وكأن قلمه ولسانه معه قد تعاهدوا على النطق بالحق دون خشية الا من الله جل شأنه ، وكان منهم الثائر الكبير ابراهيم شكرى الذى يغضب لما عق ويغضب للشعب ويحمل فى خواطرة ثم فى برامجه منهجا متكاملا للاصلاح . وكثيرين حملوا الامانة مع أحمد حسين فى مصر الفتاة .

وتنتشر فى ذلك الوقت صيحة العدل الاجتماعى فى بيانات الاخوان المسلمين حيث انتشرت جماعتهم انتشارا كاسحا فى أنحاء مصر تربط بين الايمان بالله وعزة الوطن وعزة المسلمين فكان قائدهم الامام حسن البنا الذى بايعه الكثيرون من أبناء مصر بل وتضامن معه فى دعوته للاصلاح والعدل عدد من كبار رجال الاقباط فى سماحة وحب لاعلاء شأن الوطن .

وكان من الطبيعى أيضا أن تأخذ الافكار الاشتراكية سبيلها فى عقول بعض المثقفين آملين فى أن تطبيقها أو تطبيق بعضها انما يعود بالخير والنماء على الاغلبية العريضة التى حرمت لفترات طويلة من حقوقها المشروعة .

شهدت مصر فى عهد فاروق الاستقلال عن منطقة الاسترلينى واضطلاع حكومة مصر برسم سياستها النقدية ، وبزوغ البنك الاهلى المصرى كبنك مركزى يهيمن على السياسة الاقتصادية للبلاد ، ويتمتع بالرقابة على الائتمان المصرفى .

لم تعرف مصر المديونية الواسعة للخارج ، وانما كانت مصر دائنة لدولة الاستعمار الكبرى انجلترا بمئات الملايين من الجنيهات ، فقد كانت مصر تمول جيش الحلفاء فى الحربين الاولى والثانية بمقتضى سندات استرلينية مسحوبة على الحكومة الانجليزية ، واستمرت انجلترا تماطل

فى دفع حقوق مصر الى أن حلت مشـــكلة الارصـــدة الاســـترلينية فى الخمسينيات من هذا القرن •

كانت مسيرة النمو تسير ببطء شديد على المستوى المادى الملموس وان كانت تلك الفترة قد أثرت النهضة الفكرية والثقافية والدينية بحركه مستنيرة جعلت مصر كما كانت دائما فى مركز الصدارة فى الشرق كله •

غير أن أهم ما شهدته مصر من أحداث فى عهد المـــلك فاروق كان حـــدث نشـــوب الحرب العالمية الثانية فى ســـنة ١٩٣٩ ونشوب حـــرب فلسطين سنة ١٩٤٨ •

بدأت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وكان أطرافها فى هذه المرة انجلترا وفرنسا وروسيا ثم الولايات المتحدة من جهة وألمانيا وايطاليا واليابان من جهة ثانية • واختلف رجال مصر حول موقف مصر من هذه الحرب ، وما تتطلبه معاهدة سنة ١٩٣٦ منها •

واجتمع مجلس الوزراء عدة مرات ، وضغط السير مايلز لامبسون على الكثير من رجالات الوزارة والقصر لتعلن مصر الحرب على ايطاليـــا التى تهدد حدود مصر ، وخاصة أن القوات الايطالية قد استولت عـــلى جانب كبير من شمال أفريقيا وباتت على حدود مصر الشرقية بقيادة القائد جراتسيانى ، فتعالت أصوات كثير من المستنيرين وعلى رأسهم شـــيخ الازهر محمد مصطفى المراغى الذى أعلن أن الحرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل ، وكذلك رأى عدد كبير من الوزراء أنه من الضرورى تجنيب مصر ويلات الحرب ، بينما وجد عدد أخر أنه يجب أن تعلن مصر الحرب على دول المحور انتصار لانجلترا وحليفاتها حتى يمكن أن تستفيد مصر من بنود المعاهدة بضرورة قيام القوات الانجليزية بالاشتراك فى الدفاع عنها وخاصة أن التهديد قد أصبح على حدودها •

كان الملك على حسب ما تؤيد بعض المصادر لا يريد الـــدخول فى الحرب ، وانما كان يرتب لمفاوضات مع الجانب الايطالى على أن تتجنب

مصر أى اعتداء عليها من جانب دول المحور اذا أعلنت الحياد • ورغم ذلك كله فان تواجد الجيش الانجليزى على أرض مصر ، وخاصة بعد تقدم القائد الالمانى روميل الى العلمين غرب الاسكندريه كان ذلك بمثابة اشتراك فعلى عرض مصر لويلات الحرب العالمية الثانية • هذا فضلا عن التمويل الضخم الذى وقع على عاتق الميزانية المصرية لتمويل جيش الحلفاء فى مصر •

ولكن كراهية الشعب المصرى للانجليزى ظهرت واضحة فى المظاهرات التى اندلعت فى مصر تهتف بحياة الملك وتشيد بتقدم الالمان على اثر التقدم الملحوظ الذى حققه روميل ضد جيوش الحلفاء حتى العلمين فى صحراء مصر الغربية •

أدى ذلك كله الى ارتباك السفارة البريطانية فى القاهرة وعملت لاسقاط الوزارة القائمة بل كانت تود اسقاط الملك ذاته • ضغطت السفارة البريطانية على الملك لتكليف وزارة وفدية برئاسة النحاس باشا لتضمن الحكومة الانجليزية وجود حكومة قوية فى مصر لها أساس تسعى لتحفظ النظام فى البلاد وتناصر انجلترا فى حربها • قبل الملك فاروق مضطرا تكليف مصطفى النحاس لتشكيل وزارة جديدة ، كان ذلك فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، وكان ذلك سقطة قوية لحزب الوفد وسببا فى سحب الكثير من التأييد الشعبى له (١) •

كان الاولى برجال مصر رفض الانذار البريطانى ومساندة الملك أمام ضغط السفارة الانجليزية ، ولكنها كانت الظروف الدولية الصعبة •

انتهت الحرب بانتصار الحلفاء على ألمانيا وايطاليا واليابان وخرجت

---

(١) يروى د • محمد حسين هيكل قصة قبول الوفد لتشكيل الوزارة تنفيذا للارادة الانجليزية بأن النحاس قد رفض تشكيل وزارة ائتلافية وانه كان مستعدا لتشكيل وزارة وفدية خالصة اذا كلفه ملك مصر بذلك •

راجع محمد حسين هيكل _ مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثانى _ دار المعارف _ القاهرة ١٩٧٧ •

الولايات المتحدة كقوة عظمى ، وخرجت مصر وقد أرهقتها ظروف الحرب لتبدأ فترة جديدة من الصراع الحزبى على السلطة .

وجاءت سنة ١٩٤٨ لتشهد دخول القوات المصرية الى جانب القوات العربية ضد الكتائب الصهيونية التى كانت تعمل على قدم وساق بمساعدة الدول الكبرى لانشاء الكيان الصهيونى دولة اسرائيل . وأبلى الجيش المصرى بلاء حسنا فى حرب فلسطين رغم المؤامرات الدوليـــة . ورغـــم انسحاب القوات العربية التى كانت على مشارف القدس . نجح الجيش المصرى فى عدد من المواقع الهامة واستطاع أن يؤمن حدود مصر الشمالية. بل وأدى الدور الكبير الذى قام به جيش مصر أن يستبقى غـــزة ورفح تحت الادارة المصرية لسنوات طويلة أعقبت هذه الحرب .

عاد الجيش المصرى وان لم يكن قد حمل انتصارا فعليا ، فقد أثبت جدارة منقطعة النظير فى وقف الزحف اليهودى على كل فلسطين أو على القدس الشريف . ونشأت دولة اسرائيل .

لا تذكر المصادر التاريخية ما يبرر توجيه الاتهـــام الى القيـــادة المصرية ، وانما على النحو الموضوعى البحت كانت القيادة فى مصر مخلصة فى نواياها وان كانت حساباتها واستعداداتها ودرجة التنسيق فيما بـــين وحداتها والوحدات العربية الاخرى قد أصابها الخطأ الجسيم ، ولكنهـــا كانت مصر دائما المدافعة عن حقوق العرب ، ولم تأت الخيانة من صفوفها أبدا ولا من صفوف قادتها سواء كان الملك أو حكومته أو أركان قيـــادته العسكرية .

شهدت الفترة بعد حرب فلسطين حول ما أثير حول قضية الاسلحة الفاسدة ، ولكن اتضح فيما بعد أنه قد بولغ فى تصوير هذه القضية بحيث استغلها أعداء مصر للسب فى مصر وتحميلها مسئولية حرب فلســـطين ، ومصر التى قدمت الكثير من هذه الحرب ، التى اشترك فيهـــا الى جانب الجيش النظامى المصرى آلاف المتطوعين من المصريين سواء من الاخـــوان المسلمين أو من حزب مصر الفتاة أو من غيرهم من الوطنيين المصريين .

فقد ذكر شهود العيان ومنهم الفريق محمد فوزى وزير حربيه مصر فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات أنه لم تكن ثمة أسلحة فاسدة وانما كانت هناك بعض الذخيرة التى مضى وقت طويل على تخزينها ، وأدى وجودها على نحو متواضع الى بعض الاصابات نتيجة انفجار الدانة قبل اطلاقها ، ولم يصل الامر بعد الى توريط أفراد بعينهم بتعمد الخيانة .

ولم يكن الاستجواب الذى قدمة أحد أعضاء مجلس الشيوخ سوى ضرورة محاسبة اللجنة المسئولة عن مشتريات الاسلحة وعن ضرورة التحقيق فى مجريات الامور كلها .

أدى هذا الحادث برمته الى تأجج شعور الوطنيين فى مصر بعبث الحكومات الحزبية فى مصر .

كان الملك فاروق فى سنواته الاخيرة فى الحكم قد بدأ يبتعد عن ساحة التدخل الرشيد ، وتذكر بعض المصادر عنه أنه انشغل عن ادارة الحكم بنزوات الشباب ، ولم يعد له أمام الصراع الحزبى من جهة ، وممالأة بعض رجال الاحزاب للانجليز لم يعد له الا الابتعاد الى حدوده الضيقة ، وأسرف كثيرا على حياته الشخصية ، وأحاط به مجموعة من المرتزقة الذين هيأوا له طريق الغواية ، وزينوا له حياة اللهو .

كان الملك قد تزوج فى أول عهده بفتاة مصرية وهى صافيناز دو الفقار التى عرفت بعد ذلك باسم الملكة فريدة ، واثمر هذا الزواج عن ثلاثة من البنات ، ولم يستمر هذا الزواج الا فترة قصيرة .

عاود الملك الزواج مرة أخرى من ناريمان صادق وهى ابنة احدى الاسر المصرية الطيبة ، وأنجب منها ولى عهده الامير أحمد فؤاد .

فى أوائل الخمسينيات تدنت الفوضى الحزبية الى أقصى حد ممكن كان الغليان بدأ يعود للشعب المصرى ضد تواجد الانجليز فى القناة

وخاصة بعد ما تبين للجميع أن انجلترا كانت وراء قيام اسرائيل وعدا وفعلا .

انستبك المصريون مع الانجليز فى القناة ، وأستشهد كثير من الافراد والجنود وجنود الشرطة ، وبذء لقوات الشرطة فى هذه الايام دورا مجيدا . وكان لضباط مصر ومنهم ضابط شاب يدعى مصطفى رفعت موقف جليل بطل أمام قوات انجلترا فى القناة ، اندلع حريق القاهرة فى بدايه سنه ١٩٥٢ . كان التنظيم السرى للضباط الاحرار قد بدأ ينشط ويدعم صفوفه بعد العودة من فلسطين .

وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قام ذلك التنظيم باعلان الثوره على ذلك العهد كله . ووقع الملك فاروق وثيقة تنازله عن العرش لابنه الامير احمد فؤاد ، وغادر مصر فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ متوجها الى ايطاليا . واستقر بها الى أن وافته المنية سنة ١٩٦٥ لينقل جثمانه ويدفن فى مدافن أسرته بالقاهرة .

رحل فاروق عن مصر بعد ستة عشر عاما قضاها ملكا عليها ، استبشر به الشعب فى البداية ، وحسنت سيرته فى أول عهده ، وكان ندا عنيــدا للسفارة الانجليزية بالقاهرة ، ولكن الصراع الحزبى ، والتفاف المأجورين حوله ، وعدم استعانته بالقوى الاصيلة العريضة من الشعب المصرى كان ذلك كله سببا لان تنحرف مسيرته عما عهدته بدايته وعمــا كان يجيش بصدره وقت توليته ، وجاءت نهايته نهاية لحكم أسرته التى استمرت تحكم مصر نحو قرن ونصف وليبدأ عهد جديد .

***

وجاءت ثورة ١٩٥٢
وكان عبد الناصر

بدأت الثورة بحركة الجيش فى ٢٣ يوليــو ســنة ١٩٥٢ يتصدرها مجموعة من الضباط الشبان يترأسهم اللواء محمد نجيب الذى حمل على مسئوليته وعاتقه بداية الثورة ، وان كانت مشاركته فيها تقتصر فقط على تحمله للمسئولية فى يوم قيامها الا أنها كانت مسئولية لها قدرها وفضلها . فقد كان نجيب يتمتع بشعبية جارفة فى صفوف الجيش كله ، وكان رجــلا مهابا طيبا ودودا ، وكان اسمه كفيلا بأن يؤيد الثورة معظم كتائب الجيش وفصائله .

كان من بين أعضاء (١) مجلس الثــورة البــارزين البكباشى جمال عبد الناصر الذى كان له السبق فى تجميع الضباط وتحريكهم ، وكان لــه بعد ذلك الاثر الاول فى تغيير المسيرة من عهد الى عهد .

بدأت الثورة بتولى الامير أحمد فؤاد من الناحية الشكلية حكم مصر، وهو الذى لم يتعد عمره شهورا معدوده وقت قيام الثورة مــع مجلس وصاية يتألف من الامير محمد عبد المنعم ، ومحمــد بهى الــدين بركات ومحمد رشاد مهنا . ثم استمر مجلس قيادة الثورة فى تسيير دفة الامور حتى ١٨ يناير سنة ١٩٥٣ صدر الاعلان الدستورى بالغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية .

تولى اللواء محمد نجيب رئاسة الجمهورية الاولى حتى بدايــات سنة ١٩٥٤ ليتولى بعده جمال عبد الناصر الرئاسة الفعلية والاسمية ، وليبدأ عهد عبد الناصر الذى ما زالت بصماته على مصر محل ايجــاب وقبول ومحل معارضة ونفور .

---

(١) كان يضم مجلس قيادة الثورة ايضا كل من حسين الشافعى وأنــور السادات وخالد محيى الدين وزكريا محيى الدين وجمال سالم وصلاح سالم وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم.
واستمر بعضهم يعمل مع عبد الناصر وانفصل البعض الاخر الى أن بقى فى أخر عهد عبد الناصر منهم الى جانبه فى العمل السياسى كل من أنور السادات الذى تولى رئاسة مصر من بعده والسيد حسين الشافعى الذى استمر فى صدارة الحكم حتى بعد حرب ١٩٧٣ .

بدأ عبد الناصر مسيرة الاصلاح الزراعى ، وعقد اتفاقية الجلاء النهائى عن مصر ، وأعاد لمصر حقوقها فى قناة السويس كاملة ، ولم يعلن استسلامه لعدوان سنة ١٩٥٦ ، وبدأ حركة تمصير الشركات والبنوك الاجنبية ، وبدأت فى حياته أول وحدة من نوعها تربط بين مصر وسوريا فى القرن العشرين وترأس دولة الوحدة •

قام عبد الناصر بمناصرة الحركات التحررية فى كل من البلاد العربية وأفريقيا وآسيا • أعلن على العالم مبادىء عدم الانحياز وأسس الحركه التى ما زالت لها الصدى فى العالم الثالث •

وضع عبد الناصر أول خطة تنمية واعية للاقتصاد المصرى ترتكز الى القطاع العام ، وقامت الخطة بارساء قواعد نهضة صناعية وزراعية جديدة •

قام عبد الناصر بالعمل على بناء السد العالى كأكبر مشروع للرى فى العالم ولتوليد الكهرباء •

ظهر عبد الناصر على رأس المد القومى الساحق فى الخمسينيات والستينيات ولكن !!

كانت هناك الجراح الثقيلة ، كانت جراح فصائه المعارضة من التيار الاسلامى والتيار اليسارى فى أول عهد الثورة وفى خلال عهد عبد الناصر •

كانت الجراح التى أرهقت الالاف من الاسر ، ربما لم يقصد عبد الناصر أن تكون الجراح بهذه الفداحة ، أو ربما كان لا ينوى الجراح أصلا • وانما كان التنفيذ قاسيا • وحيثما كان عبد الناصر كانت المسئولية •

كانت هناك جراح نتجت عن ممارسات لجنة تصفية الاقطاع ، وبدت اللجنة بممارسات تصفية الحسابات الشخصية •

كانت هناك جراح تصفية أهل الكفاءة على حساب أهل الخبرة مما أثقل كاهل الاقتصاد المصرى بعدد من اللصوص انتهزوا فرصة مناصبهم وأثروا ثراء فاحشا على حساب قوى الشعب العريض •

كانت هناك الجراح لدى الذين صودرت أموالهم دون سبب أصيل يبرر ذلك ودون تمييز بين الوطنى والعميل •

كانت هناك الجراح لسيطرة الفوضى على مقدرات الحياة الاقتصادية وانتشار التسيب فى وحدات المال العام رغم بروز أعظم نجاح لاول خطة متكاملة فى الستينيات •

كانت هناك الجراح التى أفضت الى التفكك والفساد فى صفوف قادة الجيش وأدت به الى هزيمة مروعة فى سنة ١٩٦٧ •

نعم كان وراء الهزيمة قوى عظمى أرادت وأد شعلة مصر واسقاط عبد الناصر الرجل القوى فى الشرق وفى العالم الثالث • ولكن كان الداخل أيضا مليئا بالجراح التى أثقلت وزن الهزيمة ووسعت من فداحتها•

وبصفة عامة ما زال عهد عبد الناصر يضع للدارسين فرصة ليرى فيها الايجابيات والسلبيات وأن يضعها فى تقييمها الموضوعى دون أن يكون للتأثيرات الشخصية سواء كانت حبا للرجل أو حقدا عليه مكانا لهذه الدراسة •

***

خواطر فى مسيرة حكام مصر

- الغزو والفتح
- الهوية والانتماء

جغرافية الغزو والفتح وحكام مصر :

تبدلت حدود مصر عبر تاريخها الطويل ، ولكن عرفت مصر عبر القرون الطويلة موضعا كاد أن يكون ثابتا ، وانما كان التبدل والتغير فى الاطراف الجديدة التى كان يضمها حاكم معين أو أسرة معينة حاكمة ، أو أن تتقلص هذه الامتدادات على اثر غزو أو تمرد .

فقد كانت حدود مصر الثابتة تبدأ من الفرما أو العريش فى شمال سيناء وتستمر لتجاوز شبه جزيرة سيناء الى دلتا النهر العظيم فى الوجه البحرى الى جنوب الوجه القبلى فى مناطق النوبة شمال السودان . ويحدها من الشرق البحر الاحمر ومن الغرب الصحراء العربية والقبائل التى تسكنها .

امتد نفوذ مصر فى فترات كثيرة ليضم حكم الشام وشبه الجزيرة العربية ، وفى فترات أخرى يمتد هذا النفوذ جنوبا ليتجاوز السودان والحبشة وأوغندا وحتى منابع النيل ، هكذا كانت تتبدل حدود النفوذ السياسى ، أما حدود الارض التى شكلت فيما يسمى مصرا أو كان لها الاثر فى تشكيل الشخصية المصرية فكانت هى الحدود الثابتة التى نعرفها حتى الان .

ولذا فانه مع مسيرة حكام مصر يجب أن نفرق بين أكثر من ظاهرة :

١ – حدود النفوذ السياسى وحدود الوطن ، أما الاولى كان لها بصماتها على الجانب السياسى والاقتصادى ودرجات القوة والضعف على القائمين بالحكم ، وأما الثانية وهى حدود الوطن فهى التى كانت لها أكبر الاثر فى الصبغة الثقافية والهوية الوطنية ، والمثال على ذلك مصر والشخصية المصرية التى نبتت فى ذلك النطاق الجغرافى الضيق ، ومصر ذات الحكم والنفوذ حيث مارست حق السيادة على مناطق كثيرة دون أن تضم ثقافات تلك المناطق الى ثقافتها . وهذا يتضح كذلك عندما نفرق

بين حدود الدولة العثمانية وهى حدود النفوذ السياسى وحدود اللغة التركية ، فكل المناطق غير التركية التى حكمتها الدولة العثمانية [illegible] خصوصيتها الثقافية بل أنها لم تتقن فى أى فترة اللغة مجـرد [illegible] التركية .

وتبعا لهذه التفرقة ومع ثبات حدود مصر والوطن كان هناك [illegible] من حدود للنفوذ السياسى :

- ففى عصر بن طولون امتد النفوذ الى الشام .
- وفى عصر الدولة الفاطمية وكانت مصر عاصمة الـدوله . [illegible] حدود النفوذ تمتد لتشمل الشام وشبه الجزيرة العربية .
- وفى عصر صلاح الدين ورغم أن ذلك الحاكم الفذ كان يسعى لتوحيد الجبهة الاسلامية على صعيد واحد ، الا أن نفوذ مصر السياسى بقيادة صلاح الدين امتد لمصر والشام ومن بعده كان يتأرجح ذلك النفوذ وفقا لما تسفر عنه خصومات البيت الايوبى .
- وفى عصر الظاهر بيبرس وكانت مصر عاصمة الخلافة العباسية امتد نفوذ مصر ليشمل كل الدول الاسلامية فى الشرق .
- وفى عصر الدولة العثمانية لم يكن هنـاك أيـة حـدود للنفوذ السياسى وانما كانت مصر ضمن مناطق نفوذ الدولة العثمانية .
- وفى عصر محمد على ورغم التبعية الشكلية للدولة العثمانية امتد نفوذ مصر السياسى ليضم الشام وبعض مدن شبه الجزيرة العربية .
- وفى عصر اسماعيل امتد النفوذ السياسى لمصر جنوبا وحتى منابع النيل ، وان كانت انجلترا كانت مبثابة المترقب الماكر الخبيث الذى ما لبث أن أصبح شريكا ثم قفز ليلغى حدود النفـوذ السياسى داخل حـدود الوطن ذاته .

- بعد الاستقلال المنقوص امتد نفوذ مصر السياسى بظلال واهية الى السودان جنوبا ، واقتصر هذا النفوذ على مجرد أن يكون ملك مصر هو ملك مصر والسودان وان كان نفوذا شكليا .

- بعد ثورة يوليو اندمجت حدود النفوذ السياسى مع حدود الوطن الثقافى وطن الهوية الثابت .

٢ - عرفت مصر نوعين من الغزو أو من محاولات الغزو ، وقد يصعب التفرقة بين غزو وغزو ولكن الامر كان يتوقف على الغرض من هذا الغزو أو ذاك ، ولذلك كان موقف الشعب من أحدهما مغايرا للاخر تماما ، واليك بعض الامثلة المستقاه من مسيرة حكام مصر :

(أ) كان الفتح العربى فى شكله الاول غزوا عسكريا بقيادة عمرو ابن العاص ، نعم كان غزوا ولكنه كان يحمل فتحا جديدا للاسلام حيث كان يحمل عقيدة ، وكان الحاكم الاول وصحبه يعرفون منهج العدل ، ماذا كان موقف الناس من أهل مصر فى استقبال هذا الغزو ، كان الوضع فى مصر قد بلغ الى حد الذروة فى الغليان ضد حكم الرومان ، وكان قد سبق الفتح الاسلامى رسائل ودية بين نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم وبين المقوقس فى مصر ، وكان الناس قد عرفوا عن الاسلام بعض الذى جعلهم يأنسون الى الغزاه ، وعلى الاقل يقفون من ذلك الغزو فى البداية موقف الحياد ، ثم بعد ذلك يقفون منه موقف المناصرة والمؤازرة .

(ب) كان الغزو الصليبى لمصر سببا فى أن يقف المصريون منه موقف الخصم اللدود ، حتى انتهت الحملات الصليبية بفضل أن الشعب المصرى قد لفظ ذلك الغزو وعرف أنه جاء للسطو والنهب .

(ج) كانت محاولات الغزو المغولى لمصر ، واجهتها مصر كلها وباجماع أهلها وقوادها مواجهة عنيفة قاسية ، واجهت الجيش المغولى والفكرة المغولية ذاتها فأسقطتها .

(د) ولننظر الى الغزو الفاطمى لمصر ، وليعجب المرء حين يرى ان جوهر الصقلى قد شق طريقة من الاسكندرية الى العاصمة وهى فيما بعد القاهرة دون أى مقاومة تذكر •

يختلف الغزو الفاطمى عن الغزوات السابقة واللاحقة فى أنه يكاد يكون الغزو الوحيد الذى جاء عبر حدود مصر الغربية ، فقد عهدت مصر الغزو الخارجى برا عن طريق بوابة مصر الشمالية الشرقية وبحرا عن طريق دمياط أو الاسكندرية ، أما هذه المره فقد اختلفت جغرافية الغزو وجاء من الحدود الشرقية لمشر •

كذلك لم يحمل الغزو عقيدة جديدة ، فقد كان الغزاة يحملون اواء الاسلام، وان اختلف مذهبهم عن المذهب الشائع فى أهل مصر •

ولم يبتغى الغزو الجديد نهبا للموارد ، بل على العكس فقد جاء الغزو على اثر مجاعة حاقت بمصر وجاء مع الغزو الكثير من خيرات شمال أفريقيا فى شكل بضائع وحبوب •

واذا كان الغزو الفاطمى لم يلق مقاومة فقد يعود ذلك الى تردى حكام مصر من الولاة العباسيين وشيوع الفوضى والتسيب فى ادارة الحكم ، ومع ذلك لا يشفع هذا ألا تكون هناك أى مقاومة لذلك الغزو سوى أن القادمون مسلمون يدينون بدين أهل مصر ، وعلى ذلك يمكن أن نخلص الى نتيجة ربما يجد القارىء صحتها أن الدين كان عاملا أساسيا وراء المقاومة ، وأن اختلاف الدين كان يميز بين الغازى والفاتح ، أو بين الغازى الذى جاء ليستعبد أهل البلاد ، وبين الذى جاء ليعمل على تخليص البلاد من شر أحيق بها •

(هـ) اذا كانت النتيجة السابقة صحيحة فما بالنا بالموقف فى سنة ١٩١٦ وقد وقف الغورى حاكم مصر المسلم أمام السلطان سليم الاول حاكم الدولة العثمانية المسلم أيضا •

ماذا عساه أن يكون موقف الشعب المصرى وقد وقف الجيشان المسلمان يتقاتلان ؟

ما هو الموقف من الغزو العثمانى ، والذى كان جغرافيته أيضا من بوابة مصر الشرقية الشمالية ؟

وهنا برزت مشكلة الهوية فى قالب عملى قاسى كانت مبررات الدولة العثمانية أن الغورى قد فرط فى حقوق الامة الاسلامية بعد أن خسر المعركة البحرية مع القوات البرتغالية ، وكانت مبررات الغورى أنه لابد من مقاومة الغزاة العثمانيين وان كانوا مسلمين فهم غزاة . وكان الشعب المصرى مع الموقف بجناحية ، بدأ المصريون بالقتال مع السلطان الغورى ومؤازرة طومان باى من بعده الى أن انتهى الامر للسلطان العثمانى وبعد أن استقرت الامور وتحققت الغلبة لدولة الاسلام الام هدأت المقاومة الوطنية ، واشترك المصريون فى حروب الدولة العثمانية فى البلقان وغيرها، واشترك الجند من أهل مصر فى العمل مع الاتراك فى الدفاع عن البحر الاحمر وجعله بحيرة اسلامية خالصة .

واذن كان الموقف هوية مصرية وهوية اسلامية وهنا يختلف الامر عن الحال عند هزيمة الجيش المصرى بقيادة عرابى فى القرن التاسع عشر وتحقيق الغلبة للجيش الانجليزى فرغم الهزيمة لم تهدأ المقاومة ضد الانجليز .

وهنا نحن أمام أمرين متغايرين :

— كان المصريون وتحت هوية الوطن مع السلطان الغورى المسلم ضد السلطان سليم الاول الغازى المسلم ، ولما تحققت الغلبة للسلطان العثمانى هدأت المقاومة وتحولت مصر الى دعامة للدولة الاسلامية الجديدة

— كان المصريون وتحت هوية الوطن والدين مع عرابى ضد الانجليز ولما تحققت الغلبة للانجليز لم تهدأ المقاومة واستمرت مصر خصما للانجليز حتى نالت استقلالها وعلى ذلك فان هوية مصر هويه مركبة يتشابك فيها العنصر الوطنى ذو الخصوصية الثقافية السلوكيه مع العنصر العربى ذو الخصوصية التاريخية المستمرة مع العنصر الدينى العقيدى الذى حمله الاسلام واستقر فى العقول والافئدة ، فالتاريخ يشهد على عروبة مصر واسلامها .

٣ — هناك ظاهرة ثالثة يجب أن نقف عندها فى مسيرة الحكام ونفرق بين ظاهر التمدين وعمق الحضارة ، أما التمدين الظاهر فلا يعدو أن يكون مجموعة من الاشكال المادية العارضة التى وفدت الى مصر واستقرت فى بعض الافعال والاقوال ، وغيرت من بعض أساليب الفن الانتاجى وبدلت من شكل الخدمات ، ولكن هذا التمدين الظاهر لم يشق طريقة بعده الى القلوب والوجدان .

أما عمق الحضارة فقد كان له حرارة الايمان فقد صبغ الشخصيه المصرية صبغة ثقافية التصقت بالانسان المصرى ، وفى مسيرة الحكام نجد أن عمق الحضارة قد نبت فى نفوس المصريين عبر التاريخ بعد ان عرفت مصر توحيد الخالق والتوكل عليه وعرفت منهه الله فى العدل وضرورة مقاومة الظلم ، وتلك خصائص ثقافية أثمرت فى أفئدة الشعب المصرى بعد فتح عمرو بن العاص لها ، وبعد أن مارست ذلك السلوك فى مقاومه الغزو الصليبى والغزو المغولى ، وما زال هذا العمق قائما حتى الان فى النفوس ، وكان أن يكون موقعه فى الشخصية المصرية موقع الثبات .

ومع مسيرة مصر أيضا نجد أنه فى قرن واحد وهو القرن التاسع عشر رحل فى أوله نابليون الغازى الفرنسى وجاء فى أخره كرومر ممثل الغزو الانجليزى ، ونتساءل هل كان لنابليون وكرومر فى مصر أثرا فى تغيير العمق الحضارى للشخصية المصرية الاصيلة أم أن أفعالهما لم

نبعد التمدين الظاهر فى أساليب الفن الانتاجى واللذان أتيا به ليس نقلا عن حضارة كما يزعم البعض ولكن للتطور العلمى الهائل الـــذى أعقب الثورة الصناعية والذى كان له أن ينتشر سواء كان نابليون وكرومر فى مصر أو غير ذلك •

ظواهر كثيرة تصاحب رحلتنا مع حكام مصر لا يبقى منها الا أن ندعو القارىء للتأمل فى المسيرة فلعل فيها ما يحمل الى المستقبل وحكومات الحاضر بعض ما يجب أن نعيه جميعا •

***

وبعـــــد ...

لعل رحلتنا مع القارىء الكريم عبر ١٨٥ من الحكام يمكن أن تضع لنا بعض الملامح :

أولها - أن الشعب المصرى كان دائما هو الشعب المعطاء الطيب ، أعطى الكثير للدولة الاسلامية الام ، قدم الجند والعتاد والفكر والثقافة، واستطاع هذا الشعب أن يفرق بين السراب والحقيقة وبين الخداع والنبل ، استقبل فتح عمرو بن العاص واندمج فيه وأخذ منه العروبة والاسلام وانصهر فيهما ، كان يفرق بين غزو الاجنبى الذى جاء ليدنس الارض وينهب ثرواتها وبين أهل العقيدة الذين جاءوا ليحرروا الفكر والعقل من قيود الوثنية ، ومن العبودية للرومان •

نعم لم يكن القادة جميعهم وعبر أربعة عشر قرنا من المصريين فى الاصل ، فلم تكن هناك نظرية عرقية أو تعصب جنسى ، فقد رفض الاسلام فى صدارته الاولى التفرقة بين الاجناس والالوان والالسنة، وانما كان العمل فى اعمار الارض ونشر العدل هو فيصل التقييم للبشر، ولا سيما فئة الحكام •

وعموما فأهل مصر هم الذين عاشوا على أرضها حتى وان لم يولدوا فيها ورزقوا من خيراتها وأحبوا أهلها وعشقوا العيش فيها وتبعا لهذا فان الشعب المصرى اذا ما تتبعنا أصوله فسنجد أنه عبر التاريخ قد حدثت هجرات كثيرة الى مصر انصهرت جميعها فى نسيج واحد له ملامحة الثقافية والسلوكية المتسقة ، فأصبح المصرى يعرف بلسانه وسلوكه وعاداته ، وأصبح من الصعب أن نفرق بين المصرى الذى يعود أجداده الى الفراعنة ، والمصرى الذى يعود أجداده الى الاتراك أو الجركس أو قبائل القوقاز •

وحتى المهاجرون الذين لم يعتنقوا الاسلام واستمروا على ديانتهم انصهروا فى النسيج الثقافى المصرى ، وباتوا مصريين مع الاغلبية

المسلمة فى عاداتها وسلوكها ولا تختلف عنها الا فى سويعات محدودة يمارسون فيها طقوس الدين .

فما يميز المصرى المسلم من ملامح شخصية سلوكيه تميز المصرى المسيحى ، وما يصيب هذا يصيب ذاك ، وما يظهر على المصرى الذى تمتد أصوله الى الفراعنة الاوائل يظهر على المصرى الذى يرجع الى أصول تركية أو مغولية أو فارسية .

كان الانصهار تاما فكسب الجديد من الشخصية المصرية القديمه . وكسب القديم من الشخصيات الوافدة ، ومع ذلك الكسب الكبير كانت المعاناة الكبيرة أيضا ، فقد كانت أرض مصر وعلى مر التاريخ كله مطمعا للمغامرين والحاقدين . ورغم كل المعاناه فعلى أرضها حسمت الحروب الصليبية لصالح الحق والعدل ، وعلى أرضها حسمت حروب المغول لصالح الحضارة الانسانية كلها ، وعلى أرضها حسمت كثيرا من الصراعات العقائدية والقبلية ، وما زال الصراع قائما طالما بقيت مصر . فهكذا كان قدرها .

ثانيها — قد يروع القارىء السلبية الشديدة التى ألمت بالمصريين وهم يشهدون تبدل الحكام بين حين وأخر اما باذن من الخليفة فى دولة الخلافة أيا كانت ، أو نتيجة الصراع داخل البلاط الحاكم . دون أن يقوموا بأى فعل أو رد فعل .

هكذا كانت الرؤية فعلا . نعم فاما أن يقوم الخليفة بتعيين أحد أصفائه ، واما أن ينتهى الصراع العسكرى لتغليب فئة على أخرى فيصبح قائد الفئة المنتصرة هو حاكم مصر ، هذا حدث بالفعل ولسنوات طويلة ولكن هذه السلبية ليس لها ما يبررها فعلا فالحاكم القوى العادل الذى يعمل وفق منهج سوى آمن مكر البلاط واطمأن اليه الشعب وكان دعامته فى حكمه ، وأما الحاكم الباخس لم يلبث بالحكم الا قليلا .

لم تكن السلبية وان ظهرت أعراضها فى بعض العصور هى أساس السلوك ، وانما كانت قوة الحاكم من قوة الجند ، وعندما كانت قوة الجند وتمويلهم من قوة الشعب كان الشعب هو صاحب القرار الاخير فى بقاء الحاكم وان كان تقرير ذلك القرار يتم بطريق غير مباشر . فالشعب هو الذى يزرع ويصنع ويبنى .

ثالثها — كيف كانت صحوة الشعب المصرى أمام الحروب الصليبية. وكيف عبأ الشعب المصرى قواه لمقاتلة المغول بل أكثر من هذا أنه بعد انتصار جند مصر على أسلحة المغول المادية من عتاد وسلاح استطاع الفكر المصرى الذى أثرى بالاسلام وأثرى هو نفسه الفقه الاسلامى استطاع هذا الفكر هزيمة الفكرة المغولية ذاتها وقضى عليها قضاءا نهائيا ، فكل المغول الذين لجأوا الى مصر هربا من قادتهم ، أو لجأوا اليها أسرا وقهرا دخلوا الى الاسلام طواعية ، وانصهروا وتصاهروا فى أهل مصر .

كان هذا هو الذى حدث بالفعل كما تؤكده المصادر التاريخية ، بل ان ملوك المغول ما لبثوا أن تحولوا الى الاسلام بعد أن عرفوا ثماره فى مصر ، وكيف أن العقيدة القتالية التى كان يحارب بها جند المسلمين من مصر لم تكن تقوم على السفك والانتقام ، وانما كانت تقوم على قهر الباطل وحماية حقوق الناس ، فسقطت العقيدة المغولية نهائيا ، وباتت بعد ذلك الدولة المغولية دولة مسلمة لقرون تالية .

كذلك يمكن أن تكون هناك وقفة جادة أمام بعض مشاهد التاريخ فى مصر ، وقفة جادة لنرى كيف كانت المقاومة العظيمة لاهل مصر عندما دنس لويس التاسع أرض مصر فى دمياط والمنصورة ، ثم كانت مقاومتهم يوم أن غزا نابليون أرض مصر .

والوقفة هنا تستدعى التساؤل من الذى أعطى للاخر الصدمة الحضارية جند مصر أم جند فرنسا ، ولنا فى هذا التساؤل موقف كل ما نرجوه ألا يكون تعصبا لمصر شعبا وأرضا وعقيدة .

العطاء الحضارى من مصر وليس من فرنسا :

كثير من أساتذتنا المؤرخين المبدعين يشيرون الى الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بأنها كانت بمثابة الصدمة الحضارية التى أيقظت مصر من سبات عميق خضته مصر فى نطاق الدولة العثمانية ، وعبث المماليك •

نعم كانت القرون الاخيرة من حياة الدولة العثمانية قرونا مظلمة فى أغلبها بعد أن كانت الدولة العسكرية الاولى فى العالم والتى كانت لها السطوة فى البر والبحر على بلاد الشرق وشمال أفريقيا بل وفى داخل أوروبا ذاتها •

نعم شهدت أخريات الدولة العثمانية معاول الهدم من الداخل والخارج ، واستطاعت المؤامرات الدنيئة الصليبية والصهيونية أن تصل بالعناصر الفاسدة الى بلاط السلطنة العثمانية ذاتها •

نعم بات الدين الاسلامى على ألسنة السلاطين فى نهاية الدولة العثمانية بعد أن كان فى صدورهم وسلوكهم ، تحول الدين الى شعار يرفعه بعض السلاطين لتأكيد سطوته على الرعية بعد أن كان الاسلام هو الجسر الذى يربط بين الحاكم والمحكوم ، بعد أن كان الاسلام فى المنهج يشيع العدل بين المحكومين ، بعد أن كان الاسلام فى السيف الذى يسلط فقط على رؤوس الظالمين •

نعم ابتعد الحق عن السلطنة العثمانية فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، وفسد الولاه فى أنحاء ولايات الدولة ومن بينهم مصر ، وصار الحكم الفعلى لقواد المماليك وجاء نابليون الى مصر ، والتساؤل هنا ما هو المنهج الذى جاء به نابليون ، كان منهجه الغزو للنهب نعم كان هذا منهجه نهب جغرافية مصر ومواردها وقطع الطريق على انجلترا خصم فرنسا فى ذلك الوقت •

ربما كان غلاف الغزو والنهب غلافا أنيقا ظهر فى بيان نابليون الأول للشعب المصرى وهو يعده باحترام الاسلام واحترام العقيدة والشعب ولكن هذا الغلاف الانيق كان يحمل فى صفحاته مضمون الغزو والنهب

ومع ذلك لم يلبث حتى ذلك الغلاف الانيق والذى حمله نابليون ورفاقه مع بعض العلماء الذين جاءوا للمسح الجغرافى ووصف مصر ومع بعض آلات الطباعة الحديثة ما لبث ذلك الغلاف أن تقطع تماما وأصبح سرابا وهميا فلم يأت العلماء لوصف مصر للبنات النماء ، وانما اكتشف حجم ما يمكن أن يكون عليه المدد المصرى لدولة فرنسا ، ولم تأت آلات الطباعة الا لطبع منشورات اعلان الطوارىء فى مصر ، والى جانب ذلك البريق كانت القنابل أو القنبل كما وصفها الجبرتى ، وكانت الاسلحة الفتاكة .

والتساؤل هنا :

— هل حريق القاهرة الذى أشعله جند نابليون فى مصر ، والاضرار بالأهل والحرث كان مظهرا حضاريا ؟

— هل كان اعدام محمد كريم بوحشية وباستخدام الخازوق .. هل كان ذلك ضمن منهج حضارى ؟ ولم يكن محمد كريم وصحبه الا مجموعة من المصريين الذين كانوا يقاومون الغزاة الذين سطوا على وطنهم .

— هل يعتبر دخول الأزهر بالخيل وضرب المسجد الكبير بالمدافع وارهاب المصلين ، هل كان ذلك تصديرا للحضارة ؟

— هل يعد خروج العسكر الفرنسيين مع الفرنسيات عاريات سكيرات فى شوارع القاهرة دون احترام لاية مشاعر من أصحاب البلاد : هل كان ذلك بعض الحضارة ؟

لقد ترك نابليون بونابرت مصرا وقد أشاع فيها الخراب ، أما الحضارة فهى الحضارة وهى براء تمام البراءه من أفعال بونابرت فى مصر .

ولنذكر المثل الاخر الذى تذكرة فرنسا ويذكرها بعض مؤرخينا العظام ، لنذكر حملة لويس التاسع على مصر والتى سبقت حملة نابليون بنحو سبعة قرون •

كان لويس غازيا على رأس حملة كبيرة واحتل مدينة دمياط ، وبدأت المقاومة المصرية العنيفة التى كان يقودها عظام المماليك فى أخر العهد الايوبى ، كانت المقاومة من القرى والمدن حول دمياط ، وانتصرت مصر وتم أسر لويس التاسع ، وكانت زوجته فى دمياط وشهدت شهور حصار المصريين لدمياط شهور الحمل والولادة لزوجة ملك فرنسا •

ويشهد التاريخ كيف تعامل (١) شعب مصر المتحضر مع الملك الاسير فى المنصورة ، وكيف ساعدت المصريات القرويات التى عرفن الحضارة الحقه بفطرة الانسان السمحه ، كيف قامت هؤلاء النسوة من ذلك البلد الطيب بمساعدة زوجة الملك الاسير وزوجات الاسرى !

ويذكر التاريخ كيف خرج لويس التاسع الغازى منسحبا الى بلاده بعد فشل حملته وهو لا يصدق أنه كان أسيرا ثم أطلق سراحه دون انتقام، عرف أن المسلمون وهم فى نشوة النصر كانوا يكبرون ويسبحون ويشكرون الله دون أن يتبعوا ذلك بقتل طفل أو أمرأة أو أسير وضع سلاحه حتى لو كان هذا الاسير هو ملك فرنسا ذاته •

لننظر ونرى من الذى قدم للتاريخ السلوك الحضارى المقاوم المصرى الذى تسامح مع الغزاة بعد النصر •
أم الغازى الفرنسى الذى فتك بالاهل بعد السطو ؟

لنقف مع الحكام قليلا ولتكن هذه اللقطات مع لحظات الانتصار والازدهار ولتكون خاتمة لهذا الاعداد ، فذلك القائد العظيم صلاح الدين يوحد الصف الاسلامى ويحرر الارض المغتصبة ويسترد بيت المقدس •

---

(١) أنظر _ سعيد عبد الفتاح عاشور _ ما لم يعرفه الناس عن حملة لويس التاسع _ مجلة العربى _ الكويت ١٩٨٦ •

وذاك بيبرس وهذا قطز وهم يردان عن مصر وعن العالم كله خطر الهمجية والبطش الذى حملة المغول •

وهذا الناصر بن قلاوون الذى يثبته الشعب على حكم مصر أكثر من مره ويقفون معه للرد عن مصر غزوات الطامعين •

ولنعود ولنؤكد أن قوة المنهج وسلامة التطبيق وقوة الحاكم كانت ثلاثة أسباب وراء الازدهار والاعمار والانتصار • وأن تخلف أحدهـا كان سببا فى الانحسار هكذا كانت مسيرة الحكم فى مصر •

ولله الأمر من قبل ومن بعد ••

أهم المصادر :

١ ـ ابن اياس ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ القاهرة ـ ١٩٦١
٢ ـ المغريزى ـ السلوك لمعرفة دول الملوك .
٣ ـ السيوطى ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
٤ ـ الجبرتى ـ تاريخ عجائب الاثار فى التراجم والاخبار دار الجيل ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٣ .
٥ ـ أحمد حسين ـ موسوعة تاريخ مصر ـ الاجزاء الاربعة دار الشعب ـ القاهرة سنة ١٩٧٨ .
٦ ـ أحمد خاكى ـ رسائل من مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ١٩٧٦ .
٧ ـ د.ابراهيم شكيب ـ حرب ١٩٤٨ رؤية مصر ـ دار الزهراء للاعلام ١٩٨٦ .
٨ ـ د.أمين سامى باشا ـ مصر والنيل من فجر التاريخ الى الان ـ دار الكتب المصرية ١٩٣١ .
٩ ـ د.السيد الباز العرينى ـ المماليك ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٩ .
١٠ ـ حسن يوسف ـ القصر ودورة فى السياسة المصرية ـ الاهرام ١٩٨٤ .
١١ ـ د.حسين مؤنس ـ تاريخ مصر من الفتح العربى الى أن دخل الفاطميون ـ تاريخ الحضارة المصرية ـ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة .

١٢ ـ د٠حسين مؤنس ـ التاريخ والمؤرخون ـ دار المعارف ١٩٨٢ ٠

١٣ ـ د٠سوسن محمد نصر ـ بنو أيوب مع الخوارزميـة والمغـول والمماليك ـ بحث منشور ـ المجلة التاريخية المصرية ١٩٨٤ ٠

١٤ ـ د٠جلال يحيى ـ مصر الحديثة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٢ ٠

١٥ ـ د٠جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ دراسة فى عبقرية الزمان ـ عالم الكتاب ١٩٨٢ ٠

١٦ ـ د٠سعيد عبد الفتاح ـ الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ٠

١٧ ـ د٠سعيد عبد الفتاح عاشور ـ المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٢ ٠

١٨ ـ عبد الرحمن الراضى ـ عصر محمد على ـ دار المعارف ١٩٨٢ ٠
ـ عصر اسماعيل ـ دار المعارف ١٩٨٢ ٠

١٩ ـ على باشا مبارك ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٠ ٠

٢٠ ـ د٠على ابراهيم حسن ـ التاريخ الاسلامى العـام ـ مكتبـة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣ ٠

٢١ ـ د٠عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ـ أجزاء ثلاثة ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٨٠ ٠

٢٢ ــ د٠عبد الخالق لاشين ــ سعد زغلول ودوره فى السياسه المصريه ــ دار العوده ــ بيروت ١٩٧٤ ٠

٢٣ ــ سيف الدين الكاتب ــ عمرو بن العاص السهمى ــ دار أقرأ ــ القاهرة ١٩٨٤ ٠

٢٤ ــ محمد رفعت بك ــ تاريخ مصر السياسى فى الازمنة الحديثة ــ المطبعة الاميرية ــ القاهرة ١٩٤٢ ٠

٢٥ ــ د٠محمد حسين هيكل ــ مذكرات فى السياسة المصرية ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٨٤ ٠

٢٦ ــ د٠جمال الدين شيال ــ مصر فى عصر الفاطمى ــ تاريخ الحضارة المصرية ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ٠

٢٧ ــ د٠محمد مصطفى زيادة ــ الدولة المملوكيسة الاولى ــ الدوله المملوكية الثانية ــ تاريخ الحضارة المصرية ــ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ٠

٢٨ ــ د٠عارف تامر ــ الحاكم بأمر الله ــ دار الافاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٢ ٠

٢٩ ــ د٠عبد اللطيف حمزة ــ الأدب المصرى من الدولة الايوبية الى الى الحملة الفرنسية ــ دار النهضة المصرية ــ القاهرة ٠

٣٠ ــ د٠محمد كامل حسين ــ الحياة الفكرية والادبية من الفتح العربى الى الدولة الفاطمية ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ٠

٣١ - د.عبد الرحمن زكى - بناه القاهرة فى آلف عام - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦ .

٣٢ - محمد كمال السيد - الازهر جامع وجامعة - الازهر ١٩٨٤ .

٣٣ - د.محمد فؤاد شكرى - مصر فى مطلع القرن التاسع عشر - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨ .

٣٤ - محمود مصطفى - الادب العربى فى مصر من الفتح الاسلامى الى نهاية العصر الايوبى - دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧ .

٣٥ - د.محمد جمال الدين المسدى - ديونان لبيب رزق - د.عبد العظيم رمضان - مصر والحرب العالمية الثانية - مؤسسة الاهرام القاهرة ١٩٧٨ .

٣٦ - د.يونان لبيب رزق - تاريخ الوزارات المصرية - الاهرام القاهرة ١٩٧٥ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحه
تقديم وأمانة	١
مصر قبل الفتح الاسلامى	٤
عمرو بن العاص	٦
حكام مصر فى صدر الفتح الاسلامى	١٦
مسيرة الحكم الاموى فى مصر	٣٤
حكام مصر فى عهد الخلافة العباسية	٣٩
أحمد بن طولون ومحاولة الاستقلال	٥٤
الحكام من بنى طولون	٥٦
حكام بنى الاخشيد	٦٤
الدولة الفاطمية والاستقلال الثانى لمصر	٧٠
حكام مصر الفاطميين	٧٤
الناصر صلاح الدين	٩٦
حكام مصر من بنى أيوب	١٠٠
حكام مصر فى دولة المماليك البحرية	١١٣
حكام مصر من المماليك الجراكسة	١٣٨
انتهاء حكم المماليك فى مصر	١٥٣
الدولة العثمانية	١٥٧

أصل ونشأة الدولة العثمانية ١٥٧
مصر والحكام العثمانيين ١٥٩
الاستقلال القصير المضطرب
عهد على بك الكبير ١٧٦
عودة التبعية للدولة العثمانية ١٨١
اقتسام السلطة فى مصر ١٨٣

ابراهيم بك ومراد بك

ثلاث سنوات تحت الاحتلال الفرنسى
حملة نابليون ١٨٤
اغتيال كليبر فى القاهرة ١٩٢
الجنيرال مينو ١٩٣
عودة التابعية للسلطنة العثمانية ١٩٥
أسرة محمد على : ٢٠٠
محمد على ٢٠١
ابراهيم ٢٠٦
عباس الاول ٢٠٧
محمد سعيد ٢٠٨
اسماعيل ٢١١
توفيق ٢٢٢
عباس حلمى الثانى ٢٣٠

السلطان حسين كامل ٢٣٧

أحمد فؤاد

السلطان والملك ٢٤٠
الملك فاروق الاول ٢٤٧
وجاءت ثورة سنة ١٩٥٢ ٢٥٨
(وكان عبد الناصر)
خواطر فى مسيرة حكام مصر ٢٦١
الغزو والفتح
(الهاوية والانتماء)
وبعـــــد ٢٦٩
العطاء الحضارى من مصر وليس من فرنسا ٢٧٣
أهم المصادر : ٢٧٧

رقم الايداع : ٨٨/١٦٥٣
٩٧٧-٠٤-٠٣٦٩-٥

مؤسسة الرضـا للطباعة
عبد العزيز حمدى
٣ ش طايل ــ طريق الملكة ــ جيزة
ت : ٨٦٢٩٤٩